

المكتبة الإسلامية
في
سراي القضاة (القضاة)

الحقوق جميعها محفوظة للمؤلف - الطبعة العاشرة ١٤٢٢هـ -

الهدف والإخراج بقسم الهدف بدار بلنسية

دار بلنسية للنشر والتوزيع - المملكة العربية السعودية - الرياض
ص.ب ٥٧٢٤٢ - الرمز البريدي ١١٥٧٤ - هاتف وفاكس: ٤٥٤٧٥٤٩ (٠١)



المنهج الأسنى في سير في سماء الله الحسي

تأليف
و. ز. بن محمد شحاته
أستاذ مشارك بكلية التربية
جامعة الملك سعود

تقديم
الدكتور عبد الرحمن بن صالح المحمود
أستاذ العقيدة بكلية أصول الدين
بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

الجزء الأول

مكتبة الجواهر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال الله تعالى :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا
وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ
مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١).

قال رسول الله ﷺ :

«إن لله تسعة وتسعين اسماً ، من
أحصاها دخل الجنة» (٢).

(١) سورة الاعراف ، آية : ١٨٠ .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد ، ومسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة
والاستغفار .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الأستاذ الدكتور

عبد الرحمن المحمود

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين

وبعد :

فإن من أهم ما يحتاج إليه المسلم في كل زمان - وخاصة في هذا الزمان - تعلم العقيدة الصحيحة على منهاج السلف الصالح - رحمهم الله تعالى - خاصة مع انتشار البدع القولية والعملية وكثرة الدعاة إليها - لأكثرهم الله .

ومن نعم الله علينا ما نشاهده في هذه الأيام من حرص على نشر كل ما يتعلق بعقيدة السلف الصالح والرد على المخالفين لها ، وقد شمل هذا تحقيق كتب أئمة أهل السنة والجماعة المتقدمين ، وردودهم على أهل البدع ، سواء كانت كتباً كبيرة تبلغ مجلدات ، أم رسائل صغيرة ذات موضوعات عامة أو خاصة ، كما شملت هذه الجهود المباركة تلك الدراسات المتنوعة حول قضايا العقيدة والرد على المخالفين لها التي يقوم بها عدد من الباحثين - ضمن الدراسات الجامعية أو خارجها .

وهذه الجهود المتنوعة إن شاء الله تعالى ينبغي أن تسندها دعوة قوية إلى العقيدة على منهاج السلف الصالح ونشرها في كل مكان ، وبشتى الوسائل ، وهذه أمانة في أعناق العلماء وطلاب العلم والدعاة إلى الله تعالى ، أن ينوعوا وسائل نشر هذه العقيدة بالتأليف وشرح العقيدة ، وبالرد على المناوئين لها من الملاحدة والزنادقة واليهود والنصارى ، وأهل البدع ، وبالشرح لها عن طريق الدروس العلمية والمحاضرات ووسائل الإعلام ، وينشر الدعاة إلى هذه العقيدة في كل مكان ، وبغير ذلك من الوسائل المشروعة .

وعقيدة السلف الصالح - من أعظم ميزاتهما - والحمد لله - أنها عقيدة سهلة، مقبولة، مدللة بأدلة الكتاب والسنة، يتبناها جميع الناس على مختلف مستوياتهم، فهي للعلماء وللعمامة، وللرجال والنساء، ولل كبار والصغار، لأنها بعيدة عن كل تكلف أو مناهج وطرائق فلسفية أو كلامية، وهي تقوم على ربط المؤمن بالأدلة الواضحة من الكتاب والسنة وفهم السلف الصالح رحمهم الله جميعاً.

والعقيدة عندما تكون صحيحة وسليمة يك ون لها الأثر العظيم على حياة المؤمن في الدنيا وفي الآخرة، في الدنيا: في حياة صالحة طيبة عمادها توحيد الله الخالص والبراءة من الشرك وأهله، وما يتبع ذلك من العمل الصالح والبعد عما حرم الله، ومراقبة الله تعالى في السر والعلن، وما ينتج عن ذلك من طمأنينة قلبية وسعادة لا يعرفها إلا أهل الإيمان والاعتقاد الصحيح، ويمتد هذا الأثر الفردي إلى الأسرة والمجتمع الإسلامي كله، فيتحول إلى مجتمع إيماني عابد لله تعالى مطبق لأحكامه، تسوده الأخوة والأمن والإيمان. وفي الآخرة.

وهو الأهم والأعلى والأغلى - الفوز برضوان الله وجنته والنجاة من أليم عقابه، في يوم هائل عظيم تنقطع فيه الأنساب والأسباب إلا سبب واحد عماده توحيد الله وحده لا شريك له وطاعته بامتثال أوامره واجتناب نواهيه ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء، آية: ٨٨، ٨٩].

ومسائل العقيدة والإيمان كلها لها الأثر العظيم في حياة الإنسان في الدنيا وفي الآخرة، بدءاً بآركان الإيمان: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسوله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره - إلى آخر مسائل العقيدة وفروعها وتفصيلها.

ولعل من أهم مسائل الإيمان وأعمقها أثراً ما يتعلق بأسماء الله وصفاته ،
إذ شرف العلم بشرف المعلوم ، وكذا نقول بالنسبة لأثر الإيمان ، فكلما شرف
العلم كان أثره أكبر وأعظم .

والدراسات المتعلقة بأسماء الله وصفاته على قسمين :

الأول: ما يتعلق بالإيمان بها وإثباتها ، وقواعد أئمة السلف في ذلك ،
والرد على المخالفين من أهل التأويل والتحريف والتعطيل ، والتشبيه
والتكليف والتفويض .

وهذه - والحمد لله - قد كثرت فيها المؤلفات قديماً وحديثاً وتنوعت فيها
الدراسات المطولة والمختصرة ، وكثير منها منشور ومطبوع - ونسأل الله تعالى
أن يثبت كل من كان له جهد في ذلك علمي أو عملي أو مادي في نشرها في
كل مكان .

الثاني: ما يتعلق بأثر الإيمان بأسماء الله وصفاته على منهاج السلف
الصالح في حياة المؤمن خاصة وأمة الإسلام عامة . وهذا أمر مهم جداً له
أثره العميق في حياة المؤمن إذ هو الثمرة الحقيقية للإيمان بأسماء الله وصفاته
ومعرفتها وتدبر معانيها .

وكثيراً ما كنت أسأل عن هذا الموضوع ، وعن كيفية تأثر المؤمن بالإيمان
بها ، وأهم المراجع المفيدة في ذلك .

وأحب أن أنبه إلى أن الكتب والمؤلفات في هذا الموضوع المتعلق بمعاني
أسماء الله وصفاته وشرحها وأثرها تنقسم إلى قسمين :

أحدهما: ما نهج فيها أصحاب منهج السلف الصالح ، فجاء كلامهم
بعيداً عن التأويل والتعطيل ، والتشبيه ونحو ذلك من مناهج أهل الباطل .

ومن أبرز من كتب في ذلك - وهو ما من باب المثال لا الحصر :

١- ابن القيم- رحمه الله تعالى- في كتبه وبخاصة نونيته (الكافية الشافية) ومدارج السالكين ، ومفتاح دار السعادة . ولاين القيم أسلوبه الخاص في عرض هذه المسائل المتعلقة بأسماء الله وصفاته والإيمان بها وأثرها . فهو متميز في الأمرين السابقين- اللذين أشرت إليهما- وهما ما يتعلق بإثبات الصفات على منهاج السلف ، وما يتعلق بأثر الإيمان بهذه الأسماء في حياة المؤمن .

٢- الشيخ عبدالرحمن السعدي : في كتبه وخاصة : كتابه [التوضيح والبيان لشجرة الإيمان] وكتابه [الحق الواضح المبين] وفي تفسيره لفئات متنوعة ومفيدة في هذا الباب .

٣- الشيخ محمد بن حمد الحمود في كتابه (النهج الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى) .

وقد تكون هناك رسائل صغيرة ، أو مسائل متفرقة في الكتب ، لمجموعة من العلماء وطلاب العلم . لم أذكرها لأن غرضي الإشارة إلى أهم ما كتب في الموضوع حسب علمي .

والثاني : ما اختلط فيها الحق بالباطل ، ومال فيها أصحابها إلى أنواع من التأويل الباطل الذي أذهب ما قد يكون فيها من حق- قد لا يستفيد منه إلا أهل العلم العارفون بمداخل أهل البدع وتأويلاتهم ومن هذه الكتب- التي تحوي الغث والسمين : شرح أسماء الله لكل من القشيري ، والغزالي والفخر الرازي ، وغيرهم .

وقد أطلعني الأخ الدكتور : زين محمد شحاته على بحث له في هذا الموضوع سماه .

[أسماء الله الحسنى : من القرآن الكريم والحديث الصحيح [معانيها، قيس من آثارها - الدعاء بها] (١) .

(١) عندما قدم هذا العمل لسعادة الأستاذ الدكتور / عبدالرحمن الحمود لم يكن قد استقر على تسميته : المنهاج الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى .

حيث وضع مقدمة حول الإيمان بأسماء الله وصفاته أتى بها على طريقة السؤال والجواب، ثم أتبع ذلك بالكلام على أسماء الله الحسنى، وأدلتها، ومعانيها وأثارها.

وقد قرأت مقدمة الكتاب كلها، ونماذج كثيرة من كلامه على أسماء الله الحسنى ومعانيها فالفيتها كتاباً مفيداً جداً، ويظهر ذلك من خلال أمور عدة:

١- مقدمته الجامعة المفيدة، التي بين فيها بعض قواعد وأصول منهج السلف الصالح في هذا الباب، وقد حوت مسائل نافعة سار فيها الباحث على منهاج السلف الصالح.

٢- اجتهد في جمع الأسماء المتقاربة، سواء في كثرة ورودها واقترانها في الكتاب والسنة أم في تقاربها في المعنى، وكان لذلك أثره الجيد في عدم التكرار.

٣- اعتمد في شرح أسماء الله الحسنى أول ما اعتمد على الكتب الموثقة، وبالأخص ما كتبه ابن القيم، وعبدالرحمن بن السعدي وغيرهما رحمهم الله تعالى.

٤- أضاف إلى الشرح كثيراً من الآيات والأحاديث والآثار وما جرى للسلف الصالح من قصص مما يتعلق بالمعاني المناسبة لكل اسم من أسماء الله الحسنى.

٥- الاستشهاد فيما يتعلق بعظمة قدرة الله وخلقه وحكمته ورحمته ونحو ذلك مما أورده الباحثون مما يتعلق بعظمة خلق الله تعالى في الكون والأفلاك وفي الأرض وما فيها من مخلوقات، وفي حياة الإنسان والحيوان والنبات، وغير ذلك مما فيه عبرة للمعتبرين، ودليل على عظم الخالق وجليل أسمائه وصفاته وأثارها، واستحقاقه تعالى لأن يعبد وحده لا شريك له.

٦ - تركيزه على المعاني الإيمانية لهذه الأسماء وأثرها في حياة المسلم .
وقد بذل الباحث - جزاه الله خيراً وأجزل له المثوبة - جهداً كبيراً في بحثه وكان حريصاً على تنقيته من كل ما يشوبه من كلام أهل البدع وغيرهم ، وقد وفق في ذلك إلى حد كبير ، وأرجو من كل قارئ لهذا البحث أن ينصح لأخيه فيما قد يجده قد ند من كلمة أو عبارة غير مناسبة ، فالذي أعرفه من الباحث تواضعه ، وحبه لأن يبقى كتابه سليماً . من الملاحظات : والكمال لله وحده ، وهذه النصيحة لا تختص بهذا الكتاب بل تقال في جميع الكتب التي يؤلفها أصحابها .

وختاماً أقول : إن هذا البحث متميز في موضوعه ولعله يسد فراغاً كثيراً ما كان يطالب بسده طلبة العلم والحريفون على أن يظهر للعلم أثره في حياة الناس ، وأعظم العلم هو العلم بالله وأسمائه وصفاته .
وفق الله الجميع لما يحبه ويرضاه ، ورزقنا جميعاً الإخلاص في الأقوال والأعمال .

وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم .

دكتور

عبدالرحمن الصالح المحمود

الجمعة ١٤١٨/١/٢٤هـ

* * *

المقدمة

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (١).
 ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (٢).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ (٣).

أما بعد:

نبتت فكرة هذه الدراسة منذ سبع سنوات. فبدأت بالاطلاع والجمع والتحصيل، واستوت على سوقها منذ عامين فبدأت في كتابة المتن

(١) سورة آل عمران، آية: ١٠٢.

(٢) سورة النساء، آية: ١.

(٣) سورة الأحزاب، آية: [٧٠-٧١]. (هذه خطبة الحاجة التي كان رسول الله ﷺ يعلمها أصحابه أن يفتحوا بها أكثر أمورهم، وقد أخرج الحديث النسائي وأبو داود وابن ماجه وأحمد والحاكم وقد توسع الألباني في تخريج الحديث في رسالته خطبة الحاجة).

والحاشية . ثم جاءت الخاتمة في شهر رمضان من هذا العام ، وما بين المقدمة والخاتمة عاش المؤلف لحظات إيمانية يعجز عن وصفها اللسان ويقصر عن شرحها البيان ، وكيف لا تكون هكذا وهي في رحاب أسماء الله الحسنى : إحصاء ، ومعنى ، وآثاراً ، ودعاءً .

وترجع أهمية الكتابة عن أسماء الله الحسنى إلى أمور كثيرة لعل من أبرزها :

١- إن العلم بأسماء الله الحسنى وصفاته العلا أشرف العلوم وأجلها على الإطلاق لأن شرف العلم بشرف المعلوم ، والمعلوم في هذا العلم هو الله (سبحانه وتعالى) بأسمائه وصفاته : فالاشتغال بهذا العلم اشتغال بأعلى المطالب وأجلها ، وأشرف العلوم وأفضلها .

٢- إن معرفة الله (عز وجل) بأسمائه وصفاته أصل الإيمان وبها يزيد . قال الشيخ عبدالرحمن السعدي (رحمه الله) : « إن الإيمان بأسماء الله الحسنى ومعرفتها يتضمن أنواع التوحيد الثلاثة : توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية ، وتوحيد الأسماء والصفات ، وهذه الأنواع هي روح الإيمان وروحه ، وأصله وغايته ، فكلما ازداد العبد معرفة بأسماء الله وصفاته ازداد إيمانه وقوي يقينه » (١) .

٣- إن العلم بأسماء الله الحسنى أصل للعلم بكل معلوم ، كما يقول ابن القيم يرحمه الله : « إن العلم بأسماء الله الحسنى أصل للعلم بكل معلوم ؛ فإن المعلومات سواء إما أن تكون خلقاً له تعالى أو أمراً ؛ إما علم بما كونه ، أو علم بما شرعه ، ومصدر الخلق والأمر عن أسمائه الحسنى ، وهما مرتبطان بها ارتباط المقتضى بمقتضيه وإحصاء الأسماء الحسنى ، أصل لإحصاء كل معلوم ؛ لأن المعلومات هي من مقتضاها ومرتبطة بها » (٢) .

(١) عبدالرحمن السعدي ، التوضيح والبيان لشجرة الإيمان / ٤١ .

(٢) ابن قيم الجوزية ، بدائع الفوائد ، ح ١ ، ص ١٦٣ .

٤- إن كثيراً من الكتابات التي شرحت أسماء الله الحسنى فيها الكثير من المخالفة^(١) لمذهب أهل السنة والجماعة سواء في إحصاء الأسماء أم في شرحها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «والكلام في تفسير أسماء الله وصفاته، وكلامه فيه من الغث والسمين ما لا يحصيه إلا رب العالمين»^(٢).

ومن هذا المنطلق جاءت هذه الدراسة عن الأسماء الحسنى على منهج أهل السنة والجماعة. مستفيدة من جهود السابقين في هذا الموضوع كابن تيمية وابن القيم وعبد الرحمن السعدي (رحمه الله)، فبدأت بإحصاء الأسماء من خلال القرآن الكريم والحديث النبوي الصحيح في ضوء ضوابط محددة^(٣) ثم شرحت هذه الأسماء بأسلوب سهل واضح تيسيراً على القارئ، وأعقبت ذلك سرد بعض آثار هذه الأسماء في الكون والحياة، ثم جاء مسك الختام فذكرت كيفية الدعاء بهذه الأسماء: دعاء تعبد وثناء، ودعاء طلب ومسألة^(٤). وقد حرص المؤلف أن يكون الدعاء مما ورد في القرآن الكريم والسنة النبوية؛ لأن أفضل الدعاء ما ورد فيهما.

وقد رتب الأسماء في هذا الكتاب بصورة عامة^(٥) فجعلت الأسماء التي تبرز فيها الإشارة إلى «ذات» الله (عز وجل) أولاً مثل: الله، الإله،

(١) لمعرفة كثير من هذه المخالفات انظر: عبد الله الغصن، في بحثه القيم عن أسماء الله الحسنى، حيث قوم ما كتبه (الزجاج، والخطابي، والبيهقي، والقشيري، والغزالي، والرازي، والشرباصي) عن أسماء الله الحسنى في ضوء منهج أهل السنة والجماعة.

(٢) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج ٦، ص ٣٨٨.

(٣) مكذوره بعد هذه المقدمة في القواعد المثلى لمعرفة أسماء الله الحسنى.

(٤) على حد علم المؤلف لا توجد دراسة سابقة عنت باستخراج أسماء الله الحسنى من القرآن والحديث النبوي الصحيح ثم شرحها بمثل هذا الشمول.

(٥) هذا الترتيب اجتهادي. واعتمد على أبرز معاني الاسم.

الحق، الواحد، الأحد الوتر، الحي القيوم. السبوح، القدوس، الطيب، السلام، السيد، الصمد، العظيم الجميل الواسع الغني المجيد، العلي، الأعلى، المتعالي، الكبير، المتكبر، العزيز، الأول، الآخر، الظاهر، الباطن، الوارث.

ثم الأسماء التي تشير إلى الملك والقدرة: الملك، الملكي، الجبار، القاهر، القهار، القادر، القدير، المقتدر، القوي، المتين، المقدم، المؤخر، الحكم، الفتاح، الديان.

ثم الأسماء التي تشير إلى الإيجاد والإمداد: الخالق، الخلاق، البارئ، المصور، الحكيم، الوهاب، المنان، الرزاق، الرازق، المقيت، الكريم، الأكرم، الجواد المحسن، البر، القابض، الباسط.

ثم الأسماء التي تشير إلى العلم والإحاطة: السميع، البصير، العالم، العليم، الخبير، الرقيب، الشهيد، الحافظ، الحفيظ، المهيمن، المحيط.

ثم الأسماء التي تشير إلى الرفق والرحمة والهداية والمغفرة: الرب، الرفيق، اللطيف، الرحمن، الرحيم، الرؤوف، الشافي، الطيب، الحلیم، الحيي، السّتير، الحميد، الشاكر، الشكور، الودود، الولي، المولي، النصير، القريب، المجيب، الحاسب، الحسيب، الوكيل، الهادي، المبين، المؤمن، الغفار، الغفور، العفو، التواب.

أما في تناول الأسماء فقد جمعت بين الأسماء متصلة المعنى أو التي وردت مقترنة في القرآن الكريم والحديث النبوي الصحيح تيسيراً على القارئ، ولتسهيل المقارنة بين معانيها مثل: (الواحد الأحد الوتر)، (الحي القيوم)، (السبوح القدوس)، (الطيب السلام)، (العلي الأعلى المتعالي)، (الكبير المتكبر)، (الأول الآخر الظاهر الباطن)، (القادر القدير المقتدر القوي المتين)، (السميع البصير) وهكذا...

وقد خرجت الأحاديث النبوية الواردة في الكتاب، فما رواه البخاري ومسلم ذكرت كتابه وبابه، وربما أشرت إلى جزئه ورقمه (البخاري مع الفتاح، مسلم بشرح النووي)، وما رواه غيرهما عينت بإخراجه وبيان تصحيحه مع الإشارة إلى مصدره، وحاولت جهدي أن لا يتضمن الكتاب حديثاً ضعيفاً.

هذا، وإن أول الشكر وآخره لولي الحمد ومستحقه، ذي الفضل العظيم والمنن الوفيرة، له الأسماء الحسنى والنصقات العلا، فله سبحانه وتعالى الحمد كله، وله سبحانه وتعالى الشكر كله لا متتهى لحده، ولا حد لمتناه.

وبعد شكر الله عز وجل، أرى لزماً علي أن أزجي الشكر إلى كل من أعانني على إتمام هذا العمل.

وأخص بالشكر والدتي التي يلهج لسانها دائماً لي بالدعاء، وزوجتي التي تحملت معي كثيراً من العناء، وأستاذي الدكتور/ محمد الأحمدى أبو النور- وزير الأوقاف السابق- على تشجيعه المستمر لي لانتهاه من هذا العمل، كما أخص بالشكر الأستاذ الدكتور/ عبدالرحمن بن صالح المحمود أستاذ العقيدة بكلية أصول الدين بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض حيث أعطاني من وقته الكثير في إيضاح كثير من المسائل، وفي تقديمه لهذا العمل فله شكري الجزيل على تعبه ودماثة خلقه، وجزاه الله عني وعن المسلمين خير الجزاء.

واستغفر الله (عز وجل) من الزلل والخطأ والتقصير. فلا داعي أني وفيت هذا الموضوع حقه. فهذا أمر لا تستطيعه كل المخلوقات. وقد قال الرسول ﷺ: «لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك»^(١) فلا

(١) رواه مسلم (١/٢٥٢).

يحصي ثناء على الله إلا الله (سبحانه وتعالى).

وحسبي أني قصدت وسعيت، وما كان في هذا العمل من صواب فمن الله وحده، وله الفضل والحمد والمنة، وما كان فيه من خطأ فمن نفسي، واستغفر الله منه.

وأعوذ بالله من قصر في العلم والدين باعه. وطالت في الجهل وأذى العباد ذراعه. قد جعل الملامة بضاعة والعذل نصيحته، كما أعوذ بالله من عدو في صورة ناصح وولي في مسلخ بعيد كاشح يجعل عداوته وأذاه حذراً وإشفاقاً، وتنفيذه، وتخليه إسعافاً وإرفاقاً.

وختاماً ادعو مع العيد الصالح: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (١).

والله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم مقرباً لجامعه ومقدمه وقارئه، وناشره من جنات النعيم إنه خير مسؤول وأكرم مأمول.

اللهم لك الحمد وإليك المشتكى، وأنت المستعان، وعليك التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بك، وأنت حسبي ونعم الوكيل.

وصلّى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

دكتور/ زين محمد شحاته

الرياض ١٤١٧هـ ١٩٩٧م

العنوان في مصر

[جمهورية مصر العربية- محافظة المنيا - كلية التربية]

(١) سورة الأحقاف، آية: ١٥.

أولاً:

القواعدُ المثلى لمعرفةِ

أسماءِ الله الحُسنى

القواعد المثلى لمعرفة أسماء الله الحسنى

هناك قواعد أساسية ينبغي أن تراعى لمعرفة أسماء الله الحسنى وشرحها وهذه القواعد منبثقة من فهم السلف الصالح لقول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١). وغيرها من الآيات التي تحدثت عن الأسماء والصفات، وقد ربت هذه القواعد وعرضتها في صورة أسئلة وأجوبة تقريباً للمعنى وتيسيراً للقارئ:

س ١: ما المقصود بالحسنى في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾؟

جـ - أسماء الله (عز وجل) حسنى أي بالغة الحسن، لأنها تضمنت صفات الكمال المطلق، الذي لا نقص فيه بوجه من الوجوه لا احتمالاً ولا تقديرًا ذلك أنها كلها ثناء ومدح وتمجيد للرب جل وعلا فأسماء الله (عز وجل) أحسن الأسماء وأكملها، فليس في الأسماء أحسن منها، ولا يقوم غيرها مقامها ولا يؤدي معناها.

ومن حسننها، ودلالاتها على صفات الكمال، أنه ليس فيها اسم من الأسماء يحتوي على الشر.

فليس من أسماء الله الحسنى اسم يتضمن الشر، وإنما يدخل الشر في مفعولاته. فالشر ليس إليه (سبحانه)، أي لا يضاف إلي فعلاً ولا وصفاً، وإنما يدخل في مفعولاته وفرق بين الفعل والمفعول. فالشر قائم بمفعوله المباين لا بفعله الذي هو فعله (٢).

(١) سورة الأعراف، آية: ١٨٠.

(٢) ابن القيم الجوزية، بدائع الفوائد، ج ١، ص ١٦٤.

فله سبحانه وتعالى أحسن الأسماء وأكملها وأتمها معنى وأبعدها وأنزهها عن شائبة عيب أو نقص . فهو (سبحانه) العليم الخبير دون العاقل الفقيه ، والسميع البصير دون السامع الباصر الناظر ، وهو الرحيم الودود دون الشفوق . وهو الكريم دون السخى . والخالق البارئ المصور دون الفاعل الصانع المشكل . وكذلك سائر أسمائه تعالى يجرى على نفسه منها أكملها وأحسنها (١) .

ومن حسناتها : ما فيها من معنى التعظيم والإجلال والإكبار لله - سبحانه وتعالى - ولما وعد الله سبحانه وتعالى - لمحبيها من الأجر والثواب العظيم وهو دخول الجنة ، للحديث الصحيح الذي رواه أبو هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « إن لله تسعة وتسعين اسماً ، من أحصاها دخل الجنة » (٢) .

ومن تمام كونها حسنى : الدعاء بها ، ولذلك قال الله تعالى : ﴿ فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ (٣) وهذا شامل لدعاء العبادة ، ودعاء المسألة ، فيدعى في كل مطلوب ، بما يناسب ذلك المطلوب (٤) .

والحسن في أسماء الله يكون باعتبار كل اسم على انفراده ، ويكون باعتبار جمعه إلى غيره ، فيحصل بجمع الاسم إلى الآخر كمال فوق كمال .

مثال ذلك « العزيز الحكيم » فإن الله تعالى يجمع بينهما في القرآن الكريم كثيراً . فيكون كل منهما دالاً على الكمال الخاص الذي يقتضيه

(١) المرجع السابق ، ص ١٦٨ .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب التوحيد ، ومسلم ابن عثيمين في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار .

(٣) سورة الأعراف آية ١٨٠

(٤) محمد الصالح بن عثيمين ، مرجع سابق ، ص (٨٧) .

وهو العزة في العزيز والحكم والحكمة في الحكيم والجمع بينهما دال على كمال آخر وهو أن عزته تعالى مقرونة بالحكمة فعزته لا تقتضي ظمناً وجوراً وسوء فعل كما قد يكون من أعزاء المخلوقين فإنّ العزيز منهم قد تأخذه العزة بالإثم فيظلم ويجور ويسئ التصرف . وكذلك حكمه تعالى وحكمته مقرونان بالعز الكامل بخلاف حكم المخلوق وحكمته فإنه يعتريهما الذل (٤) .

س ٢ : ما الفرق بين أسماء الله الحسنى، وصفاته؟

ج ٢ : إن كل اسم من أسمائه الحسنى يتضمن صفة، ولا تتنافى اسميته مع وصفيته، فكل اسم صفة، وليس كل صفة اسم؛ لأن بعض الصفات لا يشتق منها أسماء : كبعض الصفات الذاتية - مثلاً - كاليد، والعين فلا يؤخذ منها أسماء (١) .

قال ابن القيم : « أسماء الله تعالى هي أسماء ونعوت، فإنها دالة على صفات كماله، فلا تنافى فيها بين العلمية والوصفية، فالرحمن اسمه تعالى ووصفه، لا تنافى اسميته وصفيته، فمن حيث هو صفة جري تابعاً على اسم الله، ومن حيث هو اسم ورد في القرآن غير تابع بل ورد الاسم العلم (٢) .

وقد سئلت اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء عن الفرق بين الاسم والصفة، فأجابت بما نصه : « الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه، وبعد : أسماء الله كل ما دلّ على ذات الله مع صفات الكمال القائمة به، مثل القادر، العليم، الحكيم، السميع، البصير، فإن هذه الأسماء دلت على ذات الله،

(١) عبد الغنى، أسماء الحسنى، ص ١٣٩ .

(٢) ابن القيم الجوزي، بدائع الفوائد، ح ١، ص ٢٤، ص ١٦٢ .

وعلي ما قام بها من العلم والحكمة والسمع والبصر .

أما الصفات ؛ فهي نعوت الكمال القائمة بالذات كالعلم والحكمة والسمع والبصر .

فلا سم دل على أمرين ، والصفة دلت على أمر واحدٍ

ويقال : الاسم متضمن للصفة ، والصفة مستلزمة للاسم . . . إلخ (١) .

س ٣ ما الفرق بين أسماء الله الحسنى والإخبار عن الله (سبحانه وتعالى)؟

ج ٣ إن هناك فروقاً بين الاسم والخبر عن الله (سبحانه وتعالى) أهمها ما يلي :

(١) إن أسماء الله توقيفية ، فلا يسمي الله إلا بما سمى به نفسه في كتابه ، أو سماه به رسوله ﷺ أما الخبر فهو أوسع من الاسم ، فلا يلزم أن يكون توقيفياً إذا الله تيج إليه ، مثل أن ينكر أحد أولية الله وأزليته ، فيقول : ليس بقديم ، أو أن ينكر وجود الله ؛ فيقول : ليس بموجود ، أو مثل ذلك ، فإنه يجاب عنه : بأن الله قديم وموجود .

قال ابن القيم (رحمه الله) : « إن ما يطلق عليه - أي على الله - في باب الأسماء والصفات توقيفي ، وما يطلق عليه من الإخبار لا يجب أن يكون توقيفياً ، كالقديم والشئ الموجود والقائم بنفسه » (٢) .

٢- إن أسماء الله حسنى كاملة الحسن ، فهي تحمل الحسن المطلق . أما

(١) فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والافتاء ، جمع وترتيب أحمد الدويش ٣ / ١١٦

فتوى رقم ٨٩٤٢ ، وانظر ابن تيمية ، مجموع الفتاوى ج ٩ ، ص ٣٠١ .

(٢) ابن القيم الجوزية ، بدائع الفوائد ، ح ١ ، ص ١٦٢ .

الخبر عن الله فلا يكون باسم سيء، ولا يلزم أن يكون كامل الحسن، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «... وأما الإخبار عنه - أي عن الله - فلا يكون باسم سيء، ولكن قد يكون باسم حسن، أو باسم ليس بسيء، وإن لم يحكم بحسنه، مثل: شيء، وذات، وموجود...» (١).

٣- إن أسماء الله الحسنى يدعى بها، أما الخبر عن الله (عز وجل) فإنه لا يدعى به، فيقال في الدعاء: يا حي، يا قيوم، لا يقال: يا ذات، يا شيء، لأن هذا لفظ يعم كل موجود (٢).

والألفاظ عن الله في هذا الباب أقسام: (٣).

(أ) إما أن تكون كملاً مطلقاً لا نقص فيه بوجه من الوجوه؛ لا الله تعالى ولا تقديراً، فهو كامل في ذاته، وفي موضوعه ومتعلقه، فهذا يسمى الله به، ويوصف به، مثل السميع، والبصير، ومنهما السمع والبصر.

(ب) وإما أن تدل على كمال في ذات اللفظ، لا في موضوعه ومتعلقه لأن الموضوع والمتعلق منه ما هو محمود، ومنه ما هو مذموم، فيحتمل النقص بالتقدير، فهذا لا يسمى الله به ولا يوصف به، لكن يخبر به عنه؛ لأن باب الأخبار أوسع من باب الأسماء والصفات، مثل: المتكلم، والشائي، والمريد، فالكلام منه ما هو محمود، ومنه ما هو مذموم فقد يتكلم المتكلم بما حرم الله، وقد يريد ما لا يريد الله منه شرعاً.

(ج) وإما أن تكون دالة على الكمال والنقص في ذاتها؛ فهي

(١) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ح ٦، ص ١٦٢.

(٢) المرجع السابق، ص ١٤٢، ص ١٤٣.

(٣) انظر: عبد الله الغصن، مرجع سابق، ص ١٤٢.

تحتمل الكمال والنقص في معناها نفسه، فهذا لا يطلق على الله، إنما يذكر مقيداً، مثل: المكر، الخداع، الانتقام، الاستهزاء، الكيد... إلخ.

فلا يقال: الله مستهزئ على سبيل الإطلاق؛ لأن الاستهزاء في ذاته منه ما هو محمود، ومنه ما هو مذموم، فلا يذكر إلا مقيداً، فيقال: الله يستهزئ بمن يستهزئ به.

قال ابن القيم (رحمه الله): «وقد أخطأ أقبح الخطأ من اشتق له من كل فعل اسماً وبلغ بأسمائه زيادة على الألف لأن باب الأخبار عنه أوسع من تسميته فإنه يخبر عنه بأنه شيء، وموجود، ومراد ولا يسمى بذلك» (١).

ويقول في موضع آخر: «لا يلزم من الأخبار عنه بالفعل مقيداً أن يشق له منه اسم مطلق كما غلط فيه بعض المتأخرين فجعل من أسمائه المضل الفاتن الماكر تعالى الله عن قوله، فإن هذه الأسماء لم يطلق على الله منها إلا أفعال مخصوصه معينه فلا يجوز أن يسمى بأسمائها المطلقة» (٢).

س ٤ هل نصوص أسماء الله الحسنی محكمة أم متشابهة؟

ج ٤: المحكم هو البين الواضح الذي لا يحتاج في معناه إلى غيره، وذلك لوضوحه. أما المتشابه فهو ما لا سبيل إلى إدراك حقيقته وكنهه، وهو ما تفرد الله بعلمه، ولم يطلع عليه أحداً من البشر، كأمر الروح، والساعة، وحقائق وكيفيات صفات الله تعالى، وسائر الأمور

(١) ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين، ح ٣، ص ٤١٥.

(٢) ابن قيم الجوزية، بدائع الفوائد، ح ١، ص ١٦٢.

الغيبية (١).

ونصوص الأسماء الحسنى من النصوص المحكمة أيما إحكام، بل هي من أحكم المحكمات، فمعانيها واضحة، ومن له علم بالعربية يستطيع التفريق بين اسم واسم، فنفهم من اسم (الرحمن) غير ما نفهمه من اسم (العزیز)، ونفهم من اسم (الغفور) غير ما نفهمه من اسم (الجبار). . . وهكذا، وكذلك فإن من إحكام الأسماء الحسنى تضمنها صفات الكمال، وأنها ليست أعلاماً مجردة، فنعلم أن اسم الله (الحكيم) متضمن للحكمة الكاملة، وأن اسم الله العزيز متضمن للعزة الكاملة. وبهذا يتبين أن أسماء الله محكمة (٢).

وأما ما تضمنته الأسماء من الصفات ففيه تفصيل :

فإذا أريد معنى الصفة، فإنه - أيضاً - محكم - وليس بمتشابه، لأننا نفهم القدر المشترك بين الصفتين (أى صفة الخالق وصفة المخلوق) من حيث اللفظ، والحرف، والرسم، والمعنى العام الذي يجعلنا نفهم معنى الخطاب.

وأما إذا أريد حقائق الصفات وكميَّياتها، فهذا من التشابه الحقيقي الذي لا يعلم معناه إلا الله عز وجل، فلا يعلمه من البشر أحد (٣).

س ٥ هل أسماء الله الحسنى محصورة بعدد معين؟

أسماء الله الحسنى غير محصورة بعدد معين، ولم يرد في النصوص الصحيحة ما يدل على حصرها بعدد معين.

(١) عبد الغصن، مرجع سابق، ص ٧٥، ص ٨٦.

(٢) انظر: النهج الأسمنى في شرح الله الحسنى للحمود (٤٣/١) وانظر: عبد الله الغصن، مرجع سابق، ص ٧٨.

(٣) انظر: ابن تيمية، الإكليل في التشابه والتأويل، ص ٣٢.

وأما حديث : «إن الله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة» (١).

فليس فيه ما يدل على حصر الأسماء بالعدد المذكور، قال الإمام النووي (رحمه الله) : « اتفق العلماء على أن هذا الحديث ليس فيه حصر لأسمائه سبحانه وتعالى ، فليس معناه أنه ليس له أسماء غير هذه التسعة والتسعين ، وإنما مقصود الحديث أن هذه التسعة والتسعين من أحصاها دخل الجنة ، فالمراد الإخبار عن دخول الجنة بإحصائها لا الإخبار بحصر الأسماء» (٢).

فجملة « من أحصاها » مكملة للجملة الأولى ، وليست استثنائية منفصلة ، ونظير هذا قول العرب : إن لزيد ألف درهم أعدّها للصدقة ، وهذا لا يدل على أنه ليس عنده من الدراهم أكثر من ألف درهم ، وإنما دلالة أن الذي أعده زيد من الدراهم للصدقة ألف درهم (٣).

والذي يدل على صحة هذا ، الحديث الذي رواه عبد الله بن مسعود (رضي الله عنه) أن النبي ﷺ قال : « ما أصاب أحدا قط هم ولا حزن ، فقال : اللهم إني عبدك ، وابن عبدك ، وابن أمتك ، ناصيتي بيدك ، ماضٍ في حكمك ، عدل في قضاؤك ، أسألك بكل اسم هو لك ، سميت به نفسك ، أو أنزلته في كتابك ، أو علمته أحداً من خلقك ، أو استأثرت به في علم الغيب عندك ، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي ، ونور صدري ، وجلاء حزني ، وذهاب همي ، إلا أذهب الله حزنه وهمه ، وأبدل مكانه فرحاً» (٤).

(١) رواه البخاري في صحيحه في كتاب الدعوات ، ومسلم في صحيحه في كتاب الذكر والدعاء .

(٢) النووي ، شرح صحيح مسلم ، (١٧ / ٥) .

(٣) الخطابي ، شأن الدعاء ، ص ٢٤ .

(٤) أخرجه أحمد والحاكم ، وابن حبان في صحيحه ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ، حديث رقم (١٩٩) .

فالذي استأثر به في علم الغيب عنده لا نعلم ما هو، ولا كم هو،
ففيه دلالة على أن أسماء الله الحسنى غير محصورة.

س٦ هل ورد حديث صحيح في تعيين التسعة والتسعين اسماً؟

لم يثبت حديث صحيح في تعيين التسعة والتسعين اسماً، وأصح رواية سردت الأسماء هي رواية الوليد بن مسلم التي رواها الترمذى وغيره، وسرد الأسماء فيها ضعيف، وفي الكتاب والسنة أسماء الله لم ترد في هذه الرواية، مثل اسم (الرب)، (المنان)، (الوتر)، (السبوح)، (الشافى)، (الجميل)، (القريب)، (المبين)، (الأحد)، (المليك)، (الجواد)، (الخالق)، (الديان)، (الرازق)، (الرفيق)، (السيد)، (القاهر)، (الشاكر)، (الأعلى)، (القدير)، (المحيط)، (الأكرم)، (الإله)، (النصير)، (المولى)، (الحى)، (المحسن).

كما أن في هذه الرواية أسماء لم ترد بصيغة الاسم في القرآن والسنة
مثال:

(الخافض)، (الرافع)، (المعز)، (المذل)، (العدل)، (الجليل)،
(الباعث)، (المحصي)، (المبدئ)، (المعيد)، (المميت)، (الوالى)،
(المقسط)، (المغني)، (المانع)، (الضار)، (النافع)، (الرشيد)،
(الصبور).

فلم يرد حديث صحيح في تعيين الأسماء التسعة والتسعين، وغاية ما هنالك من سرد الأسماء، إنما هو اجتهادات بعض العلماء، التي يندرج فيها الصواب والخطأ، وفي عدم تعيينها حكمة بالغة، وهى أن يتطلبها الناس ويتحرونها في كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ، حتى

يحرص العباد ويجهتدوا في عبادة الله بجميع ما يعرفون من الأسماء الحسنی (١).

فرواية الوليد بن مسلم عن شعيب بن أبي حمزة في سرد الأسماء رواية ضعيفة، كما علق الألباني على كلام الترمذي: هذا حديث غريب (٢). فعلق عليه الألباني، وقال أي ضعيف (٣).

والحديث من جهة متنه فيه أمور قاذحة - غير ما في السند من تفرد الوليد بن مسلم - بينها ابن حجر العسقلاني في الفتح، فقال راداً على الحاكم، في تعليل عدم إخراج البخاري ومسلم لرواية سرد الأسماء بأنه لتفرد الوليد بن مسلم فقط، فقال: «ولست العلة عند الشيخين تفرد الوليد فقط، بل الاختلاف فيه، والاضطراب، وتدليسه، واحتمال الإدراج» (٤).

فالعلة ليست في السند فقط، بتفرد الوليد أو تدليسه، بل هناك علل أخرى في المتن أيضاً، من الاختلاف، والاضطراب، واحتمال الإدراج وغيرها.

[١] أما الاختلاف بين الروايات والاضطراب بينها، فهذا حاصل بين الطرق الثلاثة التي ورد فيها سرد الأسماء، فلم تتفق روايتان على سرد موحد للأسماء لا اختلاف بينها (٥).

(١) انظر: المجموع الثمين من فتاوى فضيلة الشيخ محمد بن العثيمين (٢ / ٦٩).

(٢) جامع الترمذي (٥ / ١٩٣).

(٣) انظر مشكاة المصابيح للخطيب التبريزي، بتحقيق الألباني (١ / ٧٠٢).

(٤) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ح ١١، ص ٢١٥.

(٥) الروايات الثلاث التي سردت الأسماء هي: رواية الوليد بن مسلم، ورواية عبد العزيز بن الحصين، ورواية عبد الملك الصنعاني.

وكذلك فإن الروايات عن الوليد بن مسلم - أيضاً - بينها اختلاف واضطراب - فالرواية المشهورة عن الوليد بن مسلم ، والتي عولّ عليها غالب من شرح الأسماء الحسنى ، وهى التى أخرجها الترمذى في جامعہ ، قد خالفتها رواية أخرى أخرجها الطبراني عن أبي زرعة الدمشقى عن صفوان بن صالح عن الوليد ابن مسلم نفسه .

ففي رواية الطبراني مخالفة لعدة أسماء منها : (القائم ، الدائم) بدل (القابض ، الباسط) ، و(الشديد) بدل (الرشيد) و (الأعلى ، المحيط ، مالك يوم الدين) بدل (الودود الحكيم المجيد) .

وكذلك وقع عند ابن حبان عن الحسن بن سفيان عن صفوان بن صالح عن الوليد : (الرافع) بدل (المانع) .

ووقع في صحيح ابن خزيمة في رواية صفوان أيضاً مخالفة في بعض الأسماء قال : (الحاكم) بدل (الحكيم) ، و(القريب) بدل (الرقيب) ، و(المولى) بدل (الوالى) ، و(الأحد) بدل (المغنى) .

ووقع في رواية البيهقى وابن منده من طريق موسى بن أيوب النصيبى عن الوليد (المغيث) بدل (المقيت) .

وأما رواية الوليد بن مسلم عن زهير بن محمد التميمى ، فقد وقع فيها مخالفة في ثلاثة وعشرين اسماً^(١) .

فيتضح من الروايات التي وردت عن الوليد بن مسلم في سرد

(١) انظر : فتح الباري لابن حجر (١١ / ٢١٦) ، والمقصد الأسنى في بيان ضعف سرد الأسماء الحسنى لمحمد اللحيان ، وعبد الله الغصن ، مرجع سابق ، ص (١٦٥ - ١٦٩) .

(١) ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، ج ٢ ، ص ٢٦٩ .

الأسماء وجود الاضطراب والاختلاف بينها . وهذا مما يبين أن سرد الأسماء ليس من كلام النبي ﷺ ويعضدّ هذا، ورود الحديث : «(لله تسعة وتسعين اسماً)» . عن الوليد بن مسلم ولكن بدون سرد الأسماء، وكذلك ورود الحديث بدون سرد الأسماء عن غيره، وبالطريق الذي روى به الوليد بن مسلم وقد روى عن بعض السلف أنهم حاولوا استخراج الأسماء الحسنى من القرآن الكريم مثل جعفر بن محمد وسفيان بن عيينه وأبو زيد اللغوي^(١).

فلو ثبت أن الرسول ﷺ هو الذي سرد الأسماء الحسنى، لما اجتهد بعض السلف في إخراجها من النصوص وهم يعلمون أن الرسول ﷺ، قد عدها في الحديث .

وقد كثرت أقوال العلماء التي تبين أن سرد الأسماء ليس من كلام النبي ﷺ ومن هذه الأقوال :

١- قال الداودي - رحمه الله - : « لم يثبت أن النبي ﷺ عيّن الأسماء »^(٢).

٢- قال البيهقي - رحمه الله - في حديثه عن رواية عبد العزيز بن الحصين يحتمل أن يكون التفسير وقع من بعض الرواة، وكذلك في حديث الوليد بن مسلم^(٣).

٣- قال شيخ الإسلام بن تيمية - رحمه الله - : « والحديث الذي في عدّ الأسماء الحسنى . . ليس هو عند أهل المعرفة بالحديث من كلام

(٢) ابن حجر، فتح الباري، ج ١، ص ٢١٧.

(٣) البيهقي، الأسماء والصفات، ج ١، ص ٣٢.

(١) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج ٨، ص ٩٦.

النبي ﷺ، بل هذا ذكره الوليد بن مسلم عن سعيد بن عبد العزيز، أو عن بعض شيوخه» (١).

وقال أيضاً في موضع آخر: «إن التسعة والتسعين اسماً لم يرد في تعيينها حديث صحيح عن النبي ﷺ، وأشهر ما عند الناس فيها حديث الترمذي الذي رواه الوليد بن مسلم عن شعيب عن أبي حمزة، وحفاظ أهل الحديث، يقولون هذه الزيادة مما جمعه الوليد بن مسلم عن شيوخه من أهل الحديث . . . وفيها حديث ثان أضعف من هذا، رواه ابن ماجه» (٢).

٤- قال ابن كثير - رحمه الله - : «والذي عوّل عليه جماعة من الحفاظ أن سرد الأسماء في هذا الحديث (أى حديث الوليد بن مسلم) مدرج فيه، وإنما ذلك كما رواه الوليد بن مسلم وعبد الملك بن محمد الصنعاني عن زهير بن محمد أنه بلغه عن غير واحد من أهل العلم أنهم قالوا ذلك، أى أنهم جمعوها من القرآن . . .» (٣).

٥- وأثبت ابن حجر العسقلاني - رحمه الله - أن سرد الأسماء مدرج، واستدل على ذلك باختلاف الروايات، وقال أيضاً والتحقيق أن سردها إدراج من الرواة، وليس مرفوعاً إلى النبي ﷺ (٤).

٦- ويرى ابن الوزير - رحمه الله - عدم صحة جميع الروايات التي سردت الأسماء الحسنى، بما فيها رواية الوليد بن مسلم، وأن من

(٢) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج ٢٢، ص ٤٨٢.

(٣) ابن كثير، مرجع سابق، ج ٢، ص ٢٦٩.

(٤) انظر: ابن حجر، بلوغ المرام، ص ٣٤٦، حديث ١٣٩٦، وفتح الباري، ج ١١، ص

٢١٧.

(١) ابن الوزير، العواصم من القواصم في الذب عن سنة أبي القاسم، ج ٧، ص ٢٠١،

- صحح هذه الروايات ، أو بعضها ، فهو متساهل في التصحيح^(١) .
- ٧- وعلق الصنعاني - رحمه الله - على كلام ابن حجر قائلاً : « اتفق الحفاظ من أئمة الحديث أن سردها إدراج من بعض الرواة »^(٢) .
- ٨- وقال الشيخ محمد بن الصالح بن عثيمين - حفظه الله - : « ولم يصح عن النبي ﷺ تعيين هذه الأسماء . والحديث المروي عنه في تعيينها ضعيف »^(٣) .
- ٩- وضعف الشيخ محمد ناصر الألباني - حفظه الله - حديث الوليد بن مسلم الذي هو أقرب الطرق إلى الصحة^(٤) .
- ١٠- ويعضد ما سبق ورود أسماء شاذة في روايات سرد الأسماء ، لا يصح أن تكون من أسماء الله الحسنى ، إما لأنها ليست كاملة الحسن ، وإما لعدم ورودها بصيغته الاسم وقد نقل ابن حجر عن ابن عطية - رحمه الله - قوله : « حديث الترمذي ليس بالمتواتر ، وفي بعض الأسماء التي فيه شذوذ »^(٥) .
- ومثال ذلك اسم المتقدم فقد ورد في رواية سرد الأسماء وهو لا يحمل معنى الكمال المطلق ، وقد ورد في القرآن الكريم مقيداً قال تعالى : ﴿ إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾^(٦) .
- وما ورد مقيداً من الأسماء في القرآن الكريم أو السنة ، لا يكون

ص ٢٠٧ .

(٢) الصنعاني ، سبل السلام ، ح ٤ ، ص ١٠٨ .

(٣) محمد صالح بن عثيمين ، القواعد المثلى ، ص ١٤ .

(٤) ضعيف الجامع للألباني ، (٢ / ١٧٨) ، حديث ١٩٤٣ .

(٥) ابن حجر ، التلخيص الحبير ، ح ٤ ، ص ١٩٠ .

(٦) سورة السجدة آية ٢٢ .

(١) ابن تيمية ، مجموع الفتاوى ، ح ٨ ، ص ٩٦ .

اسماً بهذا الورد.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : « اسم (المنتقم) ليس من أسماء الله الحسنی الثابتة عن النبي ﷺ (١) .

وكذلك أسماء الرشيد، الصبور، المحصى، المعيد، المعز، المذل، كلها لم ترد بصيغه الاسم.

يتضح مما سبق أنه لم يرد عن النبي ﷺ حديث صحيح يحتاج به في سرد الأسماء، وكل الطرق والروايات التي رويت في هذا فهي ضعيفة؛ إما من جهة السند؛ أو من جهة المتن أو من كليهما (٢).

ولمعرفة أسماء الله الحسنی يرجع إلى القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة الصحيحه، وتستخرج هذه الأسماء في ضوء ضوابط محددة (٣).

س ٧ هل تتفاضل الأسماء الحسنی؟

يرى أهل السنة والجماعة أن الأسماء الحسنی تتفاضل (٤)، ومسألة تفاضل الأسماء مبنية على مسألة أخرى، وهي مسألة تفاضل كلام الله بعضه على بعض. وقد اختلف الناس في هذا على قولين (٥).

القول الأول: إن بعض القرآن أفضل من بعض، وبعض الأسماء أفضل من بعض، وهذا قول الصحابة، والتابعين، وأهل الحديث،

(٢) للاستزادة انظر: عبد الله الغصن، مرجع سابق، ص ١٤٩، ص ١٧٣.

(٣) انظر القاعده الأخيرة من هذه القواعد.

(٤) القول بأن من أسماء الله ما هو فاضل، لا يعنى أن غيرها مفضول، بل يعنى بأن كل اسماء الله فاضله ولكن بعضها يفضل بعضاً.

(٥) انظر، عبد الله الغصن، مرجع سابق، ص ٨٥.

(١) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ح ١٧، ص ٥٠، ص ٥٧.

وبعض اتباع الأئمة من المالكية والشافعية والحنابلة لأنه مقتضى ما جاءت به النصوص والآثار.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : « وقد دلت الأخبار على شرف بعضه على بعض فقال : « فاتحة الكتاب أفضل سورة القرآن » وقال : « آية الكرسي سيدة أي القرآن » وقال : « قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن » والنصوص الواردة في فضائل قوارع القرآن ، وتخصيص بعض السور والآيات بالفضل . وكثرة الثواب في تلاوتها لا تحصى .

وفى الجملة : فدلالة النصوص النبوية والآثار السلفية والأحكام الشرعية والحجج العقلية على أن كلام الله بعضه أفضل من بعض هو من الدلالات الظاهرة المشهورة ^(١) .

والقول الثاني : إن القرآن لا يفضل بعضه بعضاً ، وكذلك الأسماء الحسنى . وهو قول الأشاعرة ومن تبعهم ، وهو قول أكثر الأصوليين من المتكلمين ، وقول بعض الفقهاء والمفسرين ، وهؤلاء ظنوا أن القول بتفاضل كلام الله بعضه على بعض ، إنما يكون على قول المعتزلة ؛ لأن القول بالتفاضل عندهم - مستلزم لكون القرآن مخلوقاً .

والقول الأول هو ما عليه سائر السلف من الصحابة والتابعين ومن تبعهم - وهو القول بتفاضل كلام الله الذي منه الأسماء الحسنى - وهو القول الصحيح .

فالآيات التي تشمل على تعديد أسماء الله الحسنى ، وبيان صفاته ، والدلاله على عظمته وقديسيته ، أفضل من غيرها ، بمعنى أن مخبراتها أسنى وأجل قدراً . . وكذلك النصوص التي تدل على أن بعض أسماء

(١) ابن القيم الجوزية ، بدائع الفوائد ، ح ١ ، ص ١٦٨ .

الله أفضل من بعض ومن ذلك النصوص التي وردت فيها الأسماء بصيغة التفضيل «الأعلى» «الأكرم» وصيغة المبالغة «القهار» «الغفار» «الغفور» «الحسيب» «الحفيظ» «العليم» فهذه الأسماء أفضل من الأسماء التي وردت بصيغة اسم الفاعل مثل : القاهر، الحاسب، الحافظ، العالم . لأنها أبلغ في الثناء على الرب .

وهناك بعض الأسماء تدل على جملة من الأوصاف لا تختص بصفة معينة مثل : اسم الله (المجيد) و (العظيم) و (الصمد) وغيرها ؛ فإن معانيها : من اتصف بصفات متعددة من صفات الكمال^(١)، فهذه الأسماء أفضل من الأسماء التي لا تحمل إلا صفة واحدة ومعنى واحداً ؛ لأنها أبلغ في الثناء على الله عز وجل .

ومن أسماء الله الفاضلة لفظ الجلاله (الله) ؛ فإنه دال على جميع الأسماء الحسنى ، مستلزم لجميع معانيها ، فالأسماء الحسنى تفصيل وتبيين للصفات الإلهية ، التي يشير إليها اسم (الله)

ومن أسماء الله الفاضله اسما (الحى القيوم) فإنهما يجمعان أصل معاني الأسماء والصفات^(٢) .

وإذا ثبت تفاضل الأسماء الحسنى فما الاسم الأعظم؟

س٨: ما الاسم الأعظم؟

وردت أربعة أحاديث صحيحة تبين وتثبت الاسم الأعظم لله (عز وجل) الذي إذا سئل به أعطى ، وإذا دُعي به أجاب . وهذه الأحاديث هي :

(٢) ابن القيم الجوزية ، زاد المعاد ، ح ٤ ، ص ٢٠٤ .

(١) إسناده صحيح ، أخرجه الترمذي في سنته ، أبواب الدعوات ، باب (٦٥) حديث

١- حديث عبد الله بن بريدة عن أبيه أن رسول الله ﷺ سمع رجلاً يقول : «اللهم إني أسألك أني أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، فقال : « لقد سألت الله بالاسم الذي إذا سئل به أعطى وإذا دعى به أجاب» وفي روايه فقال : «والذى نفسى بيده لقد سأل الله باسمه الأعظم الذي إذا دعى به أجاب وإذا سئل به أعطى» (١).

٢- حديث أنس- رضى الله عنه- قال : كنت جالساً مع النبي ﷺ في المسجد ورجل يصلي فقال : اللهم إني أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت ، المنان بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والإكرام، يا حي يا قيوم . فقال النبي ﷺ : «دعا الله باسمه الأعظم الذي إذا دعى به أجاب وإذا سئل به أعطى» (٢).

٣- حديث أبى أمامة أن رسول الله ﷺ قال : « اسم الله الأعظم في سور من القرآن ثلاث: في البقرة، وآل عمران، وطه» (٣).

-
- (٣٥٤٢) كما أخرجه أبو داود وابن ماجه وابن حبان والحاكم في مستدركه ، كتاب الدعاء (١/ ٥٠٤)، وقال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، وله شاهد صحيح على شرط مسلم، وقال الحافظ بن حجر عن هذا الحديث : هو أرجح من حيث السند من جميع ما ورد في ذلك (فتح الباري/ ج ١١ ، ص ٢٢٥).
- (٢) أخرجه النسائي في سننه ، كتاب السهو ، باب : (الدعاء بعد الذكر) (٣ / ٥٢) ، كما أخرجه أبو داود في سننه وأحمد في مسنده وذكر اسم (الحنان) ، وابن حبان ، والحاكم في مستدركه (١/ ٥٠٣) ، وصححه ، ووافقه الذهبي .
- (٣) أخرجه ابن ماجه في سننه ، كتاب الدعاء ، باب اسم الله الأعظم ، حديث (٣٨٥٦) والحاكم في مستدركه كتاب (الدعاء ١ / ٥٠٥) ، والطحاوي في مشكل الآثار (١/ ٦٣) وصححه الألباني ، في السلسلة الصحيحة حديث رقم ٧٤٦ .
- (١) أخرج الحديث أصحاب السنن إلا النسائي ، وصحه الألباني في صحيح أبي داود برقم

٤- حديث أسماء بنت يزيد- رضي الله عنها- قالت : قال رسول الله ﷺ: « اسم الله العظيم في هاتين الآيتين. والهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم » وفاتحة آل عمران : ألم . الله لا إله إلا هو الحي القيوم (١).

ويلاحظ أن الاسم الذي تكرر في الأحاديث السابقة هو (الله) فقد ورد في الحديث الأول والرابع ، وورد في الحديث الثاني بصيغة «اللهم» والأصل (ياالله) فلما حذفوا الياء زادوا الميم في آخره .

وفى الحديث الثالث تكرر لفظ الجلالة (الله) في هذه السور الثلاثة كثيراً . وفيها كلها « الله لا إله إلا هو » ففي سورة البقرة : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ (٢) . وفي سورة آل عمران : ﴿ أَلَمْ يَكُنْ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ (٣) . وفى سورة طه : ﴿ وَإِنْ تَجْهَرُ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (٧) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ (٤) .

ولا يعارض ذلك ما ورد عن راوى حديث أبى أمامه السابق قوله فالتمستها فوجدت أنها (الحي القيوم) . لأن استخراج اسمى (الحي القيوم) ليس من قول النبي ﷺ بل من استخراجيه هو ، وقد بين الإمام الطحاوي خطأ استخراج الراوى لاسمى (الحي القيوم) ، فقد رجع الرواي في سورة طه إلى قوله تعالى « وعنت الوجوه للحي القيوم » وقال الطحاوي : « قد يحتمل أن يكون هو ما في (طه) سوى ذلك ، وهو

(١٣٢٧).

(٢) سورة البقرة آية ٢٤٦ .

(٣) سورة آل عمران آية (٢-١) .

(٤) سورة طه آية (٨٧) .

(١) انظر : تحفة الأحوزي (٩/٤٤٦) .

قول الله تعالى فيها: ﴿وَأَن تَجْهَرُوا بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ (٧) الله لا إله إلا هو ﴿فيرجع ما في (طه) إلى مثل ما رجع إليه في سورة البقرة وسورة آل عمران أنه الله تعالى «أي أنها كلها فيها الله لا إله إلا هو».

فالرأي الراجح أن اسم الله الأعظم هو لفظ الجلاله (الله) للأدلة التالية:

- ١- إن الحي القيوم اسمان وليسا اسماً واحداً.
- ٢- ثبوت اسمه تعالى (الله) في الأحاديث الصحيحة السابقة. وعدم ثبوت اسمي (الحي القيوم) في كل الأحاديث الصحيحة قال المباركفوري: إن لفظ (الله) مذكور في كل الأحاديث، فيستدل بذلك على أنه الاسم الأعظم^(١).
- ٣- إن اسم «الله» دال على جميع الأسماء الحسنی والصفات العلا، وهو مستلزم لجميع معاني الأسماء الحسنی، دال عليها بالإجماع، والأسماء الحسنی تفصيل وتبين للصفات الإلهية، ويشير إليها اسم (الله)^(٢).
- ٤- إن هذا الاسم هو الأصل في أسماء الله تعالى وسائر الأسماء مضافه إليه. قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ (٣). فأضاف سائر الأسماء إليه. فيقال: الرحمن الرحيم الملك القدوس كلها من أسماء الله تعالى. ولا يقال: الله اسم الرحمن الرحيم فدل هذا على أن هذا الاسم (الله) هو الأصل. ولذلك جعل الاسم الأول عند الأمر

(٢) ابن القيم الجوزية، مدارج السالكين ح ١، ص ٣٠.

(٣) سورة الأعراف آية ١٨٠.

(١) سورة الإسراء آية ١١٠.

بالدعاء قال تعالى ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ﴾ (١).

٥- إن هذا الاسم خاص بـ (عز وجل)، ولا يجوز إطلاقه على غيره سبحانه وتعالى، ولذلك قالوا: إن هذا الاسم للتعليق لا للتخلق. فهذا الاسم لم يطلق على غير الله قال تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ (١) معناه هل تعلم من اسمه الله سوى الله. ولما كان هذا الاسم له هذا الاختصاص رجح أن يكون هو الاسم الأعظم.

٦- إن كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) والتي بسببها يتنقل الكافر من الكفر إلى الإسلام لا تحصل إلا بهذا الاسم، فلو قال الكافر: أشهد أن لا إله إلا الملك أو إلا الحليم أو إلا الخالق لم يخرج من الكفر. أما إذا قال: أشهد أن لا إله إلا الله، فإنه يخرج من الكفر ويدخل في الإسلام.

٧- وقد رجح كثير من العلماء أن اسم (الله) هو الاسم الأعظم منهم: الطحاوي وابن المبارك وابن العربي والطرطوشي وقال: «وبهذا المذهب قال معظم العلماء» وكذلك الدارمي وروى بسنده عن جابر بن زيد قال: «اسم الله الأعظم هو الله الم تروا أنه يبدأ به قبل الأسماء كلها» والمباركفوري وغيرهم من العلماء كثير» (٢).

ويجب التنبيه على أمرين:

١- إن ورود بعض الآثار عن أفضلية أدعية معينة متضمنة لبعض

(١) سورة الإسراء آية ١١٠.

(٢) سورة مريم آية ٦٥.

(٣) انظر: عبد الله الغصن، مرجع سابق، ص (٩٦-٩٧).

الأسماء مثل قوله (ﷺ): «أَلْظَلُّوا بِيَاذَا الْجَلالَ وَالْإِكْرَامَ»^(١) لا يمنع أن يكون الاسم الأعظم هو «الله» عز وجل . لأن الأدعية بالأسماء الأخرى تستجاب أيضاً إذا توافرت الشروط وانتفت الموانع .

٢- إنه لا يلزم أن تجاب كل دعوة دعا بها أحد بالاسم الأعظم ؛ لأن لإجابة الدعاء شروطاً يجب أن تتوافر، من أهمها : الإخلاص ، وأكل الحلال ، والمتابعة ، والثقة بتعالى واليقين بالإجابة ، وحضور القلب والتضرع . كما أن هناك موانع لا بد أن تزول كأكل الحرام ، والاستعجال وترك الواجبات وارتكاب المحرمات^(٢) فمن توافرت فيه الشروط وانتفت عنه الموانع ، فهو مما يرجو قبول دعائه^(٣) .

س ٩ ما معنى إحصائها في قول الرسول (ﷺ) : من أحصاها دخل الجنة؟

اختلف عبارات العلماء في معنى الإحصاء فمنهم من قصر الإحصاء على العدو الحفظ . ومنهم من أضاف إلى ذلك الدعاء . ومنهم من فسر الإحصاء بالعد والحفظ وفهم المعاني والمدلول والدعاء بها ، والتعبد بمقتضاها . وأشهر ما ورد في ذلك ما أورده الخطابي في شأن الدعاء وما ذكره ابن القيم في بدائع القوائد . وما حكاه ابن حجر العسقلاني عن ابن بطال في فتح الباري .

قال الخطابي (رحمه الله) : (٤)

(١) أخرجه الترمذي في سننه ، أبواب الدعوات حديث (٣٥٩٣) كما أخرجه أحمد والحاكم وصححه ووافقه الذهبي ، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم (١٥٣٦) .

(٢) لمعرفة هذه الشروط والموانع تفصيلاً انظر شرح أسماء الله (الولي المولى النصير القريب المجيب) .

(٣) عبد الغصن ، مرجع سابق ، ص ٩٨ .

(٤) الخطابي ، شأن الدعاء ، ص ٢٦ : ص ٣٠ .

١- المراد بالإحصاء: العد حتى تستوفي حفظاً، ثم يدعى بها. واستدل القائلون بهذا القول بالرواية الثانية للحديث، وهى قوله: «من حفظها دخل الجنة» قالوا: وهذا نص في الخبر بمعنى الإحصاء أنه الحفظ ومال إلى هذا القول: الإمام الخطابى، والإمام النووى وقال: قال البخارى وغيره من المحققين: معناه حفظها، وهذا هو الأظهر لثبوته نصاً في الخبر. واختار هذا القول أيضاً ابن الجوزي.

ورد هذا القول الحافظ بن حجر فقال: وفيه نظر، لأنه لا يلزم من مجيئه بلفظ «حفظها» تعيين السرد عن ظهر قلب بل يحتمل الحفظ المعنوى. وقال الأصيلي: ليس المراد بالإحصاء عدّها فقط لأنه قد يعدها الفاجر، وإنما المراد العلم بها. وكذا قال أبو نعيم الأصبهاني وابن عطية^(١).

٢- المراد بالإحصاء الإطاقة؛ كقوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصَوْهُ﴾^(٢) لن تطيقوه، ولقول الرسول (ﷺ) «استقيموا ولن تحصوا»^(٣).

أي لن تطيقوه وتبلغوا كل الاستقامة، والمعنى أن يطيق العبد الأسماء الحسنى ويحسن المراعاة لها، وأن يعمل بمقتضاها. فإذا قال (السميع البصير) علم أن الله يسمعه ويراه، وأنه لا تخفى عليه خافية، فيخافه في سره وعلمه ويراقبه في كافة أحواله.

٣- المراد بالإحصاء: العقل والمعرفة، تقول العرب: فلان ذو حصاة، أي ذو عقل ومعرفة بالأمور. فيكون معناه، أن من عرفها،

(١) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج ١١، ص ٢٢٦.

(٢) سورة المزمل آية ٢٠.

(٣) أخرجه ابن ماجه فى سننه، فى كتاب الطهارة باب المحافظة على الوضوء حديث (٢٧٧) وقال عبد القادر الأرناؤوط فى تحقيقه جامع الأصول (٩/٣٩٥): حديث صحيح لطرقه.

وعقل معانيها، وآمن بها دخل الجنة.

٤ - المراد بالإحصاء: قراءة القرآن كاملاً، فيكون القارئ قد استوفى الأسماء كلها في أضعاف القراءه.

لكن يفوته بعض الأسماء الواردة في الأحاديث النبوية الصحيحة الزائدة عما في القرآن الكريم مثل أسماء السُّبُوح، الطَّيِّب، الشَّافِي، الطَّيِّب، السيد، الجميل، الجواد القابض، الباسط، المقدم المؤخر.

وقد جمع كل ما سبق ابن القيم في بيان مراتب إحصاء أسمائه التي من أحصاها دخل الجنة وهي:

المرتبة الأولى: إحصاء ألفاظها وعددها.

المرتبة الثانية: فهم معانيها ومدلولها.

المرتبة الثالثة: دعاؤه بها. كما قال تعالى: «ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها» وهو مرتبتان. أحدهما دعاء ثناء وعبادة والثاني دعاء طلب ومسألة فلا يثنى عليه إلا بأسمائه الحسنى وصفاته العلاء، وكذلك لا يستل إلا بها فلا يقال: يا موجود يا ذات يا شيء اغفر لي وارحمني بل يستل في كل مطلوب باسم يكون مقتضياً لذلك المطلوب فيكون السائل متوسلاً إليه بذلك الاسم^(١). فيقول: يا غفار اغفر لي فإنك أنت الغفور الرحيم، يا رزاق ارزقني إنك أنت الرزاق الكريم وهكذا.

ثم يقول ابن القيم: ومن تأمل أدعية الرسل ولا سيما خاتمهم وإمامهم وجدها مطابقة لهذا، وهذه العبارة أولى من عبارة من قال: يتخلق بأسماء الله وهذه ليست بعبارة سديدة وهي منتزعة من قول الفلاسفة بالتشبه بالإله على قدر الطاقة، وأحسن منها عبارة أبي الحكم

(١) ابن القيم الجوزية، بدائع القوائد، ح ١، ص ١٦٤.

بن برهان وهى التعبد، وأحسن منها العبارة المطابقة للقرآن وهى الدعاء المتضمن للتعبد والسؤال. فمراتبها أربعة أشدها نكارة عبارة الفلاسفة وهى التشبه، وأحسن منها عبارة من قال التخلق، وأحسن منها عبارة من قال التعبد، وأحسن من الجميع الدعاء وهى لفظ القرآن^(١).

وقال ابن بطال - رحمه الله: «الإحصاء يقع بالقول، ويقع بالعمل، فالإحصاء القولى يحصل بجمعها وحفظها والسؤال بها، ولو شارك المؤمن غيره فى العد والحفظ، فإن المؤمن يمتاز عنه بالإيمان والعمل بها. والإحصاء بالعمل أن الله أسماء يختص بها كالأحد والتقدير، فيجب الإقرار بها والخضوع عندها، وله أسماء يستحب الاقتداء بها فى معانيها، كالكريم والعفو، فيستحب للعبد أن يتحلى بمعانيها ليؤدي حق العمل بها فهذا يحصل الإحصاء العملي^(٢).

وللإحصاء معانٍ أخرى، منها الإحصاء الفقهي، وهو العلم بمعانيها من اللغة وتنزيهها على الوجوه التى تحملها الشريعة، ومنها الإحصاء النظرى وهو أن يعلم معنى كل اسم بالنظر فى الصيغة، ويستدل عليه بأثره السارى فى الوجود فلا تمر على موجود إلا ويظهر لك فيه معنى من معانى الأسماء، وتعرف خواص بعضها وموقع القيد ومقتضى كل اسم، وهذا أرفع مراتب الإحصاء، وتام ذلك أن يتوجه إلى الله تعالى من العمل الظاهر والباطن بما يقتضيه كل اسم من الأسماء فيعبد الله بما يستحق من الصفات المقدسة التى وجبت لذاته^(٣).

كما سبق يتبن أن إحصاء أسماء الله الحسنى يتضمن:

(١) المرجع السابق ص ١٦٤.

(٢) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج ١٣، ص ٣٩٠.

(٣) ابن حجر العسقلاني، المرجع السابق، ج ١١، ص ٢٢٧.

- ١ - عدّها وحفظها .
- ٢ - معرفتها وفهم معانيها ومدلولاتها .
- ٣ - معرفة آثارها في الكون والحياة (قدر الطاقة لأن هذا ميدان لا يستطيعه كل الخلائق) .
- ٤ - الدعاء بها ويتضمن :

(أ) دعاء ثناء وعبادة ويتضمن تنزيهها ومراعاتها .
 (ب) دعاء طلب ومسألة . فيسأل في كل مطلوب بالاسم المقتضي لذلك المطلوب مثل يا رحيم ارحمني ، يا رزاق ارزقني وهكذا .

وهذا ما أنتهجته دراسته الحالية ، فبدأت باستخراج الأسماء من القرآن الكريم والسنة النبوية ، ثم معرفة معنى كل اسم ومدلوله ثم معرفة قبس من آثار كل اسم في الكون والحياة ، ثم الدعاء بالاسم : (دعاء ثناء وعبادة ودعاء مسألة ، بيان ما يجب على العبد تجاه كل اسم . ثم سؤال الله عز وجل بكل اسم من هذه الأسماء بما يقتضيه ويتبين ذلك من الإجابة عن السؤال التالي :

س ١٠ ما أركان الإيمان بأسماء الله الحسنى؟

لا يتم الإيمان بالاسم عند أهل السنة والجماعة إلا بثلاثة أركان :
 الإيمان بالاسم ، وبما دل عليه من معنى ، وبما تعلق به من أثر (١) .
 ونضيف إليها ركناً رابعاً وهو : الدعاء بالاسم : ثناء وتعبداً ، وطلباً ومسألةً .

(١) انظر القواعد الحسان لتفسير القرآن للسعدي ، ص ١١٠ ، وانظر : عبد الله الغصن ، مرجع سابق ، ص ٤٩ : ص ٥٦ .

أولاً - فالركن الأول، وهو الإيمان بالاسم يتضمن:

[أ] إثبات الاسم حقيقة لله، قال شيخ الإسلام ابن تيميه (رحمه الله) وقد اتفق جميع أهل الإثبات على أن الله حي حقيقة، عليم حقيقة، قدير حقيقة، سميع حقيقة، بصير حقيقة» (١).

[ب] ومن الإيمان بالاسم: الإيمان بأن الله (سبحانه وتعالى) منزّه عن مماثلة المخلوقين؛ لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (٢).

والمخلوقات تتفق في الأسماء وتختلف وتباين في الحقيقة والكيفية وللإنسان يد وللفيل يد، وللإنسان قوة وللجمل قوة، ولكن ليست يد الإنسان كيد الفيل ولا قوته كقوة الجمل. وما بين الخالق والمخلوق من تباين واختلاف أوضح وأبين، فالأسماء تتفق وتتماثل، ولا يعنى تماثلها تماثل المسميات - بل تختلف باختلاف الإضافة والتخصيص، فما أضيف لله فلا يدخل في معناه (المخلوق)، بل هو خاص به سبحانه، وما أضيف إلى المخلوق فلا يدخل في معناه الخالق، بل هو خاص بالمخلوق، وإنما تتماثل الأسماء عند الإطلاق فقط.

فالاشتراك في الأسماء والصفات لا يستلزم تماثل المسميات والموصوفات، كما دلّ على ذلك السمع والعقل، والحس.

أما السمع: فقد قال الله عن نفسه: ﴿إِنَّ اللَّهَ نِعْمًا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ (٣) وقال عن الإنسان ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ

(١) ابن تيميه، مجموع الفتاوى، ح ٥، ص ١٩٦.

(٢) سورة الشورى آية ١١.

(٣) سورة النساء آية ٥٨.

فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿١﴾ . ونفى أن يكون السميع كالسميع والبصير كالبصير فقال ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (٢) . وأثبت لنفسه علماً وللإنسان علماً فقال عن نفسه : ﴿عَلَّمَ اللَّهُ أَنْكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ﴾ (٣) وقال عن الإنسان : ﴿فَإِنْ عَلَّمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا مِنْ حِلٍّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ (٤) وليس علم الإنسان كعلم الله تعالى فقد قال الله عن علمه : ﴿وَسِعَ كُلُّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ (٥) وقال عن علم الإنسان ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٦) .

وأما العقل : فمن المعلوم بالعقل أن المعاني والأوصاف تنقيد وتتميز بحسب ما تضاف إليه . . فنصف الإنسان باللين ، والحديد المتصهر باللين ، ونعلم أن اللين متفاوت المعنى بحسب ما أضيف إليه .

وأما الحس : فإننا نشاهد للغيل جسماً وقدماً وقوة ، وللبعوضة جسماً وقدماً وقوة ونعلم الفرق بين جسميهما ، وقدميهما ، وقوتيتهما . فإذا علم أن الاشتراك في الاسم والصفة في المخلوقات لا يستلزم التماثل في الحقيقة مع كون كل منها مخلوقاً ممكناً ، فانتفاء التلازم في ذلك بين الخالق والمخلوق أولى وأجلى ، بل التماثل ممتنع غاية الامتناع (٧) .

[ج] ومن تمام الإيمان بالاسم : الإيمان بأن أسماء الله حسنى أى بالغة في الحسن كماله وغايته . قال تعالى : ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ ، ذلك لأنها متضمنة - كما سبق - صفات كمال لا نقص فيها بوجه من الوجوه ، لا احتمالاً ولا تقديرأ .

- | | |
|---|----------------------------|
| (١) سورة الإنسان آية ٢ . | (٢) سورة الشورى آية ١١ . |
| (٣) سورة البقرة آية ٢٣٥ . | (٤) سورة الممتحنة آية ١٠ . |
| (٥) سورة طه آية ٩٨ . | (٦) سورة الإسراء آية ٨٥ . |
| (٧) محمد بن صالح بن عثيمين ، تقريب التدمرية ، ص ٢٠ ، ص ٢١ . | |

والحسن في أسماء الله تعالى يكون باعتبار كل اسم على انفراده، ويكون باعتبار جمعه إلى غيره، فيحصل بجمع الاسم إلى الآخر كمال فوق كمال (١).

ثانياً: أما الركن الثاني من أركان الإيمان بالاسم، فهو: الإيمان بما دل عليه الاسم من معنى، ويتضمن:

[١] الإيمان بأن للأسماء معاني معلومة واضحة، وأن لكل اسم معنى يخصه غير الاسم الآخر، وليس معنى الاسم هو الذات فقط، فأسماء الله أعلام وأوصاف، فهي أعلام باعتبار دلالتها على الذات، وهي أوصاف باعتبار ما دلت عليه من المعاني، وهي باعتبار الأول مترادفة لدلالاتها على مسمى واحد وهو الله (عز وجل)، وبالعبار الثاني متباينة لدلالة كل واحد منهما على معناه الخاص؛ «الحى العليم القدير السميع البصير الرحمن الرحيم العزيز الحكيم» كلها أسماء لمسمى واحد وهو الله (سبحانه وتعالى) لكن معنى الحى غير معنى العليم، ومعنى العليم غير معنى القدير وهكذا.

فكل اسم من أسماء الحسنى له معنى يخصه غير الاسم الآخر، وإحصاء أسماء الله الحسنى يقتضى فهم معنى كل اسم فهو سبحانه وتعالى العليم فيثبت المحصى لأسماء الله الحسنى هذا الاسم، ويفهم معناه وهو: الذي أحاط علمه بكل شيء، يعلم ما كان، وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون، ويعلم الواجبات والمستنعات والجائزات، وما في أقطار العالم العلوى والسفلى، قال تعالى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي

(١) محمد بن صالح بن عثيمين، القواعد المثلث، ص ٦، ص ٧.

(٢) محمد بن صالح بن عثيمين، المرجع السابق، ص ٨.

كِتَابِ مُبِينٍ ﴿١﴾.

ويثبت المحصى لأسماء الله الحسنى اسم السميع، ويفهم معناه وهو الذي يسمع السر والنجوى، سواء عنده الجهر والخفوت، والنطق وال سكوت، فهو الذي يسمع دعوات عباده وتضرعهم إليه، لا يشغله نداء عن نداء، ولا يمنعه إجابة دعاء عن إجابة دعاء فسمعه نوعان: أحدهما سمعه لجميع الأصوات الظاهرة والباطنة والخفية والجليه، وإحاطته التامة بها.

والثاني: سمع الإجابة منه للسائلين والداعين والعاشرين فيجيبهم، ويثبتهم، ومنه قوله تعالى: «إِنْ رُبِّيَ لَسَمِيعُ الدَّعَاءِ» وقول المصلي: «سمع الله لمن حمده» أي استجاب (٢).

ويثبت المحصى لله عز وجل اسم البصير، ويفهم معناه: وهو الذي أحاط بصره بجميع المبصرات في أقطار الأرض والسموات، فيرى دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء، وجميع أعضائها الباطنة والظاهرة، وسريان القوت في أعضائها الدقيقة ويرى سريان المياه في أغصان الأشجار وعروقها وجميع النبات على اختلاف أنواعها وصغرها ودقتها، ويرى نياط عروق النملة والنحلة والبعوضة وأصغر من ذلك (٣).

فمعرفة معاني أسماء الله الحسنى ضرورة، وركن من أركان الإيمان بها. وبين سلطان العلماء العز بن عبد السلام - رحمه الله - أهمية فهم ومعرفة معاني أسماء الله الحسنى فيقول: «فهم معاني أسماء الله تعالى

(١) سورة الأنعام آية ٥٩.

(٢) عبد الرحمن السعدي، الحق الواضح المبين، ص ٣٥.

(٣) المرجع السابق، ص ٣٦.

وسيلة إلى معاملته بثمراتها من الخوف والرجاء، والمهابة، والمحبة، والتوكل (١).

[ب] وفهم معاني أسماء الله الحسنى والتفكر في هذه المعاني لا يعني - على أية حال - التفكر في ذات الله عز وجل - لأن هذا أمر منهي عنه . أما فهم معاني أسماء الله والتفكر فيها فهو داخل في معاني ما أخبر به عن نفسه - جل وعلا - في كتابه الكريم، وأخبر به رسول (ﷺ) (٢).

فمعاني أسماء الله عز وجل واضحة جلية، وتؤخذ من ظاهر النص أى أن المعنى هو المتبادر إلى الذهن من ظاهر النص مما يليق بجلال الله وعظمته .

أما حقيقة هذه الأسماء وكيفيتها فغير معلومة، فالمعاني واضحة جلية، والكيفية والحقيقة غير معلومة ونتوقف عندها لعدم إدراكنا لها .

ثالثاً: أما الركن الثالث من أركان الإيمان فهو الإيمان بما يتعلق بالاسم من آثار، وهذا الركن فرع على الركن السابق، فالإيمان بآثار الأسماء الحسنى يدخل ضمن فهم معاني هذه الأسماء .

فأسماء الله (عز وجل) لها آثار في الخلق والأمر . قال ابن القيم - رحمه الله « من كان له نصيب من معرفة أسمائه الحسنى، واستقرأ آثارها في الخلق والأمر، رأى الخلق والأمر منتظمين بها أكمل نظام، ورأى سريان آثارها فيهما » (٣) .

وهذه الآثار ليست عامة في جميع الأسماء، فإن الاسم إذا دل على

(١) العز بن عبد السلام، شجرة المعارف والأحوال، ص ٧٧.

(٢) عبد الغصن، مرجع سابق، ص ١٢٠.

(٣) ابن القيم الجوزية، طريق الهجرتين وباب السعادتين، ص ١٣٠.

وصف متعدد، فإنه يثبت الاسم وما دل عليه من معنى، وبما دل عليه من آثار، مثل اسم الله الرحمن، واسم الله الرحيم فهما متضمنان لصفة الرحمة، وتتعلق بهما الآثار.

قال ابن القيم - رحمه الله - : «فانظر إلى ما في الوجود من آثار رحمته الخاصة والعامه، فبرحمته أرسل إلينا رسوله (ﷺ)، وأنزل علينا كتابه، وعلمنا من الجهالة، وهدانا من الضلالة، وبصرنا من العمى، وأرشدنا من الغي، وبرحمته عرفنا من أسمائه وصفاته وأفعاله ما عرفنا به أنه ربنا ومولانا، وبرحمته علمنا ما لم نكن نعلم، وأرشدنا لصالح ديننا ودنيانا، وبرحمته أطلع الشمس والقمر، وجعل الليل والنهار... (١).

وإن دل الاسم على وصف لازم، غير متعدد، فإن هذه الاسم يتضمن أمرين فقط، وهما: ثبوت ذلك الاسم لله (عز وجل) وثبوت الصفة التي تضمنها الاسم لله (عز وجل) وليس لها أثر وحكم، لأنه وصف لازم لا يتعدى إلى الغير مثل اسم (الحي)، فهو اسم لله عز وجل ومتضمن لصفة (الحياة) لله عز وجل (٢).

ومعرفة بعض آثار الأسماء الحسنى في الخلق والأمر، والإيمان بها إجمالاً أمر لازم للإيمان بالأسماء الحسنى، أما معرفة هذه الآثار على التفصيل فلا تجب على كل مسلم، بل كل بحسبه، فيجب على العالم ما لا يجب على غيره، ويجب على من انبرى لإحصاء الأسماء ما لا يجب على غيره، ولا يعنى هذا أن تعرف كل آثار الأسماء في الخلق

(١) ابن القيم الجوزية، مختصر الصواعق المرسلة، ج ٢، ص ٣١٧.

(٢) محمد بن صالح بن عثيمين، القواعد المثلى، ص ١١.

والأمر؛ لأن هذا يستحيل على البشر معرفته، وهو غير مقدور لهم؛ لأنه لا يستطيع الإحاطة به - سبحانه وتعالى - وعلمه وأعماله إلا هو، قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ (١) فلا يستطيع أحد من البشر إحصاء آثار أسماء الله الحسنى في الخلق والأمر.

رابعاً: الركن الرابع ولا يتم إيمان المؤمن بأسماء الله الحسنى إلا بالدعاء بهذه الأسماء.

والدعاء نوعان: دعاء عبادة وثناء، ودعاء مسألة وطلب.

أما دعاء العبادة فيقتضى أن يتعبد العبد لله سبحانه وتعالى بمقتضى الأسماء. فتؤثر معرفة هذه الأسماء في عبوديته الظاهرة والباطنة. فإذا علم العبد بسمع الله وعلمه وبصره، وأنه لا يخفى عليه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، وأنه يعلم السر وأخفى، ويعلم خائنه الأعين وما تخفى الصدور، يثمر له حفظ لسانه وجوارحه وخطرات قلبه عن كل ما لا يرضى الله (٢).

وهناك أسماء لله عز وجل يحب من عباده أن يتصفوا بموجب هذه الأسماء فهو سبحانه وتعالى عفو يحب العفو وأهله، جواد يحب الجود، جميل يحب الجمال، رحيم يحب من عباده الرحماء، وتر يحب الوتر، رفيق يحب الرفق.

وأما دعاء المسألة فهو سؤال الله (عز وجل) في كل مطلوب بما يناسب هذا المطلوب من أسمائه (سبحانه وتعالى). فيقول الداعي اللهم اغفر لى وارحمنى إنك أنت الغفور الرحيم، اللهم تب علىّ يا تواب، اللهم

(١) سورة طه آية ١١٠، وانظر: عبد الغصن، مرجع سابق، ص ١٢٣.

(٢) ابن القيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج ٢، ص ٩٠.

ارزقني يا رزاق . اللهم احفظني يا حفيظ ، اللهم اشقني وأنت الشافي ،
اللهم انصرني يا نصير . اللهم اعف عني يا عفو . . . وهكذا .

وقد وردت النصوص من القرآن والسنة تعلمنا ذلك . قال
تعالى : ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ ﴿ وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ
الرَّحِيمُ ﴾ (١) .

﴿ رَبَّنَا لَا تُغِثْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ
الْوَهَّابُ ﴾ (٢) . وفي الحديث أن رسول الله (ﷺ) أمر عائشة أن تدعور بها
تحريراً لليلة القدر ، وتقول : اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عنا (٣) .

وقد سارت الدراسة الحالية على هذا النهج من إثبات الأسماء لله
(عز وجل) ، وبيان معانيها ، وإيراد بعض آثارها ، ثم الدعاء بها : ثناءً
وتعبداً ، وطلباً ومسألةً .

س ١١ : ما دلالات أسماء الله الحسنى ؟

كل اسم من أسماء الله الحسنى له ثلاث دلالات : مطابقة وتضمن
والتزام :

١ - دلالة على الذات والصفة بالمطابقة ، لأن اللفظ إذا أعطى جميع
ما دخل فيه من المعاني فهي دلالة مطابقة ، لأن اللفظ طابق المعنى من
غير زيادة ولا نقص . وإذا أعطى بعض المعنى يسمى دلالة تضمن . لأن
المعنى المذكور بعض اللفظ وداخل في ضمنه .

مثال ذلك : (الرحمن) يدل على الذات وحدها وعلى الرحمة

(١) سورة البقرة آية (١٢٧-١٢٨) .

(٢) سورة آل عمران آية ٨ .

(٣) أخرجه الترمذي في الدعوات ، باب ٨٩ ، برقم (٣٥٨٠) ، وقال : حديث حسن صحيح
وصححه الحاكم ووافقه الذهبي ، وصححه سننه الألباني في تخريج أحاديث مشكاة
المصابيح (١/٦٤٨) برقم (٢٠٩١) .

وحدها دلالة تضمن، وعلى الأمرين دلالة مطابقة ويدل على الحياة الكاملة والعلم المحيط والقدرة التامة ونحوها دلالة التزام، لأنه لا توجد الرحمة من دون حياة الراحم وقدرته الموصله لرحمته للمرحوم، وعلمه به وبحاجته (١).

قال ابن القيم في نونيته المشهورة:

ودلالة الأسماء أنواع ثلاث	كلها معلومة ببيان
دلت مطابقة كذاك تضماً	وكذا التزاماً واضح البرهان
أما مطابقة الدلالة فهي أن	الاسم يفهم منه مفهوم
ذات الإله وذلك الوصف الذي	يشق منه الاسم بالميزان
لكن دلالاته على إحداهما	بتضمن فافهمه فهم بيان
وكذا دلالاته على الصفة التي	ما اشتق منها فالتزام دان

س ١٢ : ما حقيقة الإلحاد في أسماء الله الحسنى؟

الإلحاد لغة من اللحد - بفتح اللام وضمها - وهو الشق الذي يكون في جانب القبر موضع الميت ومن معانيه في اللغة: الميل، والجور، والظلم (٢).

واصطلاحاً هو العدول بأسماء الله الحسنى وبحقائقها ومعانيها عن الحق الثابت لها (٣).

والإلحاد في أسماء الله عز وجل أنواع:

(١) عبد الرحمن السعدى، الحق الواضح المبين، ص ١٠٦، ص ١٠٧.

(٢) لسان العرب مادة لحد.

(٣) ابن القيم الجوزية، بدائع الفوائد (١/١٦٩).

١- أن تسمى الأصنام بهذه الأسماء كتسميتهم اللات من الإلهية والعزى من العزيز، وتسميتهم الصنم إلهاً من أعظم الإلحاد فالإلحاد هنا عدول بأسماء الله عزوجل إلى أوثانهم وأصنامهم وتسميتها بهذه الأسماء.

ومن كلمات الإلحاد التي سمعت من أطلق على طبيب أطفال أنه «إله الأطفال» وهذا كفر وإلحاد في أسماء الله (عزوجل).

فالأسماء الحسنى مختصة بـ (عزوجل) فلا يجوز أن تنقل المعاني الدالة عليها هذه الأسماء إلى أحد من المخلوقين. قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ (١).

فكما اختص سبحانه وتعالى بالعبادة وبالألوهية الحق، فهو مختص بالأسماء الحسنى، فتسمية غيره بها على الوجه الذي يختص بالله عزوجل ميل بها عما يجب فيها. كما لا يجوز أن يوصف أحد من الخلق بصفة فيها نوع مشاركة لله تعالى في أسمائه وصفاته، كملك الملوك، وقاضي القضاة، وحاكم الحكام وأبى الحكم وأبى الأعلى حفظاً للتوحيد وسداً للذريعة حتى لا يظن مشاركة أحد لله تعالى في شيء من خصائصه. قال رسول الله (ﷺ): «أخضع الأسماء عند الله يوم القيامة رجل تسمى ملك الأملاك، لا مالك إلا الله» (٢).

قال ابن حجر: «واستدل بهذا الحديث على تحريم التسمي بهذا الاسم لورود الوعيد الشديد ويلتحق به ما في معناه مثل خالق الخلق، وأحكم الحاكمين، وسلطان السلاطين، وأمير الأمراء» (٣).

(١) سورة الأعراف آية ١٨٠.

(٢) رواه البخاري (٤٨٦/١٠)، ومسلم (٢١٤٣).

(٣) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج ١٠، ص ٥٩٠.

٢- ومن الإلحاد في أسمائه تسميته سبحانه وتعالى بما لم يسم به نفسه ، ووجه كون ذلك إلحاداً ؛ لأن أسماء الله توقيفية ، فلا يحل لأحد أن يسمي الله تعالى بما لم يسم به نفسه ، لأن هذا من العدوان في حق الله (عز وجل) ، ومن القول على الله بغير علم ، وقد نهى الله عز وجل عن ذلك فقال : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

ومثال هذا النوع من الإلحاد : تسمية الفلاسفة عز وجل بأنه العلة الفاعله . وتسمية النصارى له سبحانه وتعالى بأسم (الاب) . ومنه تسمية الماسونيين لله عز وجل بأنه المهندس الأعظم . وقول العامه (يا صباح) أو (الله الفنان) كل هذا تسمية لله عز وجل بما لم يسم به نفسه (٢) .

ومن هذا النوع أيضاً تسميته سبحانه وتعالى بما لا يليق به كتسميته بالمثل والفتان والماكر والمستهزئ والكاييد وغير ذلك مما لا يليق به سبحانه ولا يدخل تحت أسمائه الحسنى .

٣- ومن الإلحاد وصفه (سبحانه وتعالى) بما يتعالى عنه ويتقدس من النقائص كقول أخبث اليهود إنه فقير ، وقولهم : إنه استراح بعد أن خلق خلقه ، وقولهم يد الله مغلولة وغير ذلك مما هو إلحاد في أسمائه وصفاته ويتقدس عنه الحق سبحانه وتعالى .

٤- ومن الإلحاد في أسمائه (سبحانه وتعالى) ، إنكار شيء من

(١) سورة الأعراف آية ٣٣ .

(٢) انظر : ابن القيم الجوزية ، بدائع الفوائد ج ١ ، ص ١٦٩ ، وصالح الغصن ، مرجع سابق ،

الأسماء، أو مما دلت عليه من الصفات والأحكام. ووجه كونه إلحاداً: هو أن الإيمان بالأسماء وبما دلت عليه من الأحكام والصفات اللائقة به أمر واجب، فإنكار شيء من ذلك ميل بالأسماء عما يجب فيها (١).

ومثال ذلك من ينكر الأسماء مطلقاً، كما فعل أهل الجاهلية في إنكارهم اسم (الرحمن)، أو من يثبت الأسماء، ولكن ينكر ما تضمنته من الصفات كما يقول بعض المبتدعة، إن الله رحيم بلا رحمه، سميع بلا سمع... تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً. فتعطيل الأسماء عن معانيها وجحد حقائقها من أعظم الإلحاد شرعاً وعقلاً ولغة وفطرة وهو يقابل إلحاد المشركين فإن أولئك أعطوا أسماءه وصفاته لألهتهم وهؤلاء سلبوه صفات كماله وجحدوها وعطلوها فكلاهما ملحد في أسمائه (٢).

٥- ومن الإلحاد في أسمائه تشبيه صفاته بصفات خلقه تعالى الله عما يقول المشبهون علواً كبيراً. وهذا الإلحاد في مقابلة إلحاد المعطلة فإن أولئك نفوا صفة كماله وجحدوها وهؤلاء شبهوها بصفات خلقه فجمعهم الإلحاد وتفرقت بهم طرقه، فتشبيه الله بخلقه كفر لكونه تكذيباً لقوله تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (١).

قال نعيم بن حماد الخزاعي: «من شبه الله بخلقه فقد كفر، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر، وليس فيما وصف الله به نفسه تشبيه» (٢).

(١) عبد الله الغصن، مرجع سابق، ص ١٠٩.

(٢) ابن القيم الجوزية، بدائع الفوائد، ح ١، ص ١٦٩.

(٣) سورة الشورى آية ١١.

(٤) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ح ٥، ص ٦١٠.

والإلحاد بجميع أنواعه محرم لأن الله (عز وجل) توعد الملحدين في أسمائه فقال (سبحانه) : ﴿ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (١).

ومنه ما يكون شركاً أو كفراً حسبما تقتضيه الأدلة الشرعية (٢).

وقد بين ابن القيم (رحمه الله) في نونيته المشهورة أنواع الإلحاد وجزاء الملحدين في أسمائه (سبحانه وتعالى) فقال :

أسماءه أوصاف مدح كلها	مشتقه قد حملت لمعان
إياك والإلحاد فيها إنه	كفر معاذ الله من كفران
وحقيقة الإلحاد فيها الميل بالإل	شراك والتعطيل والنكران
فالملحدون إذاً ثلاث طوائف	فعليلهم غضب من الرحمن
المشركون لأنهم سموا بها	أو ثانهم قالوا إله ثان
هم شبهوا المخلوق بالخالق عك	س شبه الخلاق بالإنسان
وكذاك أهل الاتحاد فإنهم	إخوانهم من أقرب الإخوان
والملحد الثاني فذو التعطيل إذ	ينفي حقائقها بلا برهان
هذا وثالثهم فنافيها ونا	في ما تدل عليه بالبهتان
ذا جاحد الرحمن رأساً لم يق	ر بخالق أبداً ولا رحمن
هذا هو الإلحاد فاحذره لعل الله	ه أن ينجيك من نيران
وتفوز بالرفق لديه وجنة الم	أوى مع الغفران والرضوان

(١) سورة الأعراف آية ١٨٠.

(٢) محمد بن صالح بن عثيمين، القواعد المثلى، ص ١٧.

فاتباع الرسول (ﷺ) وورثته القائمين بسنته برأهم الله (عز وجل) من الإلحاد وأنواعه فلم يصفوه إلا بما وصف به نفسه ولم يجحدوا صفاته، ولم يشبهوها بصفات خلقه، ولم يعدلوا بها عما أنزلت عليه لفظاً ولا معنى بل أثبتوا له الأسماء والصفات ونفوا عنه مشابهة المخلوقات فكان إثباتهم برياً من التشبيه وتنزيههم خلياً من التعطيل لا كمن شبه حتى كأنه يعبد صنماً أو عطل حتى كأنه لا يعبد إلا عدماً فهم وسط في التحل كما أن الإسلام وسط في الملل. توعد مصابيح معارفهم من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء^(١).

س ١٣ ما ضوابط عد أسماء الله الحسنى من القرآن الكريم والحديث النبوي الصحيح؟

تتميز أسماء الله الحسنى بأمور من أبرزها:

أولاً: إن أسماء الله الحسنى توقيفية؛ أي أننا لا نثبت لله من الأسماء إلا ما جاء في القرآن الكريم والحديث النبوي الصحيح.

فكل اسم لم يرد به الكتاب أو السنة، فإنه لا يكون من أسماء الله الحسنى، حتى لو صح معناه في اللغة أو العقل أو الشرع فلا يسمى. مثلاً بـ (ذات) أو (موجود) أو (قديم)؛ لأنه لم ترد تسمية الله تعالى بها في النص. وهذا مذهب أهل السنة والجماعة يشبتون من الأسماء الحسنى ما أثبتته الله لنفسه في كتابه، أو أثبتته له رسول (ﷺ)، لا يتجاوزون فيها التوقيف، فلا مجال للعقل فيها؛ لأنها من الأمور الغيبية، والأمور الغيبية لا تؤخذ إلا من الكتاب والسنة؛ فلا يجوز

(١) ابن القيم الجوزية، بدائع الفوائد، ج ١، ص (١٦٩ - ١٧٠).

إثبات شيء من الأسماء إلا ما أثبتته الشرع، ولا نفي شيء أثبتته الشرع^(١).

قال الإمام الخطابي (رحمه الله): «ومن علم هذا الباب - أعني الأسماء والصفات - ومما يدخل في أحكامه ويتعلق به من شرائط: أنه لا يتجاوز فيها التوقيف»^(٢).

وقال الإمام ابن قدامة المقدسي: «ومذهب السلف - رحمهم الله - الإيمان بصفات الله تعالى وأسمائه التي وصف بها نفسه في آياته وتنزيله، وعلى لسان رسوله من غير زيادة عليها، ولا نقص منها»^(٣).

وقال الشيخ محمد بن صالح بن عثيمين: «أسماء الله توقيفيه لا مجال للعقل فيها، وعلى هذا فيجب الوقوف فيها على ما جاء به الكتاب والسنة فلا يزداد فيها ولا ينقص لأن العقل لا يمكنه إدراك ما يستحق من الأسماء، فوجب الوقوف في ذلك على النص لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾^(٤) وقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٥) ولأن تسميته تعالى بما لم يسم به نفسه أو إنكار ما سمى به - نفسه جناية في حقه تعالى فوجب سلوك الأدب في ذلك والاقتصار على ما جاء به النص»^(٦).

(١) عبد الله القصين، مرجع سابق، ص ٤٧.

(٢) الخطابي شأن الدعاء ص ١١١.

(٣) ابن قدامة المقدسي، ذم التأويل، ص ١٤.

(٤) سورة الإسراء آية ٣٦.

(٥) سورة الأعراف آية ٣٢.

(٦) محمد الصالح بن عثيمين، مرجع سابق، ص ١٣.

والأصل في أمور العقائد كلها ومنها الأسماء الحسنى الوقوف عند النصوص (القرآن الكريم والسنة النبوية) . فالعقل لا مجال له في باب الأسماء إلا التصديق ، والوقوف عند النصوص . فلا يجوز أن يسمى الله عز وجل إلا بما سمى به نفسه أو أثبت له رسول (ﷺ) .

ثانياً - إن أسماء الله الحسنى هي كل ما دل على ذات الله ، مع تضمينها لصفات الحسن والكمال المطلق . والضابط في ذلك كما يقول الشيخ عبد الرحمن السعدى (رحمه الله) : « وضابطه (أى الاسم) أنه كل اسم دل على صفة كمال عظيمة » (١) .

فيميز الاسم بأنه كامل الحسن يدل على صفة عظيمة ، فليس في أسماء الله عز وجل اسم يتضمن الشر . فليس من أسمائه تعالى : المستهزئ ولا المضل ولا الماكر لأن هذه الأسماء لم يطلق عليه سبحانه منها إلا أفعال مخصوصة معينة فلا يجوز أن يسمى بأسمائها المطلقة ، فلا يقال : الله مستهزئ على سبيل الإطلاق ؛ لأن الاستهزاء في ذاته منه ما هو محمود ، ومنه ما هو مذموم ، فلا يذكر إلا مقيداً ، فيقال : الله يستهزئ بمن يستهزئ به » (٢) .

ولا يسمى الله بما ينقسم في جنسه إلى محمود ومذموم - كما سلف في القاعدة الثالثة - فلا يسمى بالمتكلم أو المرید لأن أسمائه كاملة الحسن - (سبحانه وتعالى) .

وليس من أسمائه (سبحانه وتعالى) أعلام جامدة ، ولا تتضمن معنى يلحقها بالأسماء الحسنى ، ولذلك أجاب الشيخ محمد بن عثيمين

(١) عبد الرحمن السعدى ، تفسير كلام المنان ، ج ٣ ، ص ١٢٠ .

(٢) ابن القيم الجوزية ، بدائع الفوائد ، ج ١ ، ص ١٦٢ ، وعبد الله الغصن ، مرجع سابق ، ص ١٤٢ .

- حفظه الله - حينما سئل عن (الدهر) هل الدهر من أسماء الله الحسنى؟ فقال: «إن أسماء الله سبحانه وتعالى حسنى، بالغة في الحسن أكمله، فلا بد أن تشتمل على وصف ومعنى هو أحسن ما يكون من الأوصاف والمعاني، في دلالة هذه الكلمة، ولهذا لا تجد في أسماء الله معاني اسماً، جامداً، و(الدهر) اسم جامد لا يحمل معنى إلا أنه اسم للأوقات (١).

وأما ما ورد عن رسول الله (ﷺ): «لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر...». وفي رواية أخرى: «يقول الله: يؤذيني ابن آدم بسب الدهر وأنا الدهر بيدى الأمر، أقلب الليل والنهار» وفي لفظ «لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر، يقلب الليل والنهار» وفي لفظ: «يقول ابن آدم الدهر وأنا الدهر» فقوله في الحديث «بيدى الأمر أقلب الليل والنهار» يبين أنه ليس المراد أنه الزمان، فإنه قد أخبر أنه يقلب الليل والنهار، والزمان هو الليل والنهار، فدل الحديث على أنه سبحانه هو يقلب الليل والنهار، ولا يتوهم عاقل أن الله هو الزمان فإن الزمان مقدار الحركة، والحركة مقدارها من باب الأعراض والصفات القائمة بغيرها، والله عز وجل مستغن بنفسه، يحتاج إليه سواه. والحديث رد على ما يقوله أهل الجاهلية، ومن أشبههم، فإنهم إذا أصابتهم مصيبة أو منعوا أغراضهم أخذوا يسبون الدهر والزمان، يقول أحدهم: قبح الله الدهر... ولعن الله الزمان... وهم يقصدون سب من فعل تلك الأمور، ويضيفونها إلى الدهر فيقع السب على الله تعالى؛ لأنه هو الذي فعل تلك الأمور وأحدثها، والدهر مخلوق له، هو الذي يقلبه ويصرفه. والتقدير: أن

(١) انظر: المجموع الثمين من فتاوى فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين (٢/ ٧٢).

(١) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ح ٢، ص (٣٩١-٣٩٣).

ابن آدم يسب من فعل هذه الأمور وأنا فعلتها، فإذا سب الدهر فمقصوده سب الفاعل وإن أضاف الفعل إلى الدهر، فالدهر لا فعل له؛ وإنما الفاعل هو الله وحده (١).

ثالثاً: ما ثبت الدعاء به فهو اسم من أسماء الله الحسنى. لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا...﴾ (٢)، فما ورد في القرآن الكريم أو في السنة النبوية الصحيحة. ودعى به فهو اسم من أسماء الله (عز وجل).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «ومن أسمائه التي ليست في التسعة والتسعين اسمه السبوح... وكذلك أسماؤه المضافه مثل: أرحم الراحمين، وخير الغافرين، ورب العالمين، ومالك يوم الدين، وأحسن الخالقين، وجامع الناس ليوم لا ريب فيه، ومقلب القلوب، وغير ذلك مما ثبت في الكتاب والسنة، وثبت الدعاء بها بإجماع المسلمين» (٣).

رابعاً: ما ورد مقيداً من الأسماء الحسنى في القرآن الكريم، فلا يكون اسماً بهذا الورد؛ مثل اسم (المتقم)، فلم يرد إلا مقيداً في قوله تعالى: ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُتَقِمُونَ﴾ (٤) وفي قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ (٥).

وكذلك إذا ورد في الكتاب والسنة اسم فاعل يدل على نوع من الأفعال ليس بعام شامل، فلا يعد من الأسماء الحسنى؛ مثل الزراع،

(٢) سورة الأعراف آية ١٨٠.

(٣) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج ٢، ص (٤٩١-٤٩٣).

(٤) سورة السجدة آية ٤٤.

(٥) سورة إبراهيم آية ٤٧.

(١) عبد الله الغصن، مرجع سابق، ص.

الذارئ، المسعر^(١).

خامساً: الأسماء المتضمنة صفة واحدة، لا تعد اسماً واحداً، بل كل صيغة من صيغ الاسم يعد اسماً مستقلاً، مثال ذلك (القادر) (القدير) (المقتدر) متضمنة لصفة قدره، وتعد ثلاثة أسماء. وأسماء مثل (العلی)، (الأعلى)، (المتعالی)، تعد ثلاثة أسماء مع تضمنها لصفة واحدة هي صفة العلو.

فالقادر اسم، والقدير اسم، والمقتدر اسم، مع أنها كلها متضمنة صفة واحدة، لأن بعضها يزيد بخصوصية عن الآخر، وقد وقع الاتفاق على أن اسمی (الرحمن)، (الرحيم) اسمان، مع كونهما متضمنين صفة واحدة، فتغير مباني وألفاظ الأسماء يغير المعنى، وإذا تغير المعنى صار اسماً مستقلاً بذاته^(٢).

سادساً: الأسماء المقترنة؛ التي لا يصح فيها إطلاق اسم منها دون الآخر، مثل اسمی (القابض، الباسط)، واسمی (المقدم، المؤخر)، فهذه الأسماء تعد اسمين؛ لأن كل اسم منها يحمل معنى غير الآخر، لكنها تكون كالاسم الواحد في المعنى فلا يصح إفراد اسم عن الآخر في الذكر؛ لأن الاسمين إذا ذكرا معاً دل ذلك على عموم قدرته وتدييره، وأنه لا رب غيره. وإذا ذكر أحدهما لم يكن فيه هذا المدح، والله له الأسماء الحسنى، ليس له اسم السوء قط فلا يجوز أن يفرد اسم عن مقابله لأن الكمال في اقتران كل اسم من هذه بما يقابله، فلو قلت: يا قابض يا مؤخر لم تكن مثنياً عليه ولا حامداً له حتى تذكر مقابله^(٣).

(٢) ابن حجر، فتح الباری، ح ١١، ص ٢١٩.

(٣) ابن القيم الجوزیه، بدائع الفوائد، ح ١، ص ١٦٧.

وفى ضوء القواعد السابقة تم استخراج الأسماء التالية من القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة :

« الله - الإله - الحق - الواحد - الأحد - الوتر - الحى - القيوم - السبوح - القدوس - الطيب - السلام - السيد - الصمد - العظيم - الجميل - الواسع - الغنى - المجيد - الكبير - المتكبر - العلى - الأعلى - المتعالى - العزيز - الأول - الآخر - الظاهر - الباطن - الوارث .

الملك - المليك - الجبار - القاهر - القهار - القادر - المقتدر - القدير - القوى - المتين - المقدم - المؤخر - الحكم - الفتاح - الديان .

الخالق - الخلاق - البارئ - المصور - الحكيم الوهاب - المنان - الرازق - الرزاق - المقيت - الكريم - الأكرم - الجواد - المحسن - البر - القابض - الباسط .

السميع - البصير - العالم - العليم - الخبير - الرقيب - الشهيد - الحافظ - الحفيظ - المهيمن - المحيط .

الرب - الرفيق - اللطيف - الرحمن - الرحيم - الرؤوف - الشافي - الطبيب - الحليم - الحي - الستير - الحميد - الشاكر - الشكور - الودود - الولي - المولى - النصير - القريب - المجيب - الخاسب - الحسيب - الوكيل - الهادئ - المبين - المؤمن - الغفار - الغفور - العفو - التواب .

ومجموع الأسماء السابقة مائة اسم وثلاثة أسماء ، وهناك أسماء أخرى مضافة أي جاءت بصيغة الإضافة مثل : مالك الملك ، ذى الجلال والإكرام ، علام الغيوب ، بديع السموات والأرض ، محيي الموتى ، جامع الناس ليوم لا ريب فيه ، نور السموات والأرض مقلب القلوب .

وتعد هذه من الأسماء الحسنی لورودها في القرآن الكريم والسنة

النبوية الصحيحة ولثبوت الدعاء ببعضها، ولكمال حسنها ودلائلها على صفات عظيمة: عن أنس (رضي الله عنه) قال: كنت جالساً مع النبي (ﷺ) في المسجد ورجل يصلي فقال: «اللهم إني أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت، المنان، بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا حي يا قيوم. فقال النبي (ﷺ): «دعا الله باسمه الأعظم الذي إذا دعى به أجاب وإذا سئل به أعطى» (١).

وعن أم سلمة (رضي الله عنها) قالت: «كان أكثر دعاء النبي (ﷺ): «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك» (٢).

وقد عد الأسماء المضافة من الأسماء الحسنى شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله)، فقال: «ومن أسمائه التي ليست في التسعة والتسعين اسمه السبوح... وكذلك أسماؤه المضافة مثل: أرحم الراحمين، وخير الغافرين، ورب العالمين، ومالك يوم الدين، وأحسن الخالقين، وجامع الناس ليوم لا ريب فيه، ومقلب القلوب، وغير ذلك مما ثبت في الكتابة والسنة، وثبت الدعاء بها بإجماع المسلمين» (٣).

وقد عد الأسماء المضافة ضمن أسماء الله الحسنى فضيلة الشيخ محمد بن صالح بن عثيمين، فقال بعد أن سرد تسعة وتسعين اسماً من القرآن والسنة... ومن أسماء الله تعالى ما يكون مضافاً مثل: مالك الملك، ذي الجلال والإكرام (٤).

(١) أخرجه النسائي في كتاب السهو، باب: الدعاء بعد الذكر، وأبو داود في سننه في كتاب باب الصلاة، باب: الدعاء وأحمد في مسنده وذكر اسم الحنان، والحاكم في المستدرک في كتاب الدعاء (٥٠٣/١)، وصححه ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه الترمذی وأحمد وصححه ووافقه الذهبي، وانظر صحيح الجامع ٦/٣٠٩ وصحيح الترمذی ٣/١٧١.

(٣) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ح ٢٢، ص ٤٨٥.

(٤) محمد بن صالح بن عثيمين، القواعد المثلى، ص ١٦.

وقد شرحت في هذا الكتاب الأسماء المفردة، أما الأسماء المضافة^(١) فقد أشرت لبعضها في أثناء شرح الأسماء المفردة، فاسم مالك الملك ورد في شرح اسمى الملك والمليك، واسم ذى الجلال والأكرام ورد في شرح اسمى الكريم والأكرام، واسم علام الغيوب ورد في شرح اسمى العالم والعليم، واسم بديع السموات والأرض ورد مع شرح أسماء الخلاق والخالق البارئ والمصور، واسم محيي الموتى ورد مع شرح الحى القيوم، واسم جامع الناس ورد في شرح أسماء القادر المقتدر القدير، واسم نور السموات السموات والأرض ورد في شرح اسم الجميل والله تعالى أجل وأعلم.



(١) أسأل الله عز وجل أن يوفقني إلى شرحها في مؤلف آخر يلي هذا الكتاب (إن شاء الله تعالى).



ثانياً

في رحاب أسماء الله الحسنى

الله (جلّ جلاله)

(١)

الله هو الاسم الذي اختص به الحق - سبحانه وتعالى - فهو علم على الذات الإلهية المقدسة التي نؤمن بها، ونعمل ابتغاء مرضاتها، ونعرف أن منها حياتنا وإليها مصيرنا.

والله علم على ذات الحق الجامع لكل صفات الكمال والجلال والجمال وهو أشهر الأسماء الحسنى، وأعلاها محلاً في الذكر والدعاء، ولذلك جعل إمام سائر الأسماء.

وقد تفرد الحق - سبحانه وتعالى - بهذا الاسم وخص به نفسه، وجعله أول أسمائه، وأضافها كلها إليه، ولم يصفه إلى اسم منها، فكل ما يرد بعده يكون نعتاً وصفة له.

وأصل كلمة «الله» في اللغة «الإله» ثم حذفت الهمزة تخفيفاً فاجتمعت لآمان، فأدغمت الأولى في الثانية فقبل الله (١).

والإله في لغة العرب أطلق لمعان أربعة هي: المعبود، والملتجأ، والمفزع إليه، والمحجوب حباً عظيماً، والذي تختار العقول فيه، أي في إدراك عظيمته، ومعرفة قدرته (٢).

وكل هذه المعاني ثابتة في حق الله (سبحانه وتعالى) فهو سبحانه المعبود بحق، وهو الذي يلجأ إليه في النوائب والشدائد، وليس لنا عند

(١) أبو القاسم الزجاجي، اشتقاق أسماء الله، ص ٢٤.

(٢) عبد الرحمن عبد الخالق، منهج جديد لدراسة التوحيد، ص ١٥.

الكروب سواء، وهو المحبوب المعظم (سبحانه)، والعقول تتحير في حكمته، وبديع صنعه، ومعنى الخيرة هنا التعظيم وعدم إدراك الكنه، فهو سبحانه أعظم من أن تدركه العقول، وتحيط به الفهوم ولا يحيطون به علماً.

وقد اختص هذا الاسم بخصائص منها: (١).

(١) إنه لا يسمى به أحد غير الله، ولذلك لا يجوز إطلاقه علي غيره، - سبحانه - ولذلك قالوا: إن هذا الاسم للتعلق لا للتعلق، وما سواء يجوز وصف الإنسان به على سبيل التوسع والتجوز ويكون للاسم أو الوصف دلالة نسبية تتلاءم والإنسان وتختلف مع ما تشير إليه أو تقتضيه عند إطلاقها على الذات الإلهية.

(٢) وقد اختص هذا الاسم أيضاً بخاصية شرعية أخرى وهي أن كلمة الشهادة (لا إله إلا الله) التي بسببها ينتقل الكافر من الكفر إلى الإسلام لا تحصل إلا به، فلو قال الكافر: أشهد أن لا إله إلا الرحمن أو الملك أو الحليم لم يخرج من الكفر، ولم يدخل في الإسلام، أما إذا قال: أشهد أن لا إله إلا الله. فإنه يخرج من الكفر ويدخل في الإسلام.

(٣) وهناك خاصية أخرى أيضاً لهذا الاسم، وهي أن سائر الأسماء إذا دخل عليها النداء أسقطت عنها الألف واللام، ولهذا لا يجوز أن يقال: يا الرحمن، يا لعليم بل يقال: يا رحمن، يا عليم. أما هذا الاسم فإنه يحتمل ذلك فيصح أن يقال: يا الله، وذلك لأن الألف واللام في هذا الاسم صاراً كالجاء الذاتي فلا يسقطان حال النداء، وفيه

(١) إسماعيل بن كثير تفسير القرآن العظيم، ج ١، ص ١٩، ص ٢٠ (بتصرف).

إشارة لطيفة وذلك لأن الألف واللام للتعريف فعدم سقوطهما عن هذا الاسم يدل على أن هذه المعرفة لا تزول عنه البته .

(٤) كما أن هذا الاسم هو الأصل في أسماء الله الحسنى ، وسائر الأسماء تضاف إليه ، قال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ .

فأضاف سائر الأسماء إليه ، والموصوف قبل الصفة ، ونقول : الرحمن الرحيم الملك القدوس كلها من أسماء الله تعالى ، ولا نقول الله اسم الرحمن الرحيم الملك القدوس ، وهذا يدل على أن هذا الاسم هو الأصل .

وقد قال تعالى : ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ ﴾ فخص هذين الاسمين بالذكر مما يدل على تقدمها على غيرهما ، ثم إن اسم الله مقدم في الذكر على الرحمن ، مما يدل على أنه أصل لسائر الأسماء .

وقد رجح كثير من العلماء أن يكون اسم «الله» هو الاسم الأعظم للخصائص السابقة التي اختص بها .

والآن : هل وجود الله (عز وجل) يحتاج إلى برهان؟

وجود الله عز وجل من البدايات التي يدركها الإنسان ويهتدي إليها بفطرته ، فهو ليس من مسائل العلوم المعقدة . ﴿ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ (١) .

والله (عز وجل) لا يعرف بالمخلوقات ، بل يعرف الله بالله سبحانه وتعالى ، قال عبد الله بن رواحة :

والله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا

(١) سورة ابراهيم آية : ١٠ .

فالله (عز وجل) يعرف با، والأشياء كلها تعرف بالله، وتزيد معرفته سبحانه وتعالى بالنظر في مخلوقاته. فالمسلم إذا نظر في مخلوقات الله تعالى، وما خلق من عجائب، مثل دوران الليل والنهار والشمس والقمر وتفكر في نفسه، وفي مبدئه ومنتهاه زادت معرفته بربه. قال تعالى: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (١).

والقرآن الكريم لفت نظر الإنسان إلى خالقه من عدة طرق منها: الفطرة، والعقل، والعلم.

فالتدين فطرة فطر الإنسان عليها. قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقِيمُ﴾ (٢). فالإنسان لديه استعداد فطري ثابت للتدين والاعتراف بالحق. قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ (٣).

ثم يصور لنا القرآن الحالة النفسية للبشر عندما تشتد بها الكربات فيعودون إلى فطرتهم الأولى: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ (٤).

﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظَّلْلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ (٥).

فالإيمان بالله (عز وجل) فطرة فطر الناس عليها من البداية وحتى نهاية هذا العالم. ويبقى الإنسان مفطوراً عليها ما دام مستقيماً في

(١) سورة الذاريات، آية: ٢١. (٢) سورة الروم آية ٣٠.

(٣) سورة الزخرف آية ٩. (٤) سورة فصلت آية ٥١.

(٥) سورة لقمان آية ٣٢.

وايقاظ العقل لينظر في الكون المحيط إحدئ وسائل القرآن في
الدلالة على الله ليتعرف على مخلوقات الله، وما تدل عليه من صفات
كماله ونعوت جلاله ومظاهر عظمتة، ونفوذ قدرته، وتفردته بالخلق
والإبداع.

قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ آلَ اللَّهِ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٥٩) أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتَا بِهِ حَدائقَ ذَاتِ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنبِتُوا شَجَرَهَا إِلَهُ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠) أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِي وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا إِلَهُ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٦١) أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ إِلَهُ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلِ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ إِلَهُ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٣) أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَهُ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١﴾ .

والذي ينظر في الكون المحيط يجد كل شيء فيه محكماً متقناً مرتباً، السموات والأرض، والجبال والبحار، والإنسان وسائر المخلوقات كل هذه المخلوقات محكمة متقنة منظمة. فمن الذي أحكمها وأتقنها ونظمها، وهيمن عليها؟ ﴿صَنَّ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ (٢).

(٢) سورة النمل، آية ٨٨.

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ﴾ (٦١)
 وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذْكُرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿ (١).
 ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ
 مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ (٢).

والإنسان عندما ينظر إلى نفسه يجد أنه لم يكن فكان فمن الذي
 كونه؟ ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ
 بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴿ (٣).

رُوي أن أبا حنيفة (رحمه الله) خاصم جماعة من الدهرية فقال
 لهم: ما تقولون في رجل يقول لكم إنني رأيت سفينة مشحونة
 بالأحمال، مملوءة من الأثقال قد احتوشتها في لجة البحر أمواج
 متلاطمة، ورياح مختلفة وهي من بينها تجرئ مستوية ليس لها ملاح
 يجريها ولا متعهد يدفعها هل يجوز ذلك في العقل؟ قالوا: لا. هذا
 شيء لا يقبله العقل!! فقال أبو حنيفة: يا سبحان الله! إذا لم يعجز في
 العقل سفينة تجرئ في البحر مستوية من غير متعهد ولا مجر، فكيف
 يجوز قيام هذه الدنيا على اختلاف أحوالها وتغير أعمالها، وسعة
 أطرافها، وتباين أكتافها من غير صانع وحافظ!! فبكوا جميعا، وقالوا؟
 صدقت، وأغمدوا سيوفهم وتابوا.

وسألوا الشافعي (رحمه الله)، ما الدليل على وجود الصانع؟
 فقال: « ورقة الفرصاد (التوت الأحمر) طعمها ولونها وريحها وطبعها

(١) سورة الفرقان آية (٦١-٦٢).

(٢) سورة فاطر آية ٤١.

(٣) سورة الطور (٣٥-٣٦).

واحد عندكم؟ قالوا: نعم، قال: فتأكلها دودة القز، فيخرج منها الإبرسيم، والنحل، فيخرج منها العسل، والشاة، فيخرج منها البعر، ويأكلها الطباء فيعقد في نوافحها المسك!! فمن الذي جعل هذه الأشياء كذلك، مع أن الطبع واحد؟ فاستحسنوا منه ذلك، وأسلموا علي يديه، وهم سبعة عشر.

وتمسك أحمد بن حنبل (رحمه الله) بالدلالة على وجود الله تعالى - بقلعة ملساء لا فرجة فيها، ظاهرها كالفضة المذابة، وباطنها كالذهب الإبريز، ثم انشقت الجدران، وخرج من القلعة حيوان سميع بصير!! فلا بد من الفاعل. عني بالقلعة: البيض. وبالحیوان: الفرخ.

وسأل هارون الرشيد الإمام مالكاً عن ذلك، فاستدل باختلاف الأصوات، وتردد النغمات، وتفاوت اللغات.

أما دليل العلم فانظر في قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّ الْحَقَّ أَوْ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (١).

ففي كل يوم يكتشف العلماء أسراراً جديدة تبرهن على وجود الخالق الحكيم والذي خلق كل شيء وقدره تقديراً فجميع ما في الكون يشهد على وجود الله (سبحانه) ويدل على قدرته وعظمته، وما يقوم به العلماء من تحليل لظواهر الكون ودراستها فإنهم لا يفعلون أكثر من ملاحظة عظمة الله في خلقه، وهم يقرون بأن العلوم ما هي إلا دراسة مخلوقات الله وآثار قدرته. وكلما ازداد الإنسان علماً ازداد يقيناً بوجود الخالق الباري (سبحانه وتعالى)، ففي هذا العصر الذي بلغ فيه العلم مبلغاً كبيراً خاصة في الجانب المادي نجد كثيراً من العلماء يزدادون إيماناً

بالله (عز وجل). وقد حلل دينريت Denret الآراء الفلسفية لأكابر العلماء بقصد أن يعرف عقائدهم، فتبين له من دراسة ٢٩٠ عالماً أنهم بالنسبة للعقيدة الدينية كما يلي:

٢٤٢ منهم أعلنوا إيمانهم الكامل بالله.

٢٨ لم يصلوا إلى عقيدة.

٢٠ لم يهتموا بالتفكير الديني.

وهكذا نجد أغلبية ساحقة تزيد عن ٩٠% يعلنون إيمانهم بالله عن طريق أبحاثهم العلمية، ونجد من سواهم لا يزالون في تردد، أو لم يهتموا بالعقيدة الدينية في أبحاثهم، وأغلب الظن أن المترددين سيصلون يوماً، وأن الآخرين الذين لم يهدم العلم لساحة الله يعانون نقصاً، لو تخلصوا منه لو صلوا (١).

ويقول الدكتور وتز الكيماوي الفرنسي إذا أحسست في حين من الأحيان أن عقيدتي با قد تزعزعت وجهت وجهي إلى أكاديمية العلوم لتبنيها (٢).

فالفطرة البشرية والكون كله من حولنا شاهدان على وجود الله عز وجل: قال الشاعر:

تأمل في نبات الأرض وانظر	إلى آثار ما صنع المليك
عيون من لجين شاخصات	وازهار كما الذهب السبك
على قضب الزبرجد شهادات	بأن الله ليس له شريك

(١) انظر السيد سابق، العقائد الإسلامية، ص ٤٩.

(٢) المرجع السابق، ص ٥٠.

وقال آخر:

قل للطبيب تخطفتة يد الردى	يا شافي الأمراض من أرداكا؟
قل للمريض نجا وعوفي بعد ما	عجزت فنون الطب من عافاكا؟
قل للصحيح يموت لا من علة	من بالمنايا يا صحيح دهاكا؟!
قل للبصير وكان يحذر حفرة	فهوى بها من ذا الذي أهواكا؟!
بل سائل الأعمى خطا بين الزحام	بلا اصطدام من يقود خطاكا؟!
قل للجنين يعيش معزولاً بلا	راع ومرعى من الذي يرهاكا؟!
قل للوليد بكى واجهش بالبكا	عند الولادة ما الذى أبكاكا؟!
وإذا تري الثعبان ينفث سمه	فأسأله من ذا بالسموم حشاكا؟!
واسأله كيف تعيش يا ثعبان	أو تحيا وهذا السم يلاً فاكا؟!
واسأل بطون النحل كيف تقاطرت	شهداً وقل للشهد من حلاكا؟!
بل سائل اللبن المصفى كان بين	دم وفرث ما الذى صفاكا؟!

إن الدلالة على وجود الله (سبحانه) لا تحصن لكثرتها، فجميع ما في العالم شواهد ناطقة، وأدلة شاهده على وجود خالقها ومدبرها ومصرفها ومحركها.

وقد سئل أعرابي عن الدليل على وجود الله تعالى، فقال: البقرة تدل على البعير، والروثة تدل على الحمير، وآثار الأقدام تدل على المسير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج، أما تدل على الصانع العليم القدير؟!

فالإلحاد اعوجاج في الفطرة، وتسفيه للعقول، وتعال على الحق، ومن طرائف أجوبة الفطرة ما ذكر من أن معلماً وقف يقول لطلابه في الصف السادس الابتدائي:

أتروننى؟

قالوا: نعم.

قال: إذا أنا موجود.

ثم قال أترون اللوح؟

قالوا: نعم.

قال: فاللوح إذا موجود.

ثم قال: أترون الطاولة؟

قالوا: نعم.

قال: فالطاولة إذا موجودة.

ثم قال: أترون الله؟

قالوا: لا.

قال: فالله غير موجود.

فوقف أحد الطلاب الأذكىء، وقال: أترون عقل الأستاذ؟

قالوا: لا.

قال: فعقل الأستاذ إذا غير موجود!

قال الشاعر:

أم كيف يجحده الجاهد
وفى كل تسكينة شاهد
تدل على أنه واحد

فواعجبا كيف يعصى الإله
ولله فى كل تحريكة
وفى كل شىء له آية

وللإنسان أن يبحر بعقله في محيطات المعرفة المختلفة، وأن يفكر في الكون من حوله، وأن يتأمل مخلوقات الله (عز وجل) ويفكر في كيفية إبداعها. ولكن هناك منطقة محرمة لا ينبغي التفكير فيها، فما هي؟ ولماذا؟

هذه المنطقة هي ذات الله (عز وجل)، وسبب ذلك واضح وهو أن ذات الله (سبحانه) تتجاوز طاقة العقل البشرى.

والبشرية - الآن - تنعم بخير مئات العناصر دون أن تعرف ذواتها أو حقائقها، فهي تنعم بخير الكهرباء، وغيرها، دون أن تعرف كنه أو ذات هذه الأشياء، فهناك أشياء مادية كثيرة في الوجود لا يعرف العلم حتى الآن كنهها أو حقيقتها، فهل يستطيع معرفة كنه الذات الإلهية؟!

هل يعقل أن تكون ذات الله (عز وجل) أبسط من شيء مادي كالكهرباء مثلاً؟!

إن في ذات الإنسان المادية وهو المخلوق الضعيف مناطق مجهولة لا يعرف عنها شيء حتى الآن، حتى إن أحد الباحثين ألف كتاباً يتحدث فيه عن الإنسان ذلك المجهول. فهل يستطيع الإنسان الذي لم يعرف كنه نفسه أن يعرف كنه ربه؟!

قال الشاعر:

كيفية المرء ليس المرؤ يدركها	فكيف بكيفية الجبار ذى القدم؟!
هو الذى أنشأ الأشياء مُبتدعاً	فكيف يدركه مُستحدث النَّسم؟!

فذاات الله عز وجل أكبر من أن تدركها العقول، أو تحيط بها الأفكار، وقصور العقل وعجزه عن إدراك حقيقة الأشياء لا ينفي

وجودها، فعجزه عن إدراك حقيقة الكهرباء لا ينفي وجودها، وعجزه عن إدراك حقيقة الضوء لا ينفي وجوده، وعجزه عن إدراك كنه الذرة لا ينفي وجودها، وعجزه عن إدراك حقيقة نفسه لا ينفي وجودها، وهكذا سائر الأشياء التي يقصر العقل عن إدراك حقيقتها ويعجز عن معرفة كنهها.

ومثل ذلك الذات الإلهية إذا عجز الإنسان عن إدراك حقيقتها فليس معنى ذلك أنها غير موجوده، بل هي موجوده كأقوى ما يكون الوجود. وليس للإنسان أن يفكر فيها لأنها أكبر من تفكيره وأعلى من إدراكه.

فالخوض في ذات الله (سبحانه) هلاكٌ وضياحٌ، والعقل البشري مخلوق لا يبحث إلا في مخلوق مثله. فسبحانه الذي ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (١).

وإذا عرف المؤمن هذا الاسم العظيم، فماذا يجب عليه؟

علي المؤمن أن يعتز بالله، ولا يعتز بسواه، فكل ما حوله مخلوقات مثله، وخالقها ورازقها ومديرها الله، فالأمر كله لله فلماذا يعتز المؤمن بسواه؟!

وكم من بشر اعتزوا بأموالهم فما لبثت أن ضاعت تلك الأموال، وكم من بشر اعتزوا بسلطانهم فجاءت النهاية.

﴿ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَّةُ (٢٨) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةُ ﴾ (٢).

(١) سورة الشورى آية ١١.

(٢) سورة الحاقة آية ٢٩.

فالمؤمن لا يحتسمى ولا يعتز إلا بالله، ولا يتوكل إلا عليه (سبحانه)
﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ (١).

ومن دعاء النبي (ﷺ): «اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك
توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، اللهم أعوذ بعزتك لا إله إلا أنت
أن تضلني، أنت الحي الذي لا يموت، والأنس والجن يموتون» (٢).

والمؤمن مع هذه العزة لا يكون جباراً، ولا متكبراً ولا مغروراً،
وذلك لأنه يعلم أن ما عنده من متاع إنما هو ابتلاء وامتحان، ولذلك
فهو دائم الخوف من غضب ربه، هين لين مع إخوانه، شعاره:

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا
سَلَامًا﴾ (٣) فالمؤمن لا يحب ولا يعظم إلا الله (سبحانه) وإذا أحب غيره
محبة تكون لله وفي الله (عز وجل).

فمحبة الأنبياء والصالحين ما هي إلا أثر من آثار حب الله (عز وجل)
لأن محبوب المحبوب محبوب.

فالمحسوب الحقيقي المستحق للحب هو الله (عز وجل)، فهو الذي
خلقنا ورزقنا وأفاض علينا من كل النعم. فوجودنا، ودوام هذا الوجود
وكماله من الله (عز وجل).

فلا يتصور أن يحب العبد نفسه، ولا يحب ربه الذي به قوام هذه
النفس؟

(١) سورة الفرقان آية ٥٨.

(٢) رواه البخاري ١٦٧/٧.

(٣) سورة الفرقان آية ٦٣.

وقد جُبِلَ الإنسان علي حب من يحسن إليه ، ونعم الله (عز وجل) لا تنقطع عن الإنسان أبداً: ﴿ وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصَوْهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١).

وفى عرف البشر الإنسان حتى وإن لم يصله إحسان المحسن ، فهو مجبول على حب المحسن لذاته ، فما بالك إذا كانت نعم الله (سبحانه) لا تنقطع عن الإنسان ليل نهار؟!

وعلى المؤمن أن يخلص العبادة لله وحده ، فهو المستحق وحده لثن يعبد ، ولا يستحق ذلك في الوجود غيره لأن ما سواه مخلوق ، والمخلوق مساو له أو أقل منه . فكيف يعبد الإنسان مساويه ومن دونه؟!

والذين عبدوا الأشجار ضلوا ؛ لأنها نبات ، والنبات مسخر للإنسان .

والذين عبدوا الأصنام ضلوا ، لأنها مصنوعة من جماد والجماد أدنى من الإنسان ، بل مسخر للإنسان !

والذين عبدوا الحيوانات (كالهندوس) ضلوا ، لأن هذه الحيوانات مسخرة للإنسان !

والذين عبدوا البشر (كالنصارى ودعاة الموتى) ضلوا لأن هؤلاء بشر مثلنا ، وصاروا بعد موتهم ينتفعون بالأحياء ولا ينفعون الأحياء . قال رسول الله (ﷺ) : «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم يُنتفع به ، أو ولد صالح يدعو له» (٢).

(١) سورة النحل آية ١٨ .

(٢) رواه مسلم (٣/ ١٢٥٤) في الوصية .

والذين عبدوا الجن والملائكة ضلوا؛ لأنهم مخلوقات مثلنا وقد كرم الله (عز وجل) بنى آدم وفضلهم على الجن، وأمر الملائكة بالسجود لأبيهم آدم عندما خلقه .

فينبغي ألا نعبد إلا الله مخلصين له الدين ولو كره المشركون ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ (١) .

ولا ينسى المؤمن بعدما عرف هذا الاسم أن يعطيه حقه من الذكر، فقد أمر الله عباده المؤمنين أن يكثرُوا من ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ (٢) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿ (٣) .

وعن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (ﷺ) «لأن أقول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر أحب إلي مما طلعت عليه الشمس» (٤) .

اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك، ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا، ومتعنا بأسماعنا وأبصارنا وقواتنا ما أحييتنا، واجعله الوارث منا، واجعل ثأرنا على من ظلمنا، وانصرنا على من عادانا، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا، ولا تسلط علينا من لا يرحمنا (٥) .

اللهم إنا نسألك من خير ما سألك منه نبيك محمد (ﷺ) وأنت المستعان، وعليك التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله (٦) .

(١) سورة الزمر آية ١١ .

(٢) سورة الأحزاب آية (٤١-٤٢) .

(٣) رواه مسلم في صحيحه ٢٠٧٢/٤، كتاب الذكر والدعاء باب فضل التهليل والتسبيح .

(٤) رواه الترمذي والحاكم وصححه ووافقه الذهبي، وانظر صحيح الجامع ٤٠٠/١ .

(٥) رواه الترمذي ٥٣٧/٥، وابن ماجه ١٢٦٤/٢ بمعناه .

الإله الحق

٢ ٢

إله (فعال) بمعنى (مفعول) أى مألوه، ومعنى مألوه: معبود مستحق للعبادة يعبد الخلق ويؤلهونه (١).

ويبين شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - معنى اسم الإله أحسن بيان فيقول: و«الإله» هو المألوه أى المستحق لأنه يؤله أى يعبد. ولا يستحق أن يؤله ويعبد إلا الله وحده. وكل معبود سواه من لدن عرشه إلى قرار أرضه باطل، وفعال بمعنى مفعول مثل لفظ الركاب والجمال؛ بمعنى المركوب والمحمول... فهو الإله الحق لا إله غيره، فإذا عبده الإنسان فقد وحده ولم يجعل معه إلهاً آخر ولا اتخذ إلهاً غيره: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمَعْذُوبِينَ﴾ (٢)، وقال تعالى ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ (٣) وقال إبراهيم لأبيه آزر: ﴿اتَّخِذْ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (٤) فالمخلوق ليس بإله في نفسه، لكن عابده اتخذه إلهاً وجعله إلهاً وسماه إلهاً، وذلك كله باطل لا ينفع صاحبه بل يضره... فغير الله لا يصلح أن يتخذ إلهاً يعبد ويدعي، فإنه لا يخلق ولا يرزق، وهو سبحانه لا مانع لما أعطى، ولا معطى لما منع، ولا ينفع ذا الجدم منه الجدم... فغير الله لا مالك لشيء، ولا شريك في شيء، ولا معاون للرب في شيء؛ بل قد يكون له شفاعاة إن كان من الملائكة والأنبياء والصالحين ولكن لا تنفع الشفاعاة عنده إلا لمن أذن له، فلا بد أن يأذن للشافع أن يشفع، وأن يأذن

(١) الزجاجي، مرجع سابق ص ٢٤. (٢) الشعراء، آية: [١٢٣].

(٣) الإسراء، آية: [٢٢]. (٤) الأنعام، آية: [٧٤].

للمشفوع له أن يشفع له، ومن دونه لا يملكون الشفاعة البتة، فلا يصلح من سواه لأن يكون إلهاً معبوداً كما لا يصلح أن يكون خالقاً رازقاً، لا إله إلا هو وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير^(١).

وقد ورد هذا الاسم كثيراً في القرآن الكريم قال تعالى: ﴿وَالَهُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ۚ إِلَهُ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾^(٢).

﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾^(٣).

﴿فَالَهُكُمْ إِلَهُ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾^(٤).

والحق اسم من أسماء الله (عز وجل) الحسنى، فالله عز وجل هو الحق وكل معبود دونه باطل، والحق نقيض الباطل، ويقال: حق الشيء يحق حقاً: تأويله يجب وجوباً، فالله (عز وجل) حق وكل شيء من عنده، وكل ما عاد إليه حق، وكل ما أمر به ونهى عنه حق على العباد أمثاله أي واجب ذلك عليهم. فالله الحق أي هو الحق وما عبد من دونه باطل. والله عز وجل الحق أي ذو الحق في أمره ونهيه، ووعدته ووعيدته، وجميع ما أنزله على لسان رسله وأنبيائه^(٥).

فالله (عز وجل) هو الحق في ذاته وصفاته. فهو واجب الوجود، كامل الصفات والنعوت، وجوده من لوازم ذاته. ولا وجود لشيء من الأشياء إلا به. فهو الذي لم يزل، ولا يزال بالجلال والجمال والكمال موصوفاً. ولم يزل ولا يزال بالإحسان معروفاً. فقلوه حق، وفعله

(١) ابن تيمية، الفتاوى، م ١٣، ص ٢٠٢، ص ٢٠٥.

(٢) سورة البقرة آية ١٦٣.

(٣) سورة الأنعام آية ١٩.

(٤) سورة الحج آية ٣٤.

(٥) الزجاجي، مرجع سابق، ص ١٧٨.

حق، ولقاؤه حق، ورسله حق، وكتبه حق، ودينه حق، وعبادته وحده لا شريك له هي الحق وكل شيء ينسب إليه فهو حق (١).

فإن الله عز وجل هو الموجود الحق، الإله الحق، المعبود الحق، الذي يحقق الحق بكلماته. ويحكم بين خلقه بالحق، ويوجد الأشياء بالحق بحسب مقتضى الحكمة. فاسم الحق يقع على ذات الله تعالى وعلى صفاته وأفعاله.

قال الراغب الأصفهاني. أصل الحق المطابقة والموافقة ويقال على أوجه: الأول: يقال لموجد الشيء بسبب ما تقتضيه الحكمة ولهذا قيل في الله تعالى هو الحق، قال الله تعالى ﴿ثُمَّ رَدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقِّ﴾ (٢). الثاني: يقال للموجد بحسب مقتضى الحكمة ولهذا يقال: فعل الله تعالى كله حق.

قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ (٣) إلى قوله تعالى: ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ (٤).

الثالث: في الاعتقاد للشيء المطابق لما عليه ذلك الشيء في نفسه كقولنا اعتقاد فلان في البعث والثواب والعقاب والجنة والنار حق.

الرابع: للفعل والقول الواقع بحسب ما يجب ويقدر ما يجب وفي الوقت الذي يجب. كقولنا فعلك حق، وقولك حق، قال الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ (٥) و﴿حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ حَقُّ الْقَوْلِ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ (٦). وقوله (عز وجل): ﴿وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ﴾ (٧) يصح أن يكون المراد به الله تعالى، ويصح أن يراد به الحكم الذي هو بحسب مقتضى الحكمة. ويقال: أحققت كذا أي أثبتته حقاً أو

(١) عبد الرحمن السعدى، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص ٦٣٢/٦٣١.

(٢) سورة الأنعام، آية ٦٢ (٣) سورة يونس، آية ٣٣

(٤) سورة يونس، آية: ٥ (٥) سورة يونس، آية: ١٣

(٦) سورة السجدة، آية: ١٣ (٧) سورة المؤمن، آية: ٧١

حكمت بكونه حقاً، وقوله تعالى: ﴿لِيُحَقِّقَ الْحَقَّ﴾ (١) فأحقاقه الحق على ضربين: أحدهما بإظهار الأدلة والآيات، والثاني: بإكمال الشريعة وبثها في الكافة كقوله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ (٢).

وقد ورد اسم (الحق) في القرآن الكريم كثيراً، قال تعالى:

﴿وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقَّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (٣).

﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ (٤).

﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ (٥).

والإله هو الجامع لجميع صفات الكمال ونعوت الجلال، فيدخل في هذا الاسم جميع الأسماء الحسنى، ولهذا كان القول الصحيح أن الله أصله الإله، وأن اسم الله تعالى هو الجامع لجميع معاني الأسماء الحسنى والصفات العلى (٦).

وإذا كان وحده (سبحانه وتعالى) هو ربنا وملكنا وإلهنا فلا مفرع لنا في الشدائد سواه، ولا ملجأ لنا منه إلا إليه ولا معبود لنا غيره فلا ينبغي أن يدعى ولا يخاف ولا يرجى ولا يحب سواه ولا يذل غيره ولا يخضع إلا له ولا يتوكل إلا عليه... فهو معبودنا وإلهنا الذي لا نستغنى عنه طرفة عين بل حاجتنا إليه أعظم من حاجتنا إلى حياتنا وروحنا. فهو كافينا وحسبنا وناصرنا ومتولي أمورنا.

(١) سورة الأنفال، آية: ٨

(١) الراغب الأصفهاني، مرجع سابق، ص ١٢٥.

(٢) سورة يونس آية ٥.

(٣) سورة المؤمنون آية ١١٦.

(٤) سورة النور آية ٥.

(٥) ابن القيم الجوزية، بدائع الفوائد، ج ٢، ص ٢٤٩.

فالإنسان بل وجميع المخلوقات عباد الله تعالى فقراء إليه محالين له ، وهو ربهم ومليكهم وإلههم ، لا إله إلا هو فالمخلوق ليس له من نفسه شيء أصلاً : بل نفسه وصفاته وأفعاله وما ينتفع به أو يستحقه وغير ذلك إنما هو من خلق الله . والله (عز وجل) رب ذلك كله ومليكه ، وبارئه ، وخالقه ، ومصوره . . . فكل مخلوق فقير محتاج إلى الله عز وجل وليس فقيراً إلى سواه ، فإن ذلك الغير فقير أيضاً محتاج إلى الله واستغاثة المخلوق بالمخلوق كاستغاثة العدم بالعدم ؛ فإن المستغاث به إن لم يخلق الحق فيه قوةً وحولاً وإلا فليس له من نفسه شيء . قال سبحانه : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ (١) وقال تعالى : ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى ﴾ (٢) وقال تعالى ﴿ وَمَا هُمْ بِضَارِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ (٣) وأيضاً . فالعبد يفتقر إلى الله من جهة أنه معبوده الذي يحبه حب إجلال وتعظيم ، فهو غاية مطلوبة ، ومراده ، ومنتهى همته ، ولا صلاح له إلا بهذا .

وأصل الحركات الحب والذئ يستحق المحبة لذاته هو الله ، فكل من أحب مع الله شيئاً فهو مشرك ، وحبه فساد ، وإنما الحب الصالح النافع حب الله والحب لله (٤) .

فالعبيد لا يستغنون عن الله (عز وجل) أبداً ، وفي كل حال ومن كل وجه .

فالله (عز وجل) هو الغنى وكل ما سواه إليه فقير ، كما قال ابن تيمه (رحمه الله) .

والفقر لى وصف ذات لازم أبداً كما الغنى أبداً وصف له ذاتى

(١) ابن تيمية ، مرجع سابق ، مجلد ١٤ ، ص ١٥ ، ص ٣١ .

(٢) سورة البقرة ، آية : ٢٥٥

(٣) سورة الانبياء ، آية : ٢٨ (٤) سورة البقرة ، آية : ١٠٢

وكلما صح الافتقار إلى الله (عز وجل) صح الاستغناء به عن كل ما سواه. لأن كل ما سواه فقير، وهو الغنى الحميد (سبحانه وتعالى).

قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ (١).

﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ (٢).

فالكرب إذا اشتد ويأس العبد من المخلوقين وتعلق قلبه بالله (عز وجل) وحده وصح افتقاره إليه كفاه الله (عز وجل) وكشف كربيه وأنجاه.

يذكر الحازمي في كتاب الفرج بعد الشدة: أن سلطان صقلية أرق ذات ليلة ومنع النوم، فأرسل إلى قائد البحر وقال له: انفذ الآن مركباً إلى إفريقيا يأتونني بأخبارها، فعمد القائد إلى مقدم مركب وأرسله فلما أصبحوا إذ بالمركب في موضعه كأنه لم يبرح، فقال الملك لقائد البحر: أليس قد فعلت ما أمرتك به؟ قال: نعم وأنفذت المركب فرجع بعد ساعة، وسيجيئك مقدم المركب. فأمر بإحضاره فجاء ومعه رجل فقال له الملك: ما منعك أن تذهب حيث أمرت؟ قال: ذهبت بالمركب، فبينما أنا في جوف الليل، والرجال يجدفون إذا بصوت يقول يا الله، يا غياث المستغيثين يكررها مراراً، فلما استقر صوته في أسماعنا نادينا مراراً. لبيك لبيك وهو ينادي يا الله يا غياث المستغيثين، فجدفنا بالمركب نحو الصوت فلقينا هذا الرجل غريقاً في آخر رمق من الحياة فطلعنا به المركب فسألناه عن حاله، فقال: كنا مقلعين من إفريقيا فغرقت سفيتنا منذ أيام وأشرفت علي الموت، وما زلت أصيح حتى أتااني الغوث من ناحيتكم، فسبحان من أسهر سلطاناً، وأرقه في قصره

(١) سورة الفرقان آية ٥٨.

(٢) سورة الطلاق آية ٣.

لغريق في البحر حتى استخرجه من ظلمات ثلاث: ظلمه الليل، وظلمة البحر، وظلمة الوحده. فسبحانه لا إله غيره ولا معبود سواه (١).

فالله عز وجل هو الإله الحق، وكل ما يدعى من دونه باطل، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ﴾ (٢). ودينه هو الدين الحق: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ﴾ (٣).

وكتابه حق: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ (٤)، ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ (٥)، يهدي إلى الحق، ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أَنْزَلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ (٦)، ولقاؤه حق: ﴿وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقَّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ ووعدته حق ﴿وَكَذَلِكَ أَتُذَكِّرُنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ (٧)، وحكمه حق: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ (٨)، وخلق السموات والأرض وما بينهما بالحق ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ (٩)، والموت حق: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ (١٠).

والبعث حق: ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾ (١١)، والجنة حق والنار حق: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾ (١٢).

(١) إبراهيم الخازمي، الفرج بعد الشدة والضيقة، ح ٤، ص ٧٦.

(٢) سورة لقمان آية ٣٠. (٣) سورة التوبة آية ٣٣.

(٤) سورة البقرة آية ١٧٦. (٥) سورة الإسراء آية ١٠٥.

(٦) سورة الأحقاف آية ٣٠. (٧) سورة الكهف آية ٢١.

(٨) سورة سبأ آية ٢٦. (٩) سورة الروم آية ٨.

(١٠) سورة ق آية ١٩. (١١) سورة ق آية ٤٢.

(١٢) سورة الأنعام آية ٣٠.

ومن دعاء النبي (ﷺ) إذا انتبه بالليل : «اللهم لك الحمد، أنت نور السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت قيم السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد، أنت الحق، ووعدك الحق، ولقاؤك حق، والجنة حق، والنار حق، والنبيون حق، ومحمد حق، والساعة حق، اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لى ما قدمت، وما أخرت، وما أسررت، وما أعلنت، أنت إلهى، لا إله إلا أنت» (١).

وإذا كان الله عز وجل هو الإله الحق فينبغي أن تكون أعمال العباد كلها خالصة له، فأعمالهم كلها لله، وأقوالهم لله، وعطاؤهم لله، ومنعهم لله، وحبهم لله، وبغضهم لله، فمعاملتهم ظاهراً وباطناً لوجه الله وحده. لا يريدون بذلك من الناس جزاء ولا شكوراً، ولا ابتغاء الجاه عندهم، ولا طلب المحمدة، والمنزلة في قلوبهم، ولا هرباً من ذمهم. بل قد عدو الناس بمنزلة أصحاب القبور، لا يملكون لهم ضرراً ولا نفعاً، ولا موتاً، ولا حياة ولا نشوراً. فالعمل لأجل الناس، وابتغاء الجاه والمنزلة عندهم، ورجاؤهم للضر والنفع منهم لا يكون من عارف بهم ألبيته، بل من جاهل بشأنهم، وجاهل بربه، فمن عرف الناس أنزلهم منازلهم. ومن عرف الله أخلص له أعماله وأقواله، وعطاءه ومنعه وحيه وبغضه» (٢).

ومن عرف أن الله (عز وجل) هو الإله الحق أمره حق، ودينه حق، وشرعه حق. كانت أعماله كلها وعبادته موافقه لأمر الحق (سبحانه).

(١) أخرجه البخارى في الدعوات وفي التهجد وفي التوحيد ومسلم في صلاة المسافرين (٧٦٩) وغيرهما.

(٢) ابن القيم الجوزية، مدارج السالكين، ج ١، ص ٨٣.

ولما يحبه ويرضاه . فينبغي أن يخلص العبد لله (عز وجل) وأن يقتدى بالرسول (ﷺ) فالعمل الصالح المقبول عند الله عز وجل هو العمل الخالص الصواب : أي الخالص لله (عز وجل) من الشرك والرياء والسمعة . والصواب ما كان على السنة أي المتابعة لرسول الله (ﷺ) ، قال تعالى : ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ (١) .

والله (عز وجل) خلق العباد لعبادته الجامعه لكمال محبته ، مع الخضوع له والانقياد لأمره . فهو سبحانه وتعالى الإله الحق ، وكل إله سواه باطل ، بل أبطل الباطل ، وحقيقة الألوهية لا تنبغي إلا لله ، والعبادة موجب إلهيته وأثرها ومقتضاها ، وارتباطها بها كارتباط متعلق الصفات بالصفات وكارتباط المعلوم بالعلم ، والمقدور بالقدره ، والأصوات بالسمع ، والإحسان بالرحمة ، والعطاء بالجود (٢) .

فأصل عبادة الله محبته ، بل إفراده بالمحبة ، ولا يحب معه سواه ، وإنما يحب لأجله وفيه ، كما يحب أنبياءه ورسله وملائكته وأوليائه ، فمحبة هؤلاء من تمام محبة الله (عز وجل) ، وليست محبة معه ، كمحبة من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحبه .

وتتحقق المحبة باتباع أمره واجتناب نهيه ولذلك جعل الحق سبحانه وتعالى اتباع رسوله علماً على محبته . قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ (٣) ، فبدون متابعة الرسول لا تثبت لهم محبة الله (عز وجل) ، ولا يحبهم الله .

(١) سورة الكهف آية : ١١٠ .

(٢) ابن قيم الجوزية ، المرجع السابق ، ص ٩٧ .

(٣) سورة آل عمران آية : ٣١ .

ولا بد أن يكون الله ورسوله أحبَّ إلى العبد مما سواه ما حتى تستقيم عبوديته لله عز وجل ، يقول ابن القيم : « فلا يكون عنده شيء أحبَّ إليه من الله ورسوله ، ومتى كان عنده شيء أحبَّ إليه منهما فهذا هو الشرك الذي لا يغفر الله لصاحبه ألَّبه ، ولا يهديه الله . قال الله تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبُّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ (١) . فكل من قدَّم طاعة أحدٍ من هؤلاء على طاعة الله ورسوله ، أو قول أحد منهم على قول الله ورسوله ، أو مرضاة الله ورسوله ، أو خوف أحد منهم ورجاءه والتوكل عليه على خوف الله ورجائه والتوكل عليه ، أو معاملة أحدهم على معاملة أ : فهو عن ليس الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواه ما وإن قال بلسانه فهو كذب منه ، وإخبار بخلاف ما هو عليه . وكذلك من قدَّم حكم أحدٍ على حكم الله ورسوله . فذلك المقدم عنده أحبَّ إليه من الله ورسوله (٢) .

والله عز وجل هو الإله الحق ومن ثمَّ ينبغي ألا يتخذ غيره معبوداً فهو الإله الواحد الحق ، وأصح القلوب وأسلمها من اتخذه وحده إلهاً معبوداً فيكون أحبَّ إليه من كل ما سواه وأخوف عنده من كل ما سواه ، وأرجى عنده من كل ما سواه فتتقدم محبته في قلبه جميع المحاب ، ويتقدم خوفه في قلبه جميع المخوفات ، ويتقدم رجاءه في قلبه جميع الرجاء .

(١) سورة التوبة آية : ٢٤ .

(٢) ابن القيم الجوزية ، المرجع السابق ، ص ١٠٠ .

قال ابن القيم (رحمه الله) :

والشرك فاحذره، فشرك ظاهرُ ذا القسم ليس يقابل الغفران
وهو اتخاذ الند للرحمن أيا كان من حجر ومن إنسان
يدعوه أو يرجوه، ثم يخافه ويحبه كمحبة الديان

فاتخاذ العبد لله نداً يحبه كمحبة الله، أو يرجوه أو يخافه كخوفه من الله، مناقض للتوحيد وهو شرك أكبر مخرج عن دائرة الإسلام لا يقبل الغفران. فالعبودية لله وحده ولا حق لأحد فيها سواه، سواء أكان ملكاً أم نبياً أو ولياً أم شجراً أم حجراً، فكل هذه مخلوقات مفتقرة غاية الافتقار إلى من خلقها وبرأها.

والتوحيد الحق أن يعلم العبد ويعترف على وجه العلم واليقين أن الله هو المألوه وحده، المعبود على الحقيقة، وأن صفات الإلهية ومعانيها ليست موجودة بأحد من المخلوقات، ولا يستحقها إلا الله تعالى. فإذا عرف ذلك واعترف به حقاً أفردته بالعبادة كلها الظاهرة والباطنة. . . وكمال هذا التوحيد وقوامه بثلاثة أشياء :

أولها: توحيد الإخلاص لله وحده فلا يكون للعبد مراد غير مراد واحد وهو العمل لله وحده.

وثانيها: توحيد الصدق وهو توحد إرادة العبد في إرادته وقوة إنابته لربه وكمال عبوديته.

وثالثها: توحيد الطريق وهو المتابعة.

فمتى اجتمعت هذه الثلاثة نال العبد كل كمال وسعادة وفلاح^(١).

(١) عبد الرحمن السعدى، الحق الواضح المبين، ص ١١٣.

قال ابن القيم (رحمه الله) :

إن كان ربك واحداً سبحانه	فاخصمه بالتوحيد مع إحسان
أو كان ربك واحداً أنشاك لم	يشركه إذ أنشاك رب ثان
فكذلك أيضاً وحده فاعبده لا	تعبد سواه يا أخا العرفان
والصدق توحيد الإرادة وهو بذ	ل الجهد لا كسلاً ولا متوان
والسنة المثلى لسالكها فتو	حيد الطريق الأعظم السلطاني
فلو احدي كن واحداً في واحد	أعنى سبيل الحق والإيمان
هذي ثلاث مسعدات للذي	قد نالها والفضل للمنان
فإذا هي اجتمعت لنفس حرة	بلغت من العلياء كل مكان

«اللهم رحمتك أرجو فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين، وأصلح لي شأن كله لا إله إلا أنت» (١).

«اللهم لك الحمد، أنت نور السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت قيم السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد، أنت الحق، ولقاؤك حق؛ والجنة حق، والنار حق، والنيون حق، ومحمد حق، والساعة حق، اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدمت، وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، أنت إلهي، لا إله إلا أنت» (٢).

(١) رواه البخاري ومسلم ٢٠٩٢/٤.

(٢) أخرجه البخاري في الدعوات وفي التوحيد وفي التهجد ومسلم في صلاة المسافرين (٧٦٩) وغيرهما.

الواحد الأحد الوتر

٦ ٥ ٤

الواحد: الفرد الأول الذي لا نظير له ولا مثل كقولهم فلان واحد قومه في الشرف أو الكرم أو الشجاعة وما أشبه ذلك . أي لا نظير له في ذلك ولا مساجل^(١).

فالواحد هو الفرد الذي لم يزل وحده، ولم يكن معه آخر، وهو الفرد المتفرد في ذاته وصفاته وأفعاله وألوهيته، فهو واحد في ذاته لا يتجزأ أو لا يتفرق، أحد صمد لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد . وهو واحد في صفاته لا شبيه له على الوجه اللائق به من غير أن يماثله أحد فيما يختص به وهو واحد في أفعاله لا شريك له . واحد في ألوهيته لا معبود حق إلا هو^(٢) وقد ورد اسم الله «الواحد» في القرآن الكريم في أكثر من عشرين موضعاً، اقترن في ستة منها بالقهار.

قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾^(٣).

﴿لَمَنْ الْمَلِكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارُ﴾^(٤).

﴿وَالَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾^(٥).

﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾^(٦).

والأحد هو الذي تفرد بكل كمال ومجد وجلال وجمال وحمد

(١) الزجاجي، مرجع سابق، ص ٩٠.

(٢) محمد بن صالح العثيمين، تقريب التدمرية، ص ١٣٨.

(٣) سورة الرعد آية: ١٦. (٤) سورة غافر آية: ١٦.

(٥) سورة البقرة آية ١٦٣. (٦) سورة الأنعام آية ١٩.

وحكمة ورحمة وغيرها من صفات الكمال، فليس له فيها مثيل ولا نظير ولا مناسب بوجه من الوجوه، فهو الأحد في حياته وقيوميته، وعلمه وقدرته، وعظمته وجلاله، وجماله وحمده، وحكمته ورحمته، وغيرها^(١)، من صفاته، موصوف بغاية الكمال ونهايته، من كل صفة من هذه الصفات.

وقد ورد اسم الأحد مرة واحدة في القرآن الكريم: في سورة الإخلاص ﴿قل هو الله أحد﴾ ويفرق العلماء بين الواحد والأحد من وجوه:

الأول: أن الواحد اسم لمفتتح العدد، فيقال: واحد واثنان وثلاثة. أما أحد فينقطع معه العدد فلا يقال: أحد اثنان ثلاثة.

الثاني: أن أحداً في النفي أعم من الواحد. يقال: ما في الدار واحد، ويجوز أن يكون هناك اثنان أو ثلاثة أو أكثر. أما لو قال: ما في الدار أحد فهو نفي وجود الجنس بالمره، فليس فيها أحد ولا اثنان ولا ثلاثة ولا أكثر ولا أقل.

الثالث: لفظ الواحد يمكن جعله وصفاً لأي شيء أريد، فيصح القول: رجل واحد، وثوب واحد، ولا يصح وصف شيء في جانب الإثبات بأحد إلا الله الأحد: «قل هو الله أحد» فلا يقال: رجل أحد ولا ثوب أحد فكأن الله عز وجل استأثر بهذا النعت.

فالله سبحانه وتعالى واحد أحد تناهى في سؤده لا شريك له، ولا عديد، ولا شبيه له، ولا نظير^(٢).

(١) انظر: سعيد القحطاني، شرح أسماء الله الحسنى، ص ١٦٧.

(٢) انظر، ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ٤، ص ٥٧٠.

والوتر: خلاف الشفع، والشفع يشمل جميع المخلوقات من حيث أنها مركبات، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجِينَ﴾ والوتر هو الله عز وجل من حيث أن له الوحدة من كل وجه (١).

فالوتر من أسماء الله الحسنى أي الواحد الفرد جلّ جلاله .
وقد جاء في الحديث النبوي الشريف « لله تسعة وتسعون اسماً مائة إلا واحداً لا يحفظها أحد إلا دخل الجنة، وهو وتر يحب الوتر » (٢).

وقد سلك القرآن الكريم عدة مسالك لإثبات التوحيد، منها:
أولاً: إقامة الحجة بالإقرار وقد كان المشركون يقرون بتوحيد الربوبية، فهم يقرون بأن ربهم هو الخالق الرازق مدبر الأمور ومصرفها، يعطي ويمنع، ويخفض ويرفع، ويعز ويذل، ويحيي ويميت، وهو على كل شيء قدير.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ (٣)، ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَيُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ (٤).

ولكنهم لم يستفيدوا من هذا الإقرار في توحيد الله بالعبادة، وإخلاصها له (سبحانه وتعالى) بل اتخذوا معه وسائط؛ وزعموا أنها شفعاء وأنها تقربهم إلى الله زلفى. فتوحيده الربوبية الذي أقرببه المشركون حجة عليهم في إنكارهم توحيد الله بالعبادة لأنه يستلزمه،

(١) الراغب الأصفهاني، مرجع سابق، ص ٢٦٣.

(٢) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب لله مائة اسم إلا واحدة، ومسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء، باب في أسماء الله الحسنى وفضل من أحصاها.

(٣) سورة الزخرف آية ٨٧.

(٤) سورة يونس آية ٣١.

ويدل عليه ويوجهه فلهذا أقام الله الحجة عليهم بهذا الإقرار فقال : ﴿قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ وفي آيات أخرى ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ فمن تدبر هذا الأمر الذي أقروا به ، استفاد لو عقل أن هذا المتصف بهذه الصفات هو المستحق لأن يُعبد ، ما دام هو الخلاق ، وهو الرزاق ، وهو المحيي ، وهو المميت وهو المعطي ، وهو المانع ، وهو المدبر للأمور ، وهو العالم بكل شيء ، والقادر على كل شيء ، فكيف تصرف العبادة لغيره ؟ !! بل كيف يرجى غيره ، ويخاف غيره لو عقل أولئك الكافرون !! (١) .

ثانياً : الاستدلال العقلي : ومن أمثلة ذلك في القرآن الكريم قوله تعالى : ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ (٢) .

وهذا شيء معلوم معروف بأدنى تفكير فوجود ملكين في مدينة واحدة - مثلاً - يفسدها فكيف بالآلوهية . فوجود أكثر من إله يستحيل عقلاً فيما أن يعملوا ويخلقوا معاً وهذا مستحيل ، وإما أن يعمل بعضهم ويتعطل البعض وهذا أيضاً مستحيل ، لأن المتعطل لا يستحق الآلوهية . فعدم فساد العالم دليل على أنه ليس هناك إلا إله واحد لا شريك له .

وقال تعالى : ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لُذِّبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ (٣) .

قال ابن كثير (رحمه الله) . ينزه الله تعالى نفسه عن أن يكون له ولد أو شريك في الملك والتصرف والعبادة . فلو قدر تعدد الآلهية لا نفرذ كل منهم بما خلق فما كان ينتظم الوجود ، والمشاهد أن الوجود منتظم منسق كل من العالم العلوي والسفلي مرتبطط بعضه ببعض في غاية

(١) عبد العزيز بن باز ، مجموع فتاوى ومقالات متنوعة ، ج ١ ، ص ٣٦ .

(٢) سورة الأنبياء آية ٢٣ .

(٣) سورة المؤمنون آية ٩١ .

الكمال ﴿مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَافُوتٍ﴾ ثم لكان كل منهم يطلب قهر الآخر وخلافه فيعملو بعضهم على بعض (١).

ولذلك تحداهم القرآن الكريم أن يأتوا بدليل على التعدد قال تعالى : ﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مِّن مَّعِيَ وَذِكْرٌ مِّن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ (٢).

فلا يوجد دليل عقلي واحد يبرهن على قضية التعدد .

فالله عز وجل واحد لا شريك له ، وهذا شيء جللى واضح ساطع البرهان ، وتوحيده (سبحانه وتعالى) نعمة كبرى يحمد عليها سبحانه .

قال تعالى : ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٣).

فأيهما أفضل المملوك الذي اشترك فيه شركاء بينهم اختلاف وتنازع ، يتجاذبونه في خدمتهم ، وهو مشئت حائر بينهم ، كلما أرضى أحدهم أغضب الآخرين ، وإذا احتاج إليهم لا ينفعونه وإنما يكله كل منهم إلى الآخر ، فهو في تعب دائم وعذاب مقيم : أم الرجل الذي له مخدوم واحد وسيد واحد على سبيل الإخلاص ، وذلك المخدوم يعينه على مهماته ولذلك فهو في راحة وسعادة . فالحمد لله إنه إله واحد ، ليس معه شريك .

﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الدُّلِّ وَكَبِيرُهُ تَكْبِيرًا﴾ (٤) .

(١) ابن كثير ، مرجع سابق ، ج ٣ ، ص ٢٥٤ .

(٢) سورة الانبياء آية : ٢٤ . (٣) سورة الزمر آية : ٢٩ .

(٤) سورة الإسراء آية : ١١١ .

يقول حسن هويدى : « والتوحيد معروف بالبداهة وإذا أردنا أن نبرهنه ، نقول يمكننا أن نختصر القول بالتعدد إلى التثنية فإذا صحت التثنية صح التعدد من غير حصر ، وإن بطلت بطل التعدد ولزم التوحيد ، ففي وجود اثنين يترتب على أحدهما أن يحيط بالثاني قدرة وعلماً . فإن عجز عن ذلك فهو ليس بإله فيبقى واحداً ، وإن قدر على ذلك سقطت ألوهية الثاني وبقي واحداً^(١) .

[illegible]

والكون كله من حولنا دليل ساطع على وحدانية الله تعالى (٣).

(٦) سورة النمل، آية (٥٩ - ٦٤).

(۳) استعین فی کتابہ بعض فقرات هذا الجزء بما كتبه جمال الدين عطيه في كتابه «وحدانيہ» دلائلها من العلم الحديث» مع اختصار وتصرف.

(١) فالكون كله من حيث الشكل وحدة واحدة، فالشمس والكواكب التي تدور حولها تؤلف وحدة واحدة تحيط بها هاله من المذنبات وهذه الوحدة الشمسية عضو في سحابة من النجوم، وهذه السحابة النجومية عضو في مجموعة من السحب النجومية تسمى المجرة، وتحيط بها هالة من التجمعات الكروية المتألقة كما يحيط الإطار بالصورة فتجعلها وحدة واحدة، وهذه المجرة عضو في مجموعة من المجرات تؤلف ما يعرف بـ «فوق المجرة» وهكذا ينتظم الكون كله في وحدة واحدة تجمع أطرافه، وهذه الوحدة الشكلية للكون توحى بدورها بأن مالك الكون وخالقه إنما هو إله واحد، لأنه لو كان في الكون آلهة إلا الله لذهب كل إله بما خلق، ولانفصلت مخلوقات كل إله على حده.

وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لُذِّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ (١).

(٢) الأجرام السماوية المرئية كلها تتصف بصفة مشتركة لا يحد عنها كويكب صغير ولا نجم عملاق، ألا وهي صفة الحركة. * فالقمر يدور حول الأرض وكذلك سائر الأقمار، كل يدور حول كوكبه.

* والكواكب السيارة والمذنبات تدور في أفلاكها - وهو وما يتبعها من أقمار - حول الشمس.

* والشمس وسائر النجوم في مجرتنا تدور حول مركز المجرة، هي وما يتبعها من كواكب وأقمار.

* وكل جرم يدور حول نفسه بالإضافة إلى حركته حول الجرم الذي يتبعه أو حول مركز المجرة .

* ثم إن حركة الأجرام السماوية جميعاً تكون دائماً من الغرب إلى الشرق أي في اتجاه مضاد لحركة عقارب الساعة .

* والعجيب أن صفة الحركة المزدوجة هذه نجدها في أصغر الأشياء - وهي الإلكترونيات - كما نجدها في أكبر الأشياء - وهي الأجرام السماوية ، فالإلكترونات تدور حول نفسها بالإضافة إلى حركتها حول نواة الذرة .

* فالحركة المزدوجة في الجميع ، ثم الاتجاه الواحد من الغرب إلى الشرق من دلائل وحدانية الخالق ؛ لأنه لو كان فيهما آلهة إلا الله لكان للآلهة الأخرى أسلوب مختلف في الخلق . فالأسلوب الواحد في الخلق دليل على الإله الواحد الحق .

ولو تعددت الآلهة لتعددت أنظمة الحركة ولاصطدمت بعضها ببعض في أثناء حركاتها المتعددة .

قال تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ (١) .

(٣) تتحد الكائنات الحية والجسمادات في الوحدة البنائية الأولى لكل منهم . فالأساس التركيبي للكائنات الحية والجسمادات هو الذرة .

فكل شئ على الأرض يمكن أن يُحلَّل إلى ذرات ، فالإنسان - وهو أرقى هذه المخلوقات - يتكون جسمه من ذرات .

فالخلية وهي اللبنة الأولى في جسمه تتكون من ذرات . . وكذلك

الجمادات كالصخور والماء والهواء يمكن تحليلها إلى ذرات .

والتركيب الداخلى للذرات في هذه الكائنات متشابه ، فذرات العناصر جميعاً يتوسطها نواة صغيرة فى الحجم بالنسبة لحجم الذرة ، ولكنها كبيرة جداً فى الوزن ، يحيط بها فراغ كبير ، تدور فيه جسيمات ذات شحنات سالبة تسمى الإلكترونيات ، وعددها مساو للشحنات الموجبة أو للبروتونات التى تحتويها الذرة بحيث تتعادل النواة كهرياً . كما أنها تدور بسرعة عظيمة موزعة على طبقات . أو مستويات بعضها فوق بعض كأنما الذرة بصلة قشورها من فراغ . فوحده التكوين في الكائنات الحية والجمادات واحدة وهى الذرة .

ونلاحظ وحدة التصميم والتكوين أيضاً في اشتمال الخلايا والذرات على نوى ، فللخلية نواة يحيط بها البروتوبلازم ، وللذرة نواة تدور حولها إلكترونات .

* وإذا نظرنا إلى الخلية كوحدة بناء لكل كائن حتى وجدنا التقارب الكبير في خواص الأجزاء الرئيسية للخلايا ، فهناك فرق ضئيل جداً من ناحية خواص الأقسام الرئيسية بين خلية عشب وخلية حشرة بين خلية جناح فراشة وبين خلية دماغ حيوان ، وبعد اكتشاف جزئيات D. N. A ، وإجراء التجارب العديدة والدقيقة عليها ، تبين لنا أن جميع الخلايا تستند على هذه الجزئيات المدهشة التى تطلق عليها اسم D. N. A . ففى نظم هذه الجزئيات وفى شفراتها الوراثية وخواصها الحيوية لا نجد فرقا يذكر من حيث وحدات البناء بين أبسط خلية في عشب وبين ما يطلقون عليه اسم الخلية المعقدة والفرق بين هذه الخلايا هو الفرق فى البرمجة الرياضية الموجودة فيها . وما عدا ذلك فبالخلايا مخلوقة بنفس الدقة وبنفس الروعة ، فالوحدات البنائية الأساسية واحدة فى كل الخلايا (١) .

(١) خلوفى نورباقى ، الإنسان ومعجزة الحياة ، ص ٢٦ .

فنحن إذن أمام أسلوب واحد لخالق واحد انفرد بخلق الكائنات جميعاً، ولو تعددت الآلهة لتعددت أساليب الخلق. ﴿وَالَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ (١).

(٤) الكائنات الحية من نبات وحيوان وإنسان تقوم حياتها على أسس أربعة لا يشذ عنها الصغير أو الكبير أو البسيط أو المعقد، فهي أسس واحدة نوجزها فيما يلي:

* حصول الكائن الحي على ما يلزمه من غذاء، وتحويله إلى صورة صالحة للانتفاع به.

* توليد الطاقة الحرارية اللازمة لقيام خلايا الجسم وأجهزة وأعضائه المختلفة بوظائفها الحيوية، ولتثبيت درجة حرارة الجسم والتعويض عما يفقده من حرارة، وهذا التوليد هو المسمى بالتنفس، وهو عملية هدم أو تحليل للمواد الغذائية تكسر الروابط الكيماوية الموجودة بين وحداتها، فبسببه تنطلق الطاقة.

* بناء الجسم بتكوين الخلايا والأنسجة الجديدة التي يستخدمها الكائن الحي في النمو، أو يستعيض بها عن الأنسجة التالفة، وهذه العملية البنائية تتم باستخدام المواد الغذائية والطاقة الحرارية المتولدة من هدم الغذاء.

* التخلص من الفضلات الضارة، أو غير الضرورية بإخراجها من الجسم، فهذا أساس رابع للحياة؛ لتخليص الجسم مما يضره، ولكي لا تختل نسب المواد الموجودة في الجسم وتتغير حالة اتزانه بسبب تراكم المواد غير العضوية.

وهذه الأسس الواحدة تدل على أن الخالق واحد، ولو تعددت الآلهة لتعددت الأسس وصار لكل إله أسس لمخلوقاته يختلف بها عن غيره.

فليس هناك إلا إله واحد له طريقته الواحدة، ونظامه الواحد. فسبحان الواحد الأحد الذي لا شريك له!

(٥) إذا تأملنا في الكون المحيط بنا، ونظرنا إليه نظرة شاملة وجدنا أنه قد خلق بإرادة واحدة لا بإرادتين، وربطت أجزائه حكمة خالق واحد، ففتحه البواب في المعدة مرتبطة بالمعدة، والمعدة مرتبطة بالجهاز الهضمي، والجهاز الهضمي مرتبط بالجهاز الدموي (الدوري) والجهاز الدوري مرتبط بالجهاز التنفسي، والجهاز التنفسي مرتبط بالجهاز العضلي، والعضلات مرتبطة بالعظام، والعظام مرتبطة بالجسم بأكمله، وهكذا لا قيمة لأى جزء في الإنسان إلا بإرتباطه بباقي الأجزاء. . . والإنسان مرتبط بالأرض وما فيها من تراب ونبات وأمطار تمده وزرعه وأنعامه بالماء اللازم للحياة، ورياح تحرك وتسوق السحب، وشمس تعمل على تكوين الطعام وإنضاج الثمر، وتيسير كثير من شؤون الإنسان، وجاذبية أرضية تمسكه من أن يلقي به في الفضاء وهكذا.

والأرض وما فيها مرتبط بالشمس وسائر أفراد المجموعة الشمسية. والشمس وتوابعها مرتبطة بالمجرة، والمجرة بغيرها من المجرات في نظام كونى بدیع فهذا الترابط بين الموجودات ابتداء من فتحه البواب في المعدة وحتى المجرات يدل دلالة واضحة ساطعة على أن الخالق واحد.

(٦) إن موجودات الكون بأنواعها المختلفة، تتعاون فيما بينهما تعاوناً وثيقاً، ويسعى كل جزء منها لتكملة مهمة الآخر وكأنها تمثل

بمجموعها وأجزائها تروس معمل بديع ودواليبه، وهذا التعاون بين الأجزاء، وهذه الاستجابة في إسعاف كل منها لطلب الآخر، وإمداد كل جزء للجزء الآخر، بل هذا التعاون بين الأجزاء والاندماج يجعل من أجزاء الكون كله وحدة متحدة تتعصى على الانقسام والانفكاك، يشبه في هذا وحدة أجزاء جسم الإنسان الذي لا يمكن فك بعضها عن البعض الآخر، لشدة ما بينها من الترابط والاندماج، فمظاهر التعاون والتساند والتجاوب والتعاقب الواضحة على وجه الكون، إنما هي آيات كبرى وبصمات ساطعة للتوحيد.

(٧) وكما أن تشابه أعضاء وجوه البشر مثلاً من عيون وأنوف وشفاه- دليل قاطع على وحدانية الخالق، فكذلك العلامات الفارقة الموضوعية في كل وجه والتي تميزه عن غيره من الوجوه دليل ساطع على وحدانية الخالق. فحتى توضع هذه العلامات الفارقة في كل وجه لا بد أن يكون هناك اطلاع على جميع الوجوه السابقة واللاحقة منذ آدم عليه السلام إلى يوم القيامة، ولا بد لواضع هذه العلامات من أن يكون أفراد البشر كافة تحت نظره وشهوده، وضمن دائرة علمه حتى يضع ذلك الختم المميز لكل وجه، وهذه آية بديعة جليلة على وحدانية الخالق. فخالق البشر كلهم إله واحد من لدن آدم عليه السلام إلى قيام الساعة. ومن ثم فهو يضع هذه العلامات المميزة الفارقة لكل إنسان^(١).

وتوحيد الله عز وجل هو أول دعوة الرسل، وأول منازل الطريق إلى الله (عز وجل)، فهو مفتاح دعوة كل رسول.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنِّ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾^(٢).

(١) سعيد النورسني، الاسم الأعظم، ص ٥٧. (٢) سورة الأعراف آية ٥٩.

- ﴿وَالِىَ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ (١).
 ﴿وَالِىَ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ (٢).
 ﴿وَالِىَ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ (٣).

والتوحيد أول ما يدخل به في الإسلام، وآخر ما يخرج به من الدنيا كما قال النبي (ﷺ)، «من كان آخر كلامه لا إله إلا الله: دخل الجنة» (٤).

فهو أول واجب، وآخر واجب، فالتوحيد: أول الأمر وآخره.

والتوحيد الذي دعت إليه الرسل ونزلت به الكتب نوعان:

(أ) توحيد في المعرفة والإثبات.

(ب) توحيد في المطلب والقصد.

والنوع الأول هو توحيد الربوبية. ويتضمن الاعتقاد بأن الله وحده هو الخالق البارئ المصور المالك المحيي.

والقرآن الكريم ملئ بالأدلة على هذا النوع من التوحيد، فهناك العديد من الآيات التي تتحدث عن خلق الله وبديع صنعه وتصريفه لأمر الكون وتدبيره لشئونه كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا. وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا. وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا. ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا. وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا. لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سَبِيلًا فِجَاجًا﴾ (٥).

(٢) سورة الأعراف آية ٧٣.

(١) سورة الأعراف آية ٦٥.

(٤) رواه أبو داود والحاكم وقال: صحيح الإسناد.

(٣) سورة الأعراف آية ٨٥.

(٥) سورة نوح آية (١٥ - ٢٠).

وهذا النوع من التوحيد أقربَه الجاهليون، وبين القرآن الكريم أنهم لم يستطيعوا أن ينكروا الدلائل الواضحة على ربوبيته . قال تعالى : ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ (١) .

﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ . قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ . سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ . قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ (٢) .

أما النوع الثانى فيراد به توحيد الألوهية أو العبودية، وهو الاعتقاد الجازم بأن الله سبحانه هو الإله الحق، ولا إله غيره وإفراده سبحانه وتعالى بالعبادة بأن لا يعبد أحد سواه، وأن يكون له الانقياد والخضوع والطاعة المطلقة . وهذا التوحيد قائم على إخلاص العبادة لله وحده ظاهراً وباطناً، بحيث لا يكون شيء منها لغيره (سبحانه) فيخلص لله المحبة والخوف والرجاء والدعاء والتوكل والطاعة والتذلل والخضوع وجميع أنواع العبادة وأشكالها .

يقول ابن تيمية : «إن هذا التوحيد (أى توحيد الألوهية، هو الفارق بين الموحدين والمشركين وعليه يقع الجزاء والثواب فى الأولى والآخرة، فمن لم يأت به كان من المشركين» (٣) .

ويستلزم هذا النوع من التوحيد عدة أمور من أهمها :

١ - إخلاص العبادة كلها من تعظيم ومحبة وتوكل وخوف ورجاء

(١) سورة العنكبوت آية ٦١ .

(٢) سورة المؤمنون آية (٨٤-٨٩) .

(٣) ابن تيمية، الحسنة والسيئة، ص ١٢٨ .

وتحاكم الله تعالى، فلا يعظم غير الله (عز وجل) ولا يحب غيره فمن أحب أحداً مثل حبه لله أو قدمه في المحبة على محبة الله تعالى فهو من المشركين قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ (١).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية تعليقا على هذه الآية: ذكر أنهم يحبون أندادهم كحب الله. فدل على أنهم يحبون الله حبا عظيما ولم يدخلهم في الإسلام فكيف بمن أحب الند أكثر من حبه الله؟ وكيف بمن أحب الند وحده، ولم يحب الله؟ (٢).

ويقتضى هذا التوحيد أيضاً ألا يتوكل العبد إلا على الله ولا يرجو غيره ولا يدعو سواه. قال تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٣)(٤).

أورد السيوطي في تاريخ الخلفاء: أنه لما فتحت مصر، أتى أهلها عمرو بن العاص -رضي الله عنه- حين دخل يوم من أشهر العجم، فقالوا: يا أيها الأمير، إن لنيلنا هذا سنة لا يجرى إلا بها.

(١) سورة البقرة آية ١٦٥.

(٢) ابن تيمية، الفتاوى ج ١، ص ٩٢. (٣) سورة المائدة آية ٢٣.

(٤) والتوكل على غير الله تعالى أقسام: أحدهما: التوكل في الأمور التي لا يقدر عليها إلا الله، كالتمسك على الأموات والغائبين ونحوهم من الطواغيت في تحقيق المطالب من النصر والحفظ والرزق أو الشفاعة، وهذا شرك أكبر. والقسم الثاني: التوكل في الأسباب الظاهرة كمن يتوكل على سلطان أو أمير أو أي شخص حتى قادر فيما أقدره الله من عطاء أو دفع أذى ونحو ذلك، فهذا شرك أصغر، لأنه اعتماد على الشخص، والقسم الثالث هو إنابة الإنسان من يقوم بعمله عنه مما يقدر عليه كبيع وشراء فهذا جائز، ولكن ليس له أن يعتمد عليه في حصول ما وكل فيه بل يتوكل على الله في تيسير أموره التي يطلبها بنفسه أو نائبه؛ لأن توكيل الشخص في تحصيل الأمور الجائزة من جملة الأسباب والأسباب لا يعتمد عليها وإنما يعتمد على الله سبحانه الذي هو مسبب الأسباب وموجد السبب والمسبب.

قال : وماذاك؟

قالوا : إذا كانت إحدى عشرة ليلة تخلو من هذا الشهر، عمدنا إلى جارية بكر بين أبويها، فأرضينا أبويها، وجعلنا عليها من الثياب والحلى أفضل ما يكون، ثم ألقيناها في هذا النيل .

فقال لهم عمرو : إن هذا لا يكون أبداً في الإسلام، وإن الإسلام يهدم ما كان قبله .

فأقاموا والنيل لا يجري قليلاً ولا كثيراً، حتى هموا بالجلاء، فلما رأى ذلك عمرو؛ كتب إلى عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- بذلك، فكتب له، أن قد أصبت بالذي قلت، وإن الإسلام يهدم ما كان قبله . وبعث بطاقة في داخل كتابه، وكتب إلى عمرو :

إنني قد بعثت إليك بطاقة في داخل كتابي، فألقها في النيل .

فلما قدم كتاب عمر إلى عمرو بن العاص، أخذ البطاقة، ففتحها، فإذا فيها : من عبد الله بن الخطاب أمير المؤمنين إلى نيل مصر .

أما بعد : فإن كنت تجرئ من قبلك؛ فلا تجر، وإن كان الله يجريك؛ فأسأل الله الواحد القهار أن يجريك .

فألقى البطاقة في النيل قبل الصليب بيوم فأصبحوا وقد أجراه الله تعالى ستة عشر ذراعاً في ليلة واحدة، فقطع الله تلك السنة عن أهل مصر إلى اليوم .

فمن مقتضيات هذا التوحيد أن يعتقد المرء أن الضر والنفع من الله فلا يخاف إلا منه ولا يرغب إلا إليه، فمن اعتقد أن شيئاً غير الله يمكن أن يضره بمشيئته وقدرته فخاف منه فقد أشرك بالله، قال تعالى : ﴿فَإِيَّايَ فَارْهَبُونَ﴾ (١)، ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا

رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١﴾ .

٢ - ويستلزم هذا التوحيد أيضاً ألا يتخذ العبد غير الله حكماً يطيعه كما يطيع الله (عز وجل) قال تعالى: ﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكْماً وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً ﴾ (٢) فالحكم في شئون الحياة جميعها إنما هو لله وحده، ومن ثم ينبغي أن يكون التشريع له وحده . قال تعالى: ﴿ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٣) .

وقد اعتبر القرآن التحاكم إلى غير الله ورسوله خروجاً عن حقيقة الإيمان ودخولاً في طاعة الشيطان: قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيداً . وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتُ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُوداً ﴾ (٤) .

٣ - وينبغي أن يصاحب إخلاص العبودية لله، الكفر بالطواغيت والبراءة من كل من عبدها أو آلاها من دون الله، والطاغوت كما يقول ابن القيم - كل ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع، فطاغوت كل قوم من يتحاكمون إليه غير الله ورسوله، أو يعبدونه من دون الله، أو يتبعونه على غير بصيرة من الله، أو يطيعونه فيما يعلمون أنه طاعة لله (٥) .

وقد اهتم القرآن بقضية الكفر بالطاغوت وقدمه أحياناً على الإيمان

(١) سورة يونس آية ١٠٧ . (٢) سورة الأنعام آية ١١٤ .
(٣) سورة يوسف آية ٤٠ . (٤) سورة النساء آية (٦٠ - ٦١) .
(٥) عن سليمان بن عبد الرحمن آل شيخ، تيسير العزيز الحميد، ص ٥٠ .

بالله تعالى كما ورد في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (١).

٤- ويستلزم التوحيد أيضاً اتقاء الشرك والحذر منه، فبالإضافة إلى الإيمان بالله تعالى وعبادته والكفر بالطاغوت لا بد لتحقيق التوحيد من التحرر من كل شائبة للشرك صغيرة كانت أم كبيرة جليلة أم خفية. وينقسم الشرك إلى نوعين: أكبر وأصغر.

أولاً: الشرك الأكبر: وهو أن يتخذ العبد نداً من دون الله، يحبه كما يحب الله، وهو الشرك الذي يضمن تسوية آلهة المشركين برب العالمين. ولهذا قد (٣) رواه مسلم في كتّ تالله إن كنّا لفي ضلال مبين. إذ نسويكم برب العالمين (٢). فمع إقرارهم بأن الله وحده خالق كل شيء، وربه ومليكة وأن آلهتهم لا تخلق ولا ترزق، ولا تحيي ولا تميت، وإنما كانت هذه التسوية في المحبة والتعظيم والعبادة كما هو حال أكثر مشركي العالم، بل كلهم يحبون معبوداتهم ويعظمونها ويوالونها من دون الله. وكثير منهم - بل أكثرهم - يحبون آلهتهم أعظم من محبة الله (٣). ويستبشرون بذكرهم أعظم من استبشارهم إذا ذكر الله وحده. ويغضبون لمتنقص معبوديهم وآلهتهم - من المشايخ - أعظم مما يغضبون

(١) سورة البقرة آية ٢٥٦.

(٢) سورة الشعراء آية (٩٧-٩٨).

(٣) المحبة قسمان: محبة مختصة، وهي محبة العبودية التي تستلزم كمال الذل والطاعة للمحبوب وهذه خاصة بالله تعالى، ومحبة مشتركة وهي ثلاثة أنواع: محبة طبيعية كمحبة الجائع للطعام، ومحبة إشفاق كمحبة الوالد لولده، ومحبة أنس وإلف كمحبة الشريك لشريكه والصديق لصديقه، وهذه المحبة بأنواعها الثلاثة لا تستلزم التعظيم والذل ولا يؤاخذ أحد بها ولا تزاحم المحبة المختصة فلا يكون وجودها شركاً. لكن لا بد أن تكون المحبة المختصة التي لله عز وجل مقدمه عليها.

إذا انتقص أحد رب العالمين، وهؤلاء وعباد الأصنام في طريق واحد والفارق بينهما أن عباد الأصنام ألتهتهم من حجر وهؤلاء ألتهتهم من بشر. . والذي في قلوب هؤلاء المشركين وسلفهم: أن ألتهتهم تشفع لهم عند الله. وهذا عين الشرك، وقد أنكر الله عليهم ذلك في كتابه وأبطله. وأخبر أن الشفاعة كلها له، وأنه لا يشفع عنده أحد إلا لمن أذن الله أن يشفع فيه. ورضي قوله وعمله، وهم أهل التوحيد، الذين لم يتخذوا من دون الله شفعاء. . فالشفاعة التي أثبتها الله ورسوله: هي الشفاعة الصادرة عن إذنه لمن وحده، والتي نفاها هي الشفاعة الشركية، التي في قلوب المشركين، المتخذين من دون الله شفعاء. فيعاملون بنقيض قصدهم من شفعاتهم. ويفوز بها الموحدون. . وتأمل قول النبي (ﷺ) لأبي هريرة - وقد سأله «من أسعد الناس بشفاعتك يا رسول الله؟ قال: أسعد الناس بشفاعتى: من قال لا إله إلا الله، خالصاً من قلبه» كيف جعل أعظم الأسباب التي تنال بها شفاعته: تجريد التوحيد، عكس ما عند المشركين: أن الشفاعة تنال باتخاذهم أولياءهم شفعاء، وعبادتهم وموالتهم من دون الله. فقلب النبي (ﷺ)، ما في زعمهم الكاذب، وأخبر أن سبب الشفاعة: هو تجريد التوحيد فحينئذ يأذن الله للشافع أن يشفع^(١).

وهذا النوع من الشرك مناقض للتوحيد، ومخرج من دائرة الإسلام، ولا يقبل الغفران، قال تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾^(٢).

(١) ابن القيم الجوزية، مدارج السالكين، ج ١، ص ٣٣٩-٣٤١.

(٢) سورة النساء آية ٤٨.

وقال عنه ابن القيم رحمه الله :

والشرك فاحذره فشرک ظاهر	ذا القسم ليس يقابل الغفران
وهو اتخاذ الند للرحمن أيا	كان من حجر ومن إنسان
يدعوه أو يرجوه ثم يخافه	ويحبه كمحبة الديان

ويدخل في هذا النوع السجود أو الركوع لغير الله (عز وجل)، والخوف من غير الله^(١)، والتوكل على غير الله، والعمل لغير الله، والإنابة والخضوع والذل لغير الله. وابتغاء الرزق من عند غير الله، وحمد غيره على ما أعطى. . . والأذى والسخط على ما لم يقسمه، ولم يجربه القدر واعتقاد أن يكون في الكون ما لا يشاؤه.

ومن أنواع هذا الشرك - أيضاً - طلب الحوائج من الموتى، والاستغاثة بهم، والتوجه إليهم لأن الميت قد انقطع عمله، وهو لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً، فضلاً عما استغاث به، وسأله قضاء حاجته، أو سأله أن يشفع له إلى الله فيها، وهذا من جهله بالشافع والمشفوع له عنده. . . والميت محتاج إلى من يدعو له، ويترحم عليه، ويستغفر له، كما أوصانا النبي (ﷺ) إذا زرنا قبور المسلمين «أن نترحم عليهم، ونسأل لهم العافية والمغفرة» فعكس المشركون هذا، وزاروهم زيارة العبادة، واستقضاء الحوائج، والاستغاثة بهم وجعلوا قبورهم أوثاناً تعبد،

(١) لا يدخل في هذا الخوف الفطري الطبيعي مثل الخوف من عدو أو سبع أو غير ذلك فليس ذلك بمذموم كما قال تعالى في قصة موسى عليه السلام (فخرج منها خائفاً يترقب) لأن العلماء قسموا الخوف إلى ثلاثة أقسام: خوف السر وهو شرك أكبر وهو أن يخاف من غير الله من وثن أو طاغوت أو ميت أو غائب من جن وأنس أن يصيبه بمكروه كما يخاف عباد القبور من الموتى بل ويخوفون غيرهم. والنوع الثاني: أن يترك الإنسان ما يجب عليه خوفاً من بعض الناس فهذا محرم وهو شرك أصغر. والنوع الثالث: هو الخوف الطبيعي الفطري كما سبق.

وسموا قصدها حجاً . . فجمعوا بين الشرك بالمعبود الحق ، وتغيير دينه ، ومعاداة أهل التوحيد ، ونسبة أهله إلى التنقص للأموات . وهم قد تنقصوا الخالق بالشرك . وأولياءه - الموحدين له الذين لم يشركوا به شيئاً - بذمهم وعبئهم ومعاداتهم وتنقصوا من أشركوا به غاية التنقص . إذ ظنوا أنهم راضون منهم بهذا ، وأنهم يوالونهم عليه . وهؤلاء هم أعداء الرسل والتوحيد في كل زمان ومكان^(١) .

والنجاة من هذا الشرك تكون بتجريد التوحيد لله عز وجل ، ومعاداة المشركين ، والتقرب إلى الله بمقتهم ، واتخاذ الله عز وجل وحده ولياً وإلهاً معبوداً . فلا يحب العبد إلا الله ، ولا يخاف إلا منه ولا يرجو غيره ، ولا يتوكل إلا عليه ، ولا يستعين إلا به ولا يلتجئ إلا إليه ، ولا يتبع إلا أمره ، ولا يطلب إلا مرضاته . فإذا سأل سأل الله وإذا استعان استعان بالله . ، وإذا عمل عمل الله ، وبالله ، ومع الله .

ثانياً : الشرك الأصغر : وهذا النوع من الشرك يشمل سير الرياء ، والتصنع للخلق ، والحلف بغير الله . كما ثبت عن النبي (ﷺ) أنه قال «من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك»^(٢) .

وقول الرجل للرجل «ما شاء الله وشئت» و«هذا من الله ومنك» و«أنا بالله وبك» و«مالي إلا الله وأنت» و«أنا متوكل على الله وعليك» و«لولا أنت لم يكن كذا أو كذا» . وقد يكون هذا شركاً أكبر بحسب قائله ومقصده ، وصح عن النبي (ﷺ) أنه قال لرجل قال له «ما شاء الله وشئت» : أجعلتنى لله نداً؟

(١) ابن القيم ، مدارج السالكين ، ح ٢ ، ص ٣٤٥-٣٤٦ .

(٢) رواه الترمذى وحسنه وصححه الحاكم .

قل : ما شاء الله وحده . فالواجب حتى يبتعد عن الشرك أن يعطف
«ب» ثم فيقال : « ما شاء الله ثم شئت » أو « ثم شاء فلان » «ولولا الله ثم
أنت» أو «ثم فلان» أو «مالي إلا الله ثم أنت» لأن العطف بـثم يقتضى
الترتيب والتراخي وأن مشيئة العبد تأتى بعد مشيئة الله تعالى لا مساوية
لها . كما قال تعالى : ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ (١) فمشيئة العبد تابعة
لمشيئة الله تعالى .

ويدخل في هذا النوع من الشرك بعض التعاويذ المنافية للتوحيد
كلبس الحلقة والخيطة لرفع البلاء أو توقيه وتعليق التماثيل لدفع الضرر ،
والرقى والسحر والتولة والكهانة والعرافة والطيرة التي كان يمارسها
أهل الجاهلية قبل الإسلام ، وهذه الأمور قد تكون شركاً أكبر إن اعتقد
أن لها تأثيراً في الحوادث . ولا يتم للعبد توحيد حتى يتبرأ من الشرك
كله : جلبيه وخفيه ظاهره وباطنه ، الأقوال منه والأفعال وتكون أعماله
كلها خالصة لله متبعاً فيها سنة رسول الله (ﷺ) .

وهناك أمور أخرى غير ما ذكر تقدح في التوحيد وتنافيه بل تقتضى
الردة عن دين الإسلام منها :

١- سوء الظن بالله ، وهو أمر خطير لأن حسن الظن بالله من
مقتضيات التوحيد ، وسوء الظن ينافى التوحيد ، وقد وصف الله تعالى
المنافقين بأنهم يظنون به غير الحق ، فقال تعالى : ﴿يُظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ
ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ (٢) .

وأخبر عنهم في آية أخرى أنهم يظنون به ظن السوء ،

(١) سورة الإنسان ، آية : ٣٠

(٢) سورة آل عمران آية ١٥٤ .

فقال: ﴿وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنُّ السُّوءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السُّوءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ (١).

وأكثر الناس يظنون بالله غير الحق ظن السوء فيما يختص بهم وفيما يفعله بغيرهم، ولا يسلم من ذلك إلا من عرف الله وعرف أسمائه وصفاته، وعرف موجب حكمته وحمده، فمن قنط من رحمته وآيس من روحه فقد ظن به ظن السوء، فمن جوز عليه أن يعذب أوليائه مع إحسانهم وإخلاصهم، ويسوى بينهم وبين أعدائه فقد ظن به ظن السوء. الخ فليتب العبد إلى الله عز وجل وليستغفره من ظنه بربه ظن السوء.

٢- الاستهزاء بشيء فيه ذكر الله: يجب على المسلم احترام كتاب الله وسنة رسوله وعلماء المسلمين، فمن استهزأ بذكر الله أو القرآن أو الرسول أو شيء من السنة فقد كفر بالله عز وجل لاستخفافه بالربوبية والرساله، وذلك مناف للتوحيد وكفر بإجماع أهل العلم، قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُرُّ وَلَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ (٦٥) لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ (٢).

ومثل هذا- أيضاً- الاستهزاء بالسنة الثابتة عن رسول الله (ﷺ) كالذي يستهزئ بإعفاء اللحى وقص الشوارب وبالسواك وكالاستهزاء بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ويدخل في هذا أيضاً من يتقصون الشريعة الإسلامية ويصفونها بأنها لا تصلح للوقت الحاضر، وأن

(١) سورة الفتح آية ٦.

(٢) سورة التوبة، آية ٦٥، ٦٦.

الحدود الشرعية فيها قسوة ووحشية وأن الإسلام ظلم المرأة . . إلى غير ذلك من مقالات الكفر والإلحاد^(١).

٣- نسبة النعم إلى غير الله، فالاعتراف بفضل الله وإنعامه والقيام بشكره من صميم العقيدة؛ لأن من نسب النعمة إلى غير موليتها - وهو الله سبحانه - فقد كفرها وأشرك بالله بنسبتها إلي غيره . قال الله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾^(٢).

قال بعض المفسرين: يعرفون أن النعم من عند الله، وأن الله هو المنعم عليهم بذلك، ولكنهم ينكرون ذلك فيزعمون أنهم ورثوها عن آبائهم، وبعضهم يقول: لولا فلان لم يكن كذا وكذا، وبعضهم يقول: هذا بشفاعة فلان وفلان، ومثله اليوم ما يجري على ألسنة الكثير من نسبة حصول النعم واندفاع النقم إلى مجهود الحكومات أو الأفراد أو التقدم العلمي، فيقولون: تقدم الطب تغلب على الأمراض وقضى عليها.

والمجهودات الفلانية تقضى على الفقر والجهل . . وما أشبه ذلك من الألفاظ التي يجب على المسلم أن يتبعد عنها ويتحفظ منها غاية التحفظ وأن ينسب النعم إلى الله وحده ويشكره عليها، وما يجري على يد المخلوقين من أفراد أو جماعات من المجهودات إنما هي أسباب قد تثمر وقد لا تثمر، وهم يشكرون على قدر ما بذلوه، ولكن لا يجوز نسبة حصول النتائج إلا لله (سبحانه).

وقد حكى الله (عز وجل) هذا عن قارون الذي آتاه الله الكنوز العظيمة فبغى على قومه، وقد وعظه الناصحون وأمروه بالاعتراف

(١) صالح الفوزان، الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد، ص ٨٢.

(٢) سورة النحل آية ٨٣.

بنعمة الله والقيام بشكرها فكابر وقال الله إنما أوتيته علي علم عندى» أئى حصلت على هذه الكنوز بسبب حذقي ومعرفتى بوجوه المكاسب لا أنها تفضل من الله تعالى فكانت عاقبته من أسوأ العواقب حيث خسف الله به وبداره الأرض» (١).

اللهم إنى أسألك بأننى أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت، الأحد، الصمد الذي لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد (٢). أن تغفر لى ذنوبى، إنك أنت الغفور الرحيم»

﴿ لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٣).

﴿ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ (٤).

* * *

(١) صالح الفوزان، المرجع السابق، ص (٩٥-٩٦).

(٢) رواه الترمذى وأبو داود وأحمد وابن ماجه والحاكم وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى ١٢٣/١٦٣.

(٣) سورة الأنبياء آية ٨٧. (٤) سورة التوبة آية ١٢٩.

الحى القيوم

٨ ٧

الحى اسم من أسماء الله الحسنى، ومعناه: دائم الحياة، له البقاء المطلق، لم يسبق وجوده عدم، ولم يلحق بقاءه فناء. له وحده البقاء والدوام، فهو الباقي من أزل الأزل (١) إلى أبد الأبد (٢).

فالله عز وجلّ حى أى متصف بالحياة الأبدية، التى لا بداية لها ولا نهاية لا يموت ولا يجوز عليه الموت، وكل حى سواه ليس حياً بذاته إنما هو ممدد منه (سبحانه).

فا (سبحانه وتعالى) حى لم يزل موجوداً، وبالحياة موصوفاً، لم تحدث له الحياة بعد موت ولا يعتريه الموت بعد الحياة، وسائر الأحياء يعترهم الموت أو العدم فى أحد طرفى الحياة أو فيهما معاً. قال الله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ (٣).

وقال تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٤).

ويبين الراغب الأصفهاني (رحمه الله) أنواع الحياة فيقول: الحياة تستعمل على أوجه:

الأولى: للقوة النامية الموجودة فى النبات والحيوان، ومنه قيل نبات حى قال الله عز وجلّ: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ (٥)، وقال

(١) الأزل هو دوام الوجود فى الماضى.

(٢) الأبد: هو دوام الوجود فى المستقبل.

(٣) سورة القصص آية ٨٨.

(٤) سورة البقرة آية ٢٨.

(٥) سورة الحديد، آية: ١٧.

(عز وجل) ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾^(١)، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٢) فقوله إن الذي أحياها إشارة إلى القوة النامية، وقوله لمحيي الموتى إشارة إلى القوة الحساسة. الثانية: للقوة العاملة العاقلة كقوله تعالى: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾^(٣)، وقول الشاعر:

وقد ناديت لو أسمعت حيا ولكن لا حياة لمن تنادي

الثالثة: عبارة عن ارتفاع الغم وبهذا النظر، قال الشاعر:

ليس من مات فاستراح يميت إنما الميت ميت الأحياء

وعلى هذا قوله عز وجل: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾^(٤) أى هم مثلذنون.

الرابعة: الحياة الآخروية الأبدية: قال تعالى: ﴿يَا لَيْتَنِي قَدِمْتُ لِحَيَاتِي﴾^(٥) يعنى الحياة الآخروية الدائمة.

الخامسة: الحياة التي يوصف بها البارئ فإنه قيل فيه تعالى: «هو حي» فمعناه لا يصح عليه الموت، وليس ذلك إلا لله عز وجل^(٦).

وهناك حياة أخرى، وهى حياة الجماد، ففى الجماد أيضاً حياة، يقول ابن القيم - رحمه - الله - «وقد جعل الله فى الجمادات شعوراً وإدراكاً تسبح ربها به، وتسقط الحجارة من خشيتها، وتسجد له الجبال والشجر، وتسبحه الحصى والمياه والنبات، قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾»^(٧) وقال الألوسى: «إن لكل

(١) سورة فاطر، آية: ٢٢ .. (٢) سورة فصلت، آية: ٣٩.

(٣) سورة الأنعام، آية: ١٢٢. (٤) سورة آل عمران، آية: ١٦٩.

(٥) سورة الفجر، آية: ٢٤.

(٦) الراغب الأصفهاني، مرجع سابق، ١٣٨، ١٣٩.

(٧) سورة الإسراء آية ٤٤ (ابن القيم، الروح، ص ١٠٦).

شيء حياة وعلماً لاثنين به» .

فالله عز وجل هو الحي قبل كل حي ، وهو الحي بعد كل حي ، وهو (سبحانه) الحي الذي لا يشاركه حي ، وهو الحي الذي لا يحتاج إلى حي ، وهو الحي الذي لا يشابهه حي ، وهو الحي الذي يرزق كل حي ، وهو الحي الذي يهب الحياة لكل حي .

وقد ورد اسم الحي خمس مرات في القرآن الكريم ، وقرن بينه وبين اسم الله القيوم في ثلاث منها ، وجمع هذين الاسم في غاية المناسبة ؛ وذلك لأنهما محتويان على جميع صفات الكمال ، فالحي هو كامل الحياة ، وذلك يتضمن جميع الصفات الذاتية لله كالعلم ، والعزة ، والقدرة والإرادة ، والعظمة ، والكبرياء ، وغيرها من صفات الذات المقدسة .

قال تعالى : ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ (١) .

﴿الَمْ (٦) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ (٢) .

﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ (٣) .

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ﴾ (٤) .

﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ (٥) .

والقيوم له معنيان :

١- هو الذي قام بنفسه ، وعظمت صفاته ، واستغنى عن جميع مخلوقاته .

(١) سورة البقرة آية ٢٥٥ .

(٢) سورة آل عمران آية ٢ .

(٣) سورة طه آية ١١١ .

(٤) سورة غافر آية ٦٥ .

(٥) سورة الفرقان ٥٨ .

٢- قامت به الأرض والسموات وما فيهما من المخلوقات ، فهو الذي أوجدها وأمدّها وأعدّها لكل ما فيه بقاؤها وصلاحها وقيامها . فهو الغني عنها من كل وجه ، وهي التي افتقرت إليه من كل وجه (١) .

قال ابن القيم :

هذا ومن أوصافه القيوم	والقيوم في أوصافه أمران
إحدهما القيوم قام بنفسه	والكون قام به هما الأمران
فالأول استغناؤه عن غيره	والفقر من كل إليه الثاني
والوصف بالقيوم ذو شأن كذا	موصوفه أيضاً عظيم الشأن
والحي يتلوه فأوصاف الكمال	هما لأفق سمائها قطبان
فالحي والقيوم لن تتخلف	الأوصاف أصلاً عنهما بيان

وقد ورد اسم القيوم في القرآن ثلاث مرة .

قال تعالى : ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ (٢) .

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ (٢) نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ﴾ (٣) .

﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ (٤) .

وكل حي نراه علي وجه الأرض إنما هو من إحياء الحي القيوم (سبحانه وتعالى) ، فالأرض وما عليها من نبات وحيوان وإنسان تحيى بإحياء الله عز وجل لها .

(١) عبد الرحمن آل سعدى ، الحق الواضح المبين ، ص ٨٨ .

(٢) سورة البقرة آية : ٢٥٥ .

(٣) سورة آل عمران ، آية ٢ .

(٤) سورة طه آية ١١١ .

قال تعالى: ﴿وَأَيُّ لَهِمُ الْأَرْضِ الْمَيْتَةِ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ (١).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكَمُ اللَّهُ فَأَنْتَى تُرْفَكُونَ﴾ (٢).

وقال تعالى: ﴿فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٣).

وقال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٤).

وقد قام العلماء بتحليل الخلية الحية وفصل مكوناتها عن بعضها فأنعدمت الحياة فيها، وقد أمكن تجميع هذه المكونات وتكوينها معملياً ولكنها لم تنتج خلية واحدة.

فاستنتجوا من ذلك أنه لا قيام للحياة في الخلية إلا بوجود هذه المواد ووجود محيي لها.

فالحياة لا تقوم إلا من محيي. وظهور الحياة في المادة الصماء كان من صنع خالق محيي، وكل الجهود التي بذلت للحصول على المادة الحية من غير الحية قد باءت بالفشل الذريع، لأن الحياة ليست مجرد منظومة جامدة مثل البيت أو المصنع وإنما هي منظومة حية فيها قدرة على تكرار نفسها، وفيها فطرة إرشادية تقودها من الداخل، وهي فطرة

(١) سورة يس آية ٣٣.

(٢) سورة الأنعام آية ٩٥.

(٣) سورة الزم آية ٥٠.

(٤) سورة فصلت آية ٣٩.

مبثوثة في نسيجها تجدد ما يتلف منها وتستحدث ما يضيع ، فاللغز المطلوب حلّه كامن في هذه البصيره المبثوثة في تضاعيف المادة ، وليس في تركيب المادة نفسها .

وقد تحدى الخالق المحيى (سبحانه وتعالى) البشر في أن يخلقوا ذبابه ، قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضَرْبٌ مِّثْلُ مَا اسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِيدُوا مِنْهُ ضَعْفَ الطَّالِبِ وَالْمُطْلُوبِ (٧٣) مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (١)﴾ .

وتتجلّى آثار الحي المحيى سبحانه وتعالى في إحياء الموتى ، يوم البعث . وقد ساق القرآن الكريم أدلة كثيرة على إحياء الموتى يوم القيامة . من أبرزها :

١- إن إعادة الشيء الذي كان موجوداً ثم فنى أسهل من إيجاد ابتداء ، فالله عزّ وجلّ هو الذي أوجد الأشياء من العدم وأبرزها إلى الوجود بعد أن لم تكن شيئاً ، فلا يستحيل عليه أن يعيدها مرة ومرة بعد فنائها .

ويلا حظ أن الذي يبنى بناءً ثم يهدمه لا يستحيل عليه إعادة بنائه كما كان أو أفضل مما كان ، والذي يخترع اختراعاً معيناً أو يركب جهازاً ما لا يصعب عليه أن يعيده مرة أخرى إذا ما فرق أجزائه أو كسره باختياره وإرادته .

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الدليل في قوله تعالى : ﴿وَضَرْبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ

مَرَّةً وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿١﴾ .

فاحتج القرآن - كما قال ابن القيم - بالإبداء على الإعادة، وبالنشأة الأولى على النشأة الأخرى، إذ كل عاقل يعلم علماً ضرورياً أن من قدر على هذه قدر على هذه، وأنه لو كان عاجزاً عن الثانية عجز عن الأولى بل كان أعجز وأعجز، ولما كان الخلق يستلزم قدرة الخالق على مخلوقه وعلمه بتفاصيل خلقه اتبع ذلك بقوله: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ فهو عليم بالخلق الأول تفاصيله ومداه وصورته، وكذلك عليم بالخلق الثاني، فإذا كان تام العلم كامل القدرة، فكيف يتعذر عليه أن يحيي العظام وهي رميم؟ (٢).

والى هذا المعنى يشير قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٣).

٢- إن الله (عز وجل) قادر لا يعجزه شيء، فهو الذي أبدع السموات والأرض.

ولا خلاف في أن خلق الإنسان أقل شأنًا من خلق السموات والأرض. ومن ثم فإن الله القادر على خلق السموات والأرض لا يعجزه الإنسان الذي هو جزء من هذا الكون - وإعادته. قال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ (٨١) إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٨٢) فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤﴾ .

(١) سورة يس آية (٧٨-٧٩).

(٢) ابن القيم مختصر الصواعق المرسلة، ص ١٠١.

(٣) سورة الروم آية ٢٧.

(٤) سورة يس آية (٨١-٨٣).

وقال تعالى ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١).

وقال تعالى ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْزِ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٢).

٣- وتتجلى قدرة المحيي سبحانه وتعالى عندما يخرج الأشياء من أضدادها، فإذا كانت الحياة ضد الموت والبعث ضد الفناء، فإن الله يخرج الضد من ضده: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ (٣) ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ﴾ (٤).

أى أن الذي جعل لكم بقدرته من الشجر الأخضر ناراً تحرق الشجر لا يمتنع عليه فعل ما أراد ولا يعجزه إحياء العظام البالية وإعادتها خلقاً جديداً. وقد أخبر (سبحانه) كما يقول ابن القيم بإخراج هذا العنصر الذي هو في غاية اليبوسة والحرارة من الشجر الأخضر الممتلئ بالرطوبة والبرودة، فالذئ يخرج الشيء من ضده هو الذي يفعل ما أنكره الملحد من إحياء العظام وهي رميم» (٥).

٤- وقد أشار القرآن الكريم إلى دليل آخر من أدلة البعث في الإنسان نفسه، وهو مراحل خلقه وتكوينه وانتقاله من مرحلة التراب إلى أن يكون نقطة ثم علقه ثم مضغة ثم يصبح طفلاً وكهلاً ثم يتوفى. فهذه المراحل يلاحظها الإنسان ويشاهدها... وما البعث إلا حلقة ومرحلة مثل هذه المراحل، فكيف ينكره الإنسان.

(١) سورة غافر آية ٥٧. (٢) سورة الأحقاف آية ٣٣.

(٣) سورة يونس، آية: ٣١. (٤) سورة يس، آية: ٨٠.

(٥) ابن القيم، مختصر الصواعق المرسلة، ص ١٠١.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِّنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِّنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّبَيِّنٍ لَّكُمْ وَنُقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِّتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُتَوَقَّىٰ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُّرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَىٰ الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٥) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ (١)﴾.

ويعلق ابن القيم على هذه الآية بقوله: «يقول سبحانه إن كنتم في ريب من البعث فلستم ترتابون في أنكم مخلوقون، ولستم ترتابون في مبدأ خلقكم من حال إلى حال إلى حين الموت، والبعث الذي وعدتم به نظير النشأة الأولى فهما نظيران في الإمكان والوقوع، فإعادتكم بعد الموت خلقاً جديداً كالنشأة الأولى لا ترتابون فيها، فكيف تنكرون إحدى النشأتين مع مشاهدتكم لنظيرها» (١) (٢).

ويعلق على ذلك سيد قطب قائلاً «فدلالة هذه الأطوار على البعث دلالة مزدوجة، فهي تدل على البعث من ناحية أن القادر على الإنشاء قادر على الإعادة، وهي تدل على البعث لأن الإرادة المدبرة تكمل تطوير الإنسان في الدار الآخرة» (٣).

٥ - وهناك ظاهرة أخرى في الإنسان اعتبرها القرآن الكريم دليلاً متكرراً للموت والحياة، ألا وهي ظاهرة النوم واليقظة، فالنوم أخو الموت إذ أن كلاهما عبارة عن انسحاب من الحياة أو توقف الأعضاء

(١) سورة الحج آية (٧٠). (٢) ابن القيم، أعلام الموقعين، ج ١ ص ١٤٠.

(٣) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج ٤، ص ٢٤١١.

عن أداء وظائفها على درجات متفاوتة بينهما، واليقظة شبيهة بالبعث إذ أن كلا منهما يعنى عودة الأعضاء إلى أداء وظائفها مع اختلاف في الدرجة، فكما تتم عملية النوم للإنسان والحيوان وعملية الاستيقاظ لهما، تتم عملية الموت والحياة الكاملة لهما. قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (١).

وفى آية أخرى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٢).

٦- وساق القرآن الكريم دليلاً آخر على البعث وإحياء الموتى في الكون المحيط بالإنسان، وهو ظاهرة الإحياء المتكررة للأرض الموتى والتي يراها الإنسان ويشاهدها حوله في الآفاق. فالإنسان يرى أرضاً قفرة مجدبة لا حياة فيها ثم ينزل عليها الغيث أو تسقى بالماء، فتدب فيها الحياة وتنبت فيها الزروع، وأشكال النبات المختلفة، وليس البعث إلا شبيهاً بهذه العملية المتكررة والتي يشاهدها الإنسان دوماً.

قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٣). وقوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝﴾ ذَلِكَ بَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

(١) سورة الأنعام آية ٦٠.

(٢) سورة الزمر آية ٤٣.

(٣) سورة فصلت آية ٣٩.

(٦) وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴿١﴾ .

فإحياء الأرض بعد موتها نظير إحياء الموتى ، وإخراج النبات منها نظير إخراجهم من القبور .

٧- بالإضافة إلى الأدلة السابقة قدم القرآن الكريم نماذج تم فيها إحياء بعض الموتى من الإنسان أو الحيوان- وهذه طريقة أعظم لمن يؤمن بالقرآن من الأدلة السالفة- ، لأنه لا شيء أدل على إمكانية الشيء من وجوده وتحقيقه .

فقد أشار القرآن الكريم إلى بنى إسرائيل الذين سألوا الله (عز وجل) الرؤية وجعلوها شرطاً لإيمانهم فأهلكهم الله بالصاعقة ثم بعثهم . قال تعالى : ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنْظُرُونَ ٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢﴾ .

كما أشار إلى قصة القوم الذين فروا من الطاعون ونزلوا وادياً حماية لأنفسهم من الموت فأماتهم الله ثم أحياهم ، وكان في إحيائهم دليل قاطع على المعاد الجسماني يوم القيامة . قال تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣﴾ .

وأورد القرآن الكريم أيضاً قصة قتيل بنى إسرائيل الذي تخاصم فيه

(١) سورة الحج (٥-٧) .

(٢) سورة البقرة آية (٥٥-٥٦) .

(٣) سورة البقرة آية ٢٤٣ .

قومه فأمرهم أن يضربوه ببعض أجزاء البقرة التي ذبحوها وبين لهم كيف يحيى الموتى . قال تعالى : ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٧٧) فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (١) .

كما أورد القرآن أيضاً قصة الرجل الذي مر على قرية وهى خاوية على عروشها ، فاستبعد عودة أهلها إلى الحياة مرة أخرى ، فأراه الله عجيب قدرته في الإعادة والإحياء ، فأماته مائة عام ثم بعثه ، وأراه كيف أن طعامه وشرابه لم يفسد ، بينما صار حماره عظماً نخرة ، وأوقفه على كيفية ديب الحياة في العظام البالية وعودة الحياة إلى الحمار مرة ثانية .

قال تعالى : ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٢) .

ويورد القرآن أيضاً عقب هذه القصة مباشرة قصة إبراهيم (عليه السلام) عندما طلب رؤية كيفية إحياء الموتى ، فأمره الله (عز وجل) أن يأخذ أربعة من الطير ثم يقطعهن ويفرق أجزاءهن ، ويجعل على كل

(١) سورة البقرة آية ٧٣ .

(٢) سورة البقرة آية ٢٥٩ .

جبل منهن جزءاً ثم يدعهن إليه . قال تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَئِمُتُؤْمِنُ قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي قَالَ فَخَذَ مِنْهُ الطَّيْرِ فَصَرَّهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعياً وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (١) .

فهذه النماذج وغيرها تدل دلالة واضحة على البعث وإحياء الموتى . ولا يمارى في ذلك إلا معاند متكبر كفور فسبحان الحي القيوم المحيي مَنْ بيده ملكوت كل شيء ، وعنده مفاتيح كل شيء ، وتخضع له الكائنات والموجودات ، فيسخرهم بأمر «كن فيكون» «وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب» .

يقول سعيد النورسي : إن ما ورد في القرآن الكريم مراراً عن الحشر كقوله تعالى : ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ (٢) ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ﴾ (٣) يبين لنا أن الحشر الأعظم سيظهر فجأة إلى الوجود ، في آن واحد بلا زمان . ولكن العقول الضيقة تطلب أمثلة واقعية مشهودة كي تقبل وتدعن لهذا الحدث الخارق . وفي الحشر ثلاث مسائل هي : عودة الأرواح إلى الأجساد ، وإحياء الأجساد ، وإنشاء الأجساد وبناءها :

والمسألة الأولى : وهي مجيء الأرواح وعودتها إلى أجسادها ومثاله : اجتماع الجنود المنتشرين في فترة الاستراحة والمتفرقين في شتى الجهات على الصوت المدوي للبوق العسكري ، فالأرواح في نظامها وفي طاعتها تفوق أضعاف أضعاف ما عند أفراد الجيش المنظم . ومن ثم

(١) سورة البقرة آية ٢٦٠ .

(٢) سورة يس ، آية : ٢٩ .

(٣) سورة النحل ، آية : ٧٧ .

فهى تلبى النداء عندما ينفخ إسرافيل في الصور .

والمسألة الثانية: وهى إحياء الأجساد، ومثاله مثلما يمكن إنارة مئات الآلاف من المصابيح الكهربائية في مدينة عظيمة من مركز واحد في لحظة واحدة، كأنها بلا زمان . وما دامت الكهرباء وهى مخلوقة من مخلوقات الله عز وجل لها هذه الخصائص وتلك القدرة . فكذلك يمكن إحياء مئات الملايين بل ألوف الملايين من البشر وبعثهم على سطح الأرض من مركز واحد وفي لحظة واحدة كلمح البصر أو أقرب (وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب) .

والمسألة الثالثة: وهى إنشاء الأجساد فوراً فمثالها كمثال إنشاء جميع الأشجار والأوراق التي يزيد عددها ألف مره علي مجموع البشرية - دفعة واحدة في غضون بضعة أيام في الربيع ، وبشكل كامل ، وبالهيئة نفسها التي كانت عليها في الربيع السابق . . وكذلك إيجاد جميع الأزهار والثمار والأوراق للأشجار كافة - بسرعة كالبرق - كما كانت في الربيع الماضي . . (١) .

وآثار القيوم سبحانه وتعالى في الكون لا تعد ولا تحصى ، فجميع الأشياء والموجودات قائمة به ، تدوم به ، وتبقى في الوجود به ، فلو انقطع هذا الانتساب إلى الحي القيوم طرفة عين لا نمحى الوجود كله ، فهو سبحانه الذي يهيمن على الكون كله ، ويدير جميع شئونه وأحواله وكييفياته بكمال الانتظام ، ومنتهى التدبير ، وغاية الرعاية ، وكل ذلك في سهولة ويسر ، فالكون كله بذراته ومجراته كجيش مهيب منظم بحول الله وقوته وأمره ، فقيام الأجرام السماوية في هذا الكون ودوامها وبقاؤها إنما هو أثر واضح جلئ من آثار اسم الله عز وجل القيوم ،

(١) سعيد النورسنى ، رسالة الحشر ، ترجمة إحسان الصالحى ، ص ١٢٦ - ١٢٨ .

ومثلها في الكون كطائرات ضخمة تسير بانتظام وفي أفلاك مقدرة محسوبة . فهي تجري في منتهى الانقياد والتقدير دون عمد أو سند إلا الحى القيوم (سبحانه) (١) .

والتأمل في ذرات أى جسم أو كائن يجدها قد جمعت على هيئة معينة وركبت تركيباً معيناً واتخذت شكلاً معيناً يناسب وظيفتها ، وهى في تركيبها وشكلها واستمرارها دون أن تتشتت أو تتلاشى إنما هي أثر بين جلئ من آثار القيوم سبحانه وتعالى . وإن شئت أيها القارئ فانظر إلى أى عضو من أعضائك . . فدقائق الصنع وبدائع الخلق في كل موجود . ولا سيما الأحياء - إنما هو شاهد أكبر ، وأثر من آثار القيوم (سبحانه) .

فسبحانه الحى القيوم الذي أخرج الموجودات من ظلمات العدم ووهب لها الوجود ، ومنحها القيام والبقاء في هذا الفضاء الواسع ، وبوأها موقعاً لا ثقابها .

وحينما ينظر الإنسان ، ويتأمل المخلوقات من حوله يراها تتعاقب قافلة إثر قافلة في سيل الزمان : فقسم منها لا يلبث ثانية ثم يغيب ، وطائفة منها تأتى لدقيقة واحدة ثم تمضى إلى شأنها ، ونوع منها يمر إلى عالم الشهادة مر الكرام ثم يلج في عالم الغيب بعد ساعة . وقسم منها يحط رحلة في يوم ثم يغادر ، وقسم منها يمكث سنة ، ثم يمضى ، وقسم يمضى عصراً ثم يرحل ، وآخر يقضى عصوراً ثم يترك هذا العالم ، وهكذا فكل يأتى ثم يغادر بعد أداء مهمته . .

فهذه السباحة المذهلة للعقول ، وذلك السيل الجارى للموجودات والسفر الدائب للمخلوقات ، إنما يتم بنظام متفق وميزان دقيق وحكمة

(١) سعيد النورسى، المرجع السابق، ص ١١٩-١٢٠ .

تامة تشهد وتنطق بالحق القيوم سبحانه (١) .

والمؤمن عندما يرى هذه الآيات يلهج لسانه وقلبه بالحمد والشكر ، ويرفع أكف الثناء والرضا والتضرع مع سائر المخلوقات للحي القيوم سبحانه . الذي يحمله وغيره في هذه السفينة - الأرض - والتي تمخر عباب الكون مع غيرها من السفن ، وعليها نعم ظاهرة وباطنة لا تعد ولا تحصى . فضلاً عن الجنان التي أعدها للمتقين في دار الخلود التي هي دار ضيافة مستتره . معدة فيها ما تشتهيهِ الأنفس وتلذ الأعين . فحمداً لله (عز وجل) على آلائه العظيمة ونعمه الجسيمة . حمداً لله (سبحانه وتعالى) لجعله الإنسان مركزاً للكون ومحوراً له ، فسخر هذا الكون وجعل جميع أنواع النعم المبتثثة فيه للإنسان فربطها بأواصر المنافع التي تخصه ، فكل النعم لصالحه . فحق على الإنسان أن يقدر بدائع صنع خالقه ويقدم الشكر والثناء والحمد لمن بسط أمامه كل هذه النعم .

يقول ابن القيم - رحمه - : « يشعر المؤمن بمشهد القيومية فيرى سائر التقلبات الكونية ، وتصاريق الوجود بيده سبحانه وحده ، فيشهد مالك الضر والنفع ، والخلق والرزق ، والإحياء والإماتة ، فيتخذ وحده وكيلاً ، ويرضى به رباً ومدبراً وكافياً ، وعند ذلك إذا وقع نظره على شيء من المخلوقات دلّه على خالقه وبارئه ، وصفات كماله ونعوت جلاله ، فلا يحجبه خلقه عنه سبحانه . بل يناديه كل من المخلوقات بلسان حاله : اسمع شهادتي لمن أحسن كل شيء خلقه . وأنا صنع الله الذي أتقن كل شيء (٢) .

ويقول في موضع آخر : ثم تأمل المسك للسموات والأرض

(١) ابن القيم ، مدارج السالكين ، ج ٣ ، ص ٣٨٠ .

(٢) ابن قيم الجوزية ، مفتاح دار السعادة ، ص ٢٦ .

الحافظ لهما أن تزولا أو يتعطل بعض فيهما، أفترى من الممسك لذلك ومن المقيم له؟ فلو تعطل بعض آلات هذا الدولاب العظيم والحديقة العظيمة من كان يصلحه؟ وماذا كان عند الخلق كلهم من الحيلة في رده كما كان؟ فلو أمسك عنهم قيم السموات والأرض والشمس فجعل عليهم الليل سرمداً من الذي كان يطلعها عليهم ويأتيهم بالنهار؟ ولو حبسها في الأفق ولم يسيرها فمن ذا الذي كان يسيرها ويأتيهم بالليل؟ ولو أن السموات والأرض زالتا فمن ذا الذي كان يمسكها من بعده؟ .

فملايين النجوم والكواكب ومنها ما هو أكبر من الأرض بألوف المرات تجرى بغير عمد وتسبح في فضاء كونى واسع وتسخر لأجل القيام بهام عظيمة في حركاتها وفي ثباتها الظاهر . . . فمن الذي رفعها وأجراها للقيام بهامها؟

وأصغر الأشياء من خلايا وذرات أجسامنا تأخذ أوضاعاً منتظمة كالنجوم، وتتحرك وفق نظام معين وتناسق مخصوص لإنجاز المهام المكلفة بها، وإن شئت فانظر إلى الكريات الحمر والبيض تراهما تتحركان حركات خاصة لإنجاز مهمات جسيمة في الجسم وهما تجريان في السيل الدافق للدم . . . فمن الذي يسير هذه الذرات، ويرقب هذه الخلايا؟ إنه الحى القيوم سبحانه وتعالى .

فإن الله عز وجل هو الحى أزلاً وأبداً لم يزل ولا يزال وهو الأول والآخر والظاهر والباطن، وهو القيوم الذي قام بنفسه وعظمت صفاته واستغنى عن جميع مخلوقاته وبه قامت هذه المخلوقات فهو الغنى عنها من كل وجه، وهى التي افتقرت إليه من كل وجه . فلا معبود سواه، ولا سؤال إلا له، ولا توكل إلا عليه .

قال تعالى: ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ

العالمين ﴿١﴾.

فهو وحده سبحانه الحي . الحي حياة ذاتية غير مكسوبة ولا مخلوقة ، وغير مبتدئه ولا منتهية ، وغير حائل ولا زائله ، وغير متقلبة ولا متغيرة ، وما من شيء له هذه الصفة من الحياة ، سبحانه هو المتفرد بالحياة ، فهو الحي الواحد لا إله إلا هو ومن ثم . . فادعوه مخلصين له الدين ، واحمدوه في الدعاء : « الحمد لله رب العالمين » . . والإخلاص هو أفراد الحي القيوم بالقصد في الطاعة ، ويستوجب هذا تصفية الفعل عن ملاحظة المخلوقين حيث لا رياء ولا إعجاب .

وقد قيل : الإخلاص : تصفية العمل من كل شوب . أى لا يمازج عمله ما يشوبه من شوائب إرادات النفس كطلب التزيين في قلوب الخلق ، أو طلب مدحهم ، أو الهرب من ذمهم ، أو طلب تعظيمهم ، أو طلب أموالهم ، أو خدمتهم ومحبتهم ، وقضاء حوائجهم ، أو غير ذلك من العلل والشوائب ، التي يجمعها : إرادة ما سوى الله بعمله ، كائناً ما كان (٢) .

فسائر الأعمال وصلاحتها وفسادها بحسب الإخلاص للحي القيوم (سبحانه) . وقد سئل النبي (ﷺ) عن اختلاف نيات الناس في الجهاد وما يقصد به من الرياء ، وإظهار الشجاعة والعصية وغير ذلك : أى ذلك في سبيل الله ؟ فقال : « من قاتل لتكون كلمة الله العلى ، فهو في سبيل الله . فخرج بهذا كل ما كان لغير وجه الله .

عن أبى موسى الأشعرى أن أعرابياً أتى النبي (ﷺ) فقال : يا رسول الله : الرجل يقاتل للمغنم ، والرجل يقاتل للذكر ، والرجل يقاتل ليرى

(١) سورة غافر آية ٦٥ .

(٢) ابن القيم الجوزية ، مدارج السالكين ، ج ٢ ، ص ٩٢ .

مكانه ، فمن في سبيل الله؟ فقال رسول الله (ﷺ) من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو في سبيل الله ، وفي رواية لمسلم : سئل رسول الله (ﷺ) عن الرجل يقاتل شجاعةً ، ويقاتل حميةً ، ويقاتل رياءً ، فأي ذلك في سبيل الله؟ وفي رواية له أيضاً : الرجل يقاتل غضباً ، ويقاتل حمية (١) .

وجاء رجل إلى النبي (ﷺ) فقال : أرأيت رجلاً غزاً يلتمس الأجر والذكر ماله؟ فقال رسول الله (ﷺ) : « لا شيء له » ثم قال رسول الله (ﷺ) : « إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً ، وابتغى به وجهه » (٢) .

وفي الآخرة تصفية للحساب ، ولا يدخل الجنة إلا المخلصون الذين يبتغون بأعمالهم وجه الله .

عن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال : سمعت النبي (ﷺ) يقول : « إن أول الناس يقضى عليه رجل استشهد ، فأتى به ، فعرفه نعمه ، فعرفها ، قال :

فما عملت فيها : قال : قاتلت فيك حتى استشهدت ، قال كذبت ، ولكنك قاتلت ، لأن يقال جرئ ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه ، حتى ألقي في النار ، ورجل تعلم العلم وعلمه ، وقرأ القرآن ؛ فأتى به ، فعرفه نعمه ، فعرفها ، قال : فما عملت فيها ، قال : تعلمت العلم وعلمته ، وقرأت فيك القرآن . قال : كذبت ، ولكنك تعلمت العلم ، ليقال : عالم ، وقرأت القرآن ليقال : هو قارئ ، فقد قيل ، ثم أمر به ، فسحب على وجهه حتى ألقي في النار ، ورجل وسع الله عليه ،

(١) رواه البخاري (١٢٣) و(٢٨١٠) و(٣١٢٦) و(٧٤٥٨) ومسلم (١٩٠٤) وغيرهما .

(٢) رواه النسائي ٦/ ٢٥ ، والطبراني (٧٦٢٨) وحسنه الحافظ العراقي في تخريج أحاديث الإحياء .

وأعطاه من أصناف المال كله، فأتى به، فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك. قال كذبت، ولكنك فعلت، ليقال: هو جواد، فقد قيل، ثم أمر به، فسحب على وجهه، حتى ألقي في النار».

وفى الحديث: أن معاوية لما بلغه هذا الحديث، بكى حتى غشى عليه، فلما أفاق قال: صدق الله ورسوله قال الله عز وجل: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُخْسِرُونَ. أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ﴾ (١).

فالتوكل لا يكون إلا على الحى الذى لا يموت: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا﴾ (٢) وكل ما عدا الله فهو ميت لأنه سائر إلى موت، والتوكل على ميت تفارقه الحياة يوماً عاجلاً أم آجلاً، هو ارتكان إلى عدم، وإلى ظل يزول، وركن ينهار. فالتوكل لا يصح ولا يكون إلا على الحى القيوم الذى لا يموت. ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ (٣).

وحقيقة التوكل على الحى الذى لا يموت هو صدق اعتماد القلب على الله (عز وجل) في استجلاب المصالح، ودفع المضار من أمور الدنيا والآخرة كلها، لأنه سبحانه وتعالى هو الذى يعطى ويمنع ويضر وينفع ولا حول ولا قوة إلا به.

والتوكل على الحى القيوم قوئ، والتوكل على غيره ضعيف لأنه ضعيف توكل على ضعيف.

(١) سورة هود آية ١٥-١٦، الحديث رواه مسلم (١٩٠٥) ورواه أيضاً أحمد والنسائي والترمذى وحسنه، وصححه ابن حبان (٤٠٨).

(٢) سورة الفرقان آية ٥٨. (٣) سورة الطلاق آية ٣.

روى أن عبد الرحمن بن يزيد بن معاوية كان خلا لعبد الملك بن مروان، فلما مات عبد الملك وتصدع الناس عن قبره وقف عليه وقال: أنت عبد الملك الذي كنت تعدني فأرجوك، وتتوعدني فأخافك، أصبحت وليس معك من ملكك غير ثوبيك وليس منه غير أربعة أذرع في عرض ذراعين. فكل حي يموت ولا يبقى إلا الحي القيوم الذي لا يموت.

والتوكل على الله (عز وجل) لا ينافي السعي والأخذ بالأسباب التي قدر الله (سبحانه) المقدورات بها، وجرت سنته في خلقه بذلك، فإن الله تعالى أمر بتعاطي الأسباب مع أمره بالتوكل، فالسعي في الأسباب من عمل الجوارح وهو طاعة لله (عز وجل)، والتوكل يكون بالقلب وهو إيمان بالله (عز وجل). ولذلك قيل الجوارح تعمل والقلب يتوكل، والآيات القرآنية التي تحض على الأخذ بالأسباب كثيرة: قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ (١). وقال: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ (٢). وقال: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ (٣).

والدعاء بالحي القيوم له أثر عظيم في كشف الكروب ودفع المكاره، قال ابن القيم (رحمه الله): وفي تأثير قوله «يا حي يا قيوم، برحمتك استغيث» في دفع الكرب والضيق مناسبة بديعة، فإن صفة الحياة متضمنة لجميع صفات الكمال. مستلزمة لها، وصفة القيومية متضمنة لجميع صفات الأفعال، ولهذا كان اسم الله الأعظم الذي إذا دعى به

(١) سورة النساء آية ٧١.

(٢) سورة الأنفال آية ٦٠.

(٣) سورة الجمعة آية ١٠.

أجاب وإذا سئل به أعطى: هو اسم الحى القيوم^(١).

والحياة التامة تضاد جميع الأسقام والآلام. ولهذا لما كملت حياة أهل الجنة لم يلحقهم هم ولا غم ولا حزن ولا شيء من الآفات. فالحي المطلق الحياة لا تفوته صفة الكمال ألته، والقيوم لا يتعذر عليه فعل ممكن ألته، فالتوسل بصفه الحياة والقيومية له تأثير في إزالة ما يضاد الحياة ويضر بالأفعال والمقصود أن لاسمى الحى القيوم تأثيراً خاصاً في إجابة الدعوات وكشف الكربات، وفي السنة «وصحيح أبى حاتم» مرفوعاً اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين: ﴿وَالْهَيْكُلُ إِلَهُ وَاحِدٌ لَّإِلَهِ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾^(١) وفاتحة آل عمران: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾^(٣).

وفي السنن «وصحيح ابن حبان» أيضاً من حديث أنس أن رجلاً دعا، فقال: اللهم إني أسألك بأن لك الحمد. لا إله إلا أنت المنان، بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا حى يا قيوم، فقال النبى (ﷺ) لقد دعا الله باسمه الأعظم الذي إذا دُعِيَ به أجاب، وإذا سُئِلَ به أعطى^(٤).

اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت قيم السموات والأرض ومن فيهن. ولك الحمد أنت رب السموات والأرض ومن فيهن. أنت الحق، ووعدك الحق، وقولك الحق، ولقاؤك حق، والجنة حق، والنار حق، والساعة حق، اللهم لك أسلمت وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت وبك خاصمت،

(١) سبق مبحث مستقل عن اسم الله الأعظم. (٢) سورة البقرة آية ١٦٣.

(٣) أخرجه الترمذى فى الدعوات وقال حديث صحيح. وفيه شهر بن حوشب وقد تكلم فيه غير واحد، لكن له شاهد يتقوى به.

(٤) أخرجه أبو داود فى الدعاء (١٤٩٥) والنسائى وابن ماجه، وإسناده صحيح وصححه ابن حبان (٢٣٧٨٢) والحاكم ووافقه الذهبى (زاد المعاد/ج ٤، ص ٢٠٤، ص ٢٠٥).

وإليك حاکمت، فاغفر لى ما قدمت وما أخرت وما أسررت وأعلنت
أنت إلهى لا إله إلا أنت (١).

«اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت وبك
خاصمت، اللهم إنى أعوذ بعزتك لا إله إلا أنت أن تضلنى أنت الحى الذى
لا يموت والجن والإنس يموتون» (٢).

«يا حى يا قيوم برحمتك استغيث أصلح لى شأنى كله ولا تكلنى إلى
نفسى طرفة عين لا إله إلا أنت» (٣).

(١) رواه البخارى فى التهجد، ومسلم فى صلاة المسافرين عن ابن عباس برقم (٧٦٩).

(٢) رواه البخارى ومسلم ٢٠٨٦/٤.

(٣) رواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبى، وانظر: الترغيب والترهيب ١/ ٢٧٣.

السبوح القدوس

٩ ١٠

السبوح: السبح في اللغة المر السريع في الماء وفي الهواء، والتسبيح تنزيه الله تعالى، وأصله المر السريع في عبادة الله تعالى^(١). فالتسبيح: التنزيه والتقديس والتبرئة من النقائص، وسبحان الله: تنزيه الله. وقيل لصلاة النافلة: سبحة^(٢) والمراد بالسبوح القدوس المسيح المقدس.

والله عز وجلّ سبوح: أي منزّه عن كل سوء ونقص، مبرأ من النقائص والشركاء وكل ما لا يليق بالألوهية.

وقد ورد هذا الاسم في الحديث الصحيح عن مطرف بن عبد الله الشخير أن عائشة (رضي الله عنها) أنبأته أن رسول الله (ﷺ) كان يقول في ركوعه وسجوده: «سبوح قدوس، رب الملائكة والروح»^(٣).

والقدوس - بالضم والتشديد - اسم مشتق من القدس أي الطهارة^(٤).

والقدوس هو الطاهر من العيوب والنقائص، وهو المنزه عن كل ما تحيط به العقول أو يصوره الخيال أو تحوم حوله الأفكار.

فهو المنزه (سبحانه) عن كل وصف يدركه حس، أو يسبق إليه وهم أو يختلج به ضمير، أو يقضى به تفكير، قال ابن القيم:

(١) الراغب الأصفهاني، مرجع سابق، ص ٢٢١.

(٢) صلاح الدين حنفي، مختصر النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير، ص ٦٣.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه في الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، كما أخرجه النسائي وأبو داود.

(٤) الزجاجي، مرجع سابق، ص ٢١٤.

هذا ومن أوصافه القدوس ذو التنزيه بالتعظيم للرحمن

فَالْقُدُّوسُ (سبحانه) منزّه عن كل صفة تنطبق على الخلق . . وأعظم أوصافه الكمال الإنساني تعتبر في حق الله تبارك وتعالى إساءة أدب؛ لأنه أعظم منها بغير حدود .

وقد ذكر هذا الاسم في القرآن الكريم مرتين في سورتي الحشر والجمعة، قال تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ﴾ (١)، ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٢). فهو سبحانه السبوح القدوس: أي المنزه عن النقائص والآفات، المستحق لنعوت الجلال والجمال والكمال .

فذاًت الله (عزّ وجلّ) وصفاته منزّهة عن كل نقص، موصوفة بكل كمال وليس التنزيه تعطيل صفات الله، ونفى معاني أسمائه الحسنى كما ظنّته الجهمية والمعتزلة، وإنما هو تنزيهه عن مشابهة الخلق قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (٣) .

فتنزيه أهل السنة ليس فيه تعطيل، وإثباتهم ليس فيه تشبيه . وكما هو منزّه (سبحانه) عن النقائص في صفاته وأسمائه الحسنى، فهو - أيضاً - منزّه عن النقص في أقواله وأفعاله، وصنعتة . قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ (٤) . ﴿وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ (٥) .

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٦) .

- | | |
|---------------------------|----------------------------|
| (١) سورة الحشر آية ٢٣ . | (٢) سورة الجمعة آية ١ . |
| (٣) سورة الشورى آية ١١ . | (٤) سورة النساء آية ٨٧ . |
| (٥) سورة النساء آية ١٢٢ . | (٦) سورة الأنعام آية ١١٥ . |

والذى ينظر فى صنع الله (عز وجل) فى الكون المحيط بنا يرى دقة الصنع واتقانه، فليس فى هذا الكون عيب أو نقص أو قصور، وإنما كل شئ صنع بدقه وإحكام.

فإذا ما رفع الإنسان رأسه إلى أعلى رأى كرة متأججة وهى الشمس، وهى أكبر من أمنا الأرض التى نعيش عليها أكثر من مليون مرة، وتبعد عنا بنحو ٩٣ مليون ميل. فهل خلقت هذه الشمس عبثاً؟!

إنها مصدر نورنا ونارنا وهى محور نظامنا السيارى، ومصدر الحياة لكل الكائنات على وجه الأرض، فهى التى تبخر مياه البحر، وترفعها غيوماً فى الجو، وتزلها أمطاراً على الأرض، حيث تجري جداول وأنهاراً تروى زروعنا وتنمى غرسنا، وتشير الرياح، وتهيج الأنواء، فتطهر الهواء وتنقيه، وترجى السفن والمراكب فى عباب المحيط، وهى التى تجر المركبات، وتدير الآلات البخارية، وما الفحم الحجرى إلا حرارة نورها المدخرة منذ قديم الزمان لينتفع بها بنو العصور المتأخرة... فلا حياة على وجه الأرض بدون هذه الشمس المسخرة.

قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (١).

ودورة الأوكسجين والكربون بين المخلوقات والنباتات معجزة من صنع الخالق (سبحانه وتعالى)، فنسبة كل منهما لا تتغير أبداً، لأن الله عز وجل قد جعل غذاء النباتات من حمض الكربون، فهى تمتصه من الهواء، أو من المطر، أو من التربة بأوراقها وجذورها لتكوّن منه

خلاياها وأنسجتها ثم تنفثه كالزفير وقد أحالته بقدرة الله العظيمة إلى أوكسجين جديد الصنع ليستنشقه الحيوان والإنسان بالتنفس ثم يحيلانه بقدرة الله العظيمة إلى حمض (كربون) جديد الصنع بالزفير ثم ينتشر في الهواء، فتمتصه أيضاً النباتات منه، وتنفثه أوكسجيناً فيستنشقه الحيوان والإنسان، وهكذا الأمر دواليك حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

يقول (اسحق إزيموف) في كتابه (الحياة والطاقة ص ٤٣٩) وقد أوضحت تجارب برستلي أنه زرع نباتاً تحت غطاء زجاجي فلم ينم، لكن عندما وضع الفأر والنبات معا تحت الغطاء الزجاجي عاشا معاً لمدة أطول مما يعيشه أحدهما بمفرده فسبحان الذي أتقن كل شيء، وتزهت أفعاله عن النقص والقصور.

وعندما ينظر الإنسان في فيه يجد ثلاثة أنواع من الأسنان :

القواطع، والأنياب، والأضراس، والأخيرة على نوعين : أضراس أمامية وأخرى خلفية. ولكل قاطع وناب جذر واحد، أما الضرس الأمامي فله جذران، وللضرس الخلفي ثلاثة جذور وتنتهي القواطع بحد شببيه بحد السكين، أما الأنياب فتنتهي على شكل إزميل، أما الأضراس فتنتهي بسطوح ذات نتوءات فلماذا أبدعها الخالق هكذا؟

إن القواطع تنتهي بحد شببيه بحد السكين لأن عملها يقتضي ذلك وهو تقطيع الأغذية كالخبز والخضروات.

أما الأنياب فتنتهي على شكل إزميل؛ لأن عملها يقتضي ذلك وهو تمزيق اللحوم.

أما الأضراس فتنتهي بسطوح ذات نتوءات لأن وظيفتها طحن الطعام، كما أن تعدد جذور الأضراس يعطيها ثباتاً في تأدية وظيفتها.

فسبحان القدوس الذي تنزه في صناعته عن النقص والقصور . يقول الدكتور «إكرس» وهو خبير فني في جامعة رايس ، وقد تعاون مع جراحين آخرين في صنع قلب صناعي ، يقول : إنَّ جسمنا هو الكمال ذاته وهو غاية ما تصل إليه التقنية ، ومهما يكن نوع الآلة التي يمكن أن تصنع ، ومهما بلغت من التعقيد والكمال ، فإننا نجد في تركيب جسمنا ما هو أفضل منها ونظرة واحدة نلقيها على تكوين الطفل في رحم أمه تقنعنا بأعجوبة المراحل التي يمر بها كما تقنعنا بأنه لا بد لهذه الصنعة المركبة العجيبة من صانع ماهر ، وكلما تعمق الإنسان في تشريح الجسم وأدرك دقائقه يزداد إيماناً بوجود الخالق ، إنَّ عملية الأكل والبلع والهضم ، وتحويل الطعام إلى دم وسكر وأحماض ، والاحتفاظ بالنافع منه ، وطرح الفضلات . . كل أولئك مما يدعو بلسان الواقع إلى الإقرار بوجود الخالق (١) .

يقول «فلتن أ. ليفن» : العالم الذي نعيش فيه مليء بآلات كثيرة عجيبة معقدة اخترعها أهل الأزمنة الحديثة ، ولم يكن أجدادنا يعرفون عنها شيئاً .

فعندنا طائرات بلغت من دقة الصنع مبلغاً باهراً بحيث يستطيع قائدها في طرفة عين أن يعرف في أي مستوى هو وبأية سرعة ينطلق ، وأن يتبين في أي اتجاه يسير ، ومصيب أو مخطيء ، ذلك إلى مخترعات أخرى كالراديو والتلفزيون والآلات الحاسبة التي تقوم بعمليات الجمع والطرح والضرب والقسمة في لحظة دون أن تخطيء أو تنسى ، وإذا دقت النظر في الآلات جميعها لم تجد آلة أعجب ولا أدق صنعة من جسم الإنسان ، فليس في الآلات التي ابتدعها العقل آلة تستطيع أن

(١) جماعة من العلماء ، خلق لا تطور ، تعريب إحسان حقى ، ص ١٣٧ .

ترئى وتسمع، وتحس، وتذوق، ولا آلة تبكى وتضحك أو ترضى وتغضب.. (١).

فتقدس الله (عز وجل) وتنزيهه عن كل نقص ركن من أركان عقيدة المسلم ويقتضى هذا التقديس:

(أ) وصف الله عز وجل بكل كمال مع الإجلال والتعظيم، فهو سبحانه وتعالى عظيم، فليس له مثل أو شبهة أو كفؤ أو سمي، أو ند، أو مضاد، وله من الصفات أعظمها وأوسعها.

ومن تمام تنزيهه سبحانه وتعالى إثبات صفات الكبرياء والعظمة له، فإن التنزيه مراد لغيره، ومقصود به حفظ كماله عن الظنون السيئة. كظن الجاهلين الذين يظنون به ظن السوء. وهو ظن لا يليق بجلاله سبحانه.

(ب) وحتى يتحقق هذا التنزيه فلا بد للعبد أن يطهر قلبه من أدران الشرك، ويطهر ماله من الشبهات.

فالشرك والتنزيه لا يجتمعان في قلب عبد أبداً؛ لأن التنزيه لب التوحيد وماء حياته، والشرك عدو التنزيه المين.

والمؤمن ينزه الله (عز وجل) بالبعد عن كل مظاهر الشرك، كالذبح لغير الله، والنذر لغير الله، والاستغاثة والاستعاذة بغيره (سبحانه) وتنزيه الله (عز وجل) وتوحيده هما طريق الجنة، عن عبادة ابن الصامت قال: قال رسول الله (ﷺ): «من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبده ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حق، والنار حق، أدخله الله الجنة على ما

(١) ابن خليفة عليوى، سبعون برهاناً علمياً على وجود الذات الإلهية، ص ٣٧٢.

كان من العمل»^(١).

والمؤمن يتعد عن ظن سوء بربه (سبحانه وتعالى) لأن ظن السوء لا يليق بالله (سبحانه وتعالى) فهو سبحانه منزّه عن ذلك . وقد فصح الله عزّ وجلّ أقواماً ساورهم هذا الظن . فقال تعالى : ﴿ يَظُنُّونَ بِاللّٰهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلّٰهِ ﴾^(٢).

وقد فسر سوء الظن بأنه سبحانه لا ينصر رسوله وأن أمره سيضمحل ، وأن ما أصابه لم يكن بقدر الله وحكمته فهو ظن سوء لأنه ينكر حكمة الله عزّ وجلّ وينكر قدره ، وينكر أن يتم أمر رسوله وأن يظهر دينه على الدين كله .

فهو ظن سوء لأنه لا يليق به (سبحانه) ولا يليق بحكمته وحمده ووعد الصادق .

وكثير من الناس يظنون بالله ظن السوء خاصة فيما يختص بهم ، وفيما يفعله بغيرهم ، ولا يسلم من ذلك إلا من عرف الله ، وعرف أسمائه وصفاته وموجب حكمته وحمده^(٣).

وقد تحدث للمؤمن أحداث على غير ما يحب ويتمنى ، بيد أنه عندما يسمع التوجيه الإلهي :

﴿ قُلْ لَّنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾^(٤).

فإنه يستكين ويسلم لله عزّ وجلّ فيما أراد ، ويمتلىء بذلك تحملاً

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ٦/ ٤٧٤ كتاب أحاديث الأنبياء باب ٤٧ ، ومسلم في

صحيحه ١/ ٥٧ كتاب الإيمان ، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة .

(٢) سورة آل عمران آية ١٥٤ .

(٣) محمد بن عبد الوهاب ، كتاب التوحيد ، ص ٢١٧ .

(٤) سورة التوبة آية ٥١ .

وجلاده . ولا يلجأ أبداً إلى سوء الظن ؛ لأنه يعلم يقيناً أن ما أصابه هو خير له ، وإن خفى عليه كنهه .

والمؤمن يكثر من ذكر هذين الاسمين في ركوعه وسجوده ، لما أثر عن رسول الله (ﷺ) من أنه كان يقول في ركوعه وسجوده : ﴿سبح قدوس رب الملائكة والروح﴾ (١) .

وكان الرسول (ﷺ) يسبح الله باسمه القدوس بعد فراغه من الوتر كما جاء في حديث أبي بن كعب قال : كان رسول الله (ﷺ) يقرأ في الوتر بسبح اسم ربك الأعلى ، وقل يا أيها الكافرون وقل هو الله أحد ، فإذا سلم قال : سبحان الملك القدوس ثلاث مرات ، ويمد بالثالثة صوته (٢) .

«اللهم طهرنى من الذنوب والخطايا، اللهم نقى منها كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس، اللهم طهرنى بالثلج والبرد والماء البارد» (٣) .

«رب تقبل منى توبتى، واغسل حوبتى، وأجب دعوتى، وثبت حجتى، واهد قلبى، وسدد لسانى، وأسئل سخيمة قلبى» (٤) .

«اللهم إني أعوذ بك من العجز، والكسل، والجبن، والبخل، والهزم، والقسوة والغفلة، والعيالة، والذلة، والمسكنة، والرياء، وأعوذ بك من الصم والبكم، والجنون، والجذام، والبرص، وسىء الأسقام» (٥) .

(١) رواه مسلم وغيره (سبق تخريجه) .

(٢) رواه أحمد ١٢٣ / ٥ بإسناده صحيح ، وأبو داود (١٤٣٠) فى الوتر ، والنسائى ٢٣٥ / ٣ فى قيام الليل .

(٣) أخرجه الترمذى ٥٢٣ / ٥ وحسنه .

(٤) رواه الترمذى والحاكم وصححه ووافقه الذهبى ٥١٩ / ١ وانظر صحيح الترمذى ١٧٨ / ٣ .

(٥) رواه الحاكم والبيهقى ، وانظر صحيح الجامع ٤٠٦ / ١ وإرواء الغليل برقم ٨٥٢ .

السلام الطيب

١١ ١٢

السلام اسم من أسماء الله عز وجل، ومعناه: ذو السلامة مما يلحق المخلوقين من الفناء والنقص والعيب^(١).

فالسّلام في صفة الله (سبحانه)، هو الذي سَلِمَ من كل عيب، وبريء من كل آفة ونقص يلحق المخلوقين. فهو سبحانه المنزه ذو السلامة من جميع العيوب والنقائص لكمالهِ في ذاته، وصفاته وأفعاله.

قال ابن القيم:

وهو السلام على الحقيقة سالم من كل تمثيل ومن نقصان

فهو الذي سلمت ذاته عن العيب، وسلمت صفاته عن النقص، وسلمت أفعاله عن الشر، فكل سلامة معزوة إليه صادرة أصلاً منه.

وهو سبحانه السلام ناشر السلام بين الأنام، ومانع السلامة في الدنيا والآخرة.

وقد ورد هذا الاسم في سورة الحشر، قال تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ﴾^(٢).

ويتحدث الإمام ابن القيم في كتابه «بدائع الفوائد» عن هذا الاسم فيقرر أن إطلاق اسم السلام على الله تبارك وتعالى أولى من كل إطلاق آخر، وهو سبحانه أحق بهذا الاسم من كل مسمى به لسلامته سبحانه

(٢) سورة الحشر آية ٢٣.

(١) الزجاجي، مرجع سابق، ص ١٢٥.

من كل عيب ونقص من كل وجه ، فهو السلام الحق بكل اعتبار .

ويعدد أمثلة كثيرة لأحقية الله تعالى باسم السلام فهو سبحانه سلام في ذاته عن كل عيب ونقص يتخيله وهم ، وسلام في صفاته من كل عيب ونقص ، وسلام في أفعاله من كل عيب ونقص وشر وظلم ، وفعل واقع على غير حكمه بل هو السلام الحق من كل وجه ، فعلم أن استحقاقه تعالى لهذا الاسم أكمل من استحقاق من كل ما يطلق عليه ، وهذا هو حقيقة التنزيه الذي نزه الله به نفسه ، ونزهه به رسوله (ﷺ) فهو السلام من الصاحبة والولد ، والسلام من النظير والمماثل ، والسلام من الشريك .

وإذا نظرت إلى أفراد صفات كماله وجدت كل صفة سلاماً مما يضاد كماله فحياته سلام من الموت والنوم . وكذلك قيوميته سلام من التعب واللغوب ، وعلمه سبحانه سلام من عزوب شيء عنه ، أو عروض نسيان أو حاجة إلى تذكر ، وإرادته سلام من خروجها عن الحكمة والمصلحة ، وكلماته سلام من الكذب والظلم ، بل تمت كلماته صدقاً وعدلاً ، وغناه سلام من الحاجة إلى غيره بوجه ، بل كل ما سواه محتاج إليه ، وهو غنى عن كل ما سواه ، وملكه سلام من منازع فيه أو مشارك وألوهيته سلام من مشارك له فيها ، وحلمه وصفحه ومغفرته سلام من أن يكون عن حاجة منه أو مصانعة ، بل هو محض جوده وإحسانه ، وكذلك عذابه أو عقابه سلام من أن يكون ظلماً أو غلظة بل هو محض حكمته وعدله ، وقضاؤه وقدره سلام من العتب والجور ، وشرعه ودينه سلام من التناقض والاضطراب بل شرعه حكمة ورحمة . وكذلك عطاؤه سلام من كونه معارضة أو حاجة إلى المعطى ، ومنعه سلام من البخل والخوف والإملاق بل عطاؤه إحسان محض لا معاوضه ولا حاجة ، ومنعه عدل محض ، وحكمه لا يشوبه بخل ولا

عجز، واستواؤه وعلوه على عرشه سلام من أن يكون محتاجاً إلى ما يحمله أو يستوى عليه بل العرش محتاج إليه، وحملته محتاجون إليه، فهو الغنى عن العرش وعن حملته وعن كل ما سواه، فهو استواء وعلو لا يشوبه حصر ولا حاجة إلى عرض ولا غيره... ونزوله كل ليلة إلى سماء الدنيا سلام مما يضاد علوه و سلام مما يضاد غناه، وكماله سلام من كل ما يضاد كماله. وغناه وسمعه وبصره سلام من كل ما يتخيله مشبه أو يتقوله معطل، وموالاته لأوليائه سلام من أن تكون عن ذل كما يوالى المخلوق المخلوق بل هى موالاته رحمة وخير وإحسان وبر كما قال: «وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الدن» فلم ينف أن يكون له ولي مطلقاً بل نفى أن يكون له ولي من الدن، وكذلك محبته لمحبيه وأوليائه سلام من عوارض محبة المخلوق ومن كونها محبة حاجة إليه أو تملك له أو انتفاع بقربه و سلام مما يقوله المعطلون فيها، وكل ما أضافه إلى نفسه من اليد والوجه فإنه سلام عما يتخيله مشبه أو يتقوله معطل. فتأمل كيف تضمن اسمه السلام كل ما نزه عنه تبارك وتعالى (١).

ومن اسمه (السلام) سبحانه اشتقت السلامة والأمن من كل خوف؛ ولذلك كان من كلام الرسل يوم القيامة «اللهم سلم سلم» ومن اسمه السلام، سبحانه، اشتق الإسلام، وهو دين الله الحق. قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾.

وجعل سبحانه السلام تحية من عنده لعباده المؤمنين، قال تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ (٢)، ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾ (٣).

(١) ابن القيم الجوزية، بدائع الفوائد، ج ٢، ص ١٣٥، ص ١٣٧.

(٢) سورة الأحزاب آية ٤٤. (٣) سورة يس آية ٥٨.

وجعل سبحانه «السلام» أيضاً تحية ملائكته الكرام لعباده المؤمنين عند دخولهم الجنة، قال تعالى على لسان الملائكة: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ (١).

كما جعل سبحانه السلام تحية المسلمين في عبادتهم: «السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباده الله الصالحين»، ومن هذا الاسم سمى الله عز وجل الجنة دار السلام، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٢).

فاللهم أنت السلام ومنك السلام: تباركت يا ذا الجلال والإكرام.
قال الشاعر:

لكل شيء أنت السلام ولا سلام إلا رضاك رياه
وكل أمر قضيتة باطنه خير وإن لم نكن عرفناه

والسلام سبحانه وتعالى يُسَلِّمُ المؤمنين وينقذهم من الشدائد.
فعندما ألقى الكافرون إبراهيم (عليه السلام) في النار، وهم يرددون:
﴿حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ (٣).

جاءت السلامة والإنقاذ من النار من الله السلام: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ (٤).

وكانت النهاية:

﴿فَارَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾ (٥).

﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ (٦).

(١) سورة الزمر آية ٧٣. (٢) سورة يونس آية ٢٥.

(٣) سورة الأنبياء آية ٦٨. (٤) سورة الأنبياء آية ٦٩.

(٥) سورة الصافات آية ٩٨. (٦) سورة الأنبياء آية ٧٠.

وعندما هدد فرعون بقتل موسى (عليه السلام): ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ (١).

استعاذ موسى عليه السلام بربه: ﴿وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ (٢).

فقيض الله له مدافعاً عنه هو مؤمن آل فرعون: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ (٣).

ولم يجد هذا الحوار الهادئ مع آل فرعون، فجاءت القاصمة: ﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ يَانَهُمْ كَذَبُوا بآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ (٤).

﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ. النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ (٥).

ونجى الله موسى ومن معه وسلمهم من بطش فرعون وجبروته: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ (٦).

والأرض التي نعيش عليها شبه كرة معلقة في الفضاء، وهي تتبع أمها الشمس فتدور حولها، مع أخواتها من الكواكب الأخرى،

(١) سورة غافر آية ٢٦.

(٢) سورة غافر آية ٢٧.

(٣) سورة غافر آية ٢٨.

(٤) سورة الأعراف آية ١٣٦.

(٥) سورة غافر آية ٤٦.

(٦) سورة الأعراف آية ١٣٧.

والشمس نجم متواضع فى مجموعة تتألف من ملايين النجوم تعرف بالمجرة . والمجرة التي تتبعها الشمس أو المجموعة الشمسية تعرف باسم «درب التبانة» وهى عبارة عن حشد من النجوم يزيد عددها عن مائة ألف مليون نجم تتحرك كمجموعة متماسكة فى فلك محدود فى الفضاء الكونى . وهذه المجرة جزء من المجرة العظمى أو المجموعة المجرية ، وتقع مجرتنا بالقرب من طرف هذه المجرة العظمى التي تضم عشرات الآلاف من المجرات .

وهذه المجرة العظمى ليست كل الكون فهناك مجرات عظمى غيرها فى مجموعات مجرية أكبر! ويكفى أن نعرف أن بالسماء من أمثال مجرتنا (درب التبانة) ألف مليون مجرة!

فالكون حافل بالمجرات ، والمجرات تتكون من حشود من النجوم من أمثال شمسنا . . . والكل يسبح فى الكون ولم يحدث أن اصطدمت مجرة بأختها ، ولا نجم بنجم ، ولا كوكب بآخر ، فمن الذي يهيمن على هذا النظام ، ويجعله يسبح فى سلام ؟ . أنه السلام سبحانه وتعالى .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ (١) .

وهناك تعاضد وتعاون بين أجهزة الجسم المختلفة ، فكل جهاز يتعاون مع غيره لخدمة الإنسان . فالإنسان يتناول طعامه الذي يحتوى على أنواع عديدة من الأغذية ، بعضها بسيط كالسكر والملح والماء ، وبعضها الآخر تركيبه معقد كاللحوم والخضروات .

فماذا تصنع أجهزة الجسم المختلفة حتى يستفيد الإنسان من طعامه ؟

يقوم الجهاز الهضمي بتحويل الأغذية المعقدة إلى مواد ذاتها بسيطة التركيب، تصل إلى الأمعاء ويقوم الدم بامتصاصها وتوزيعها على خلايا الجسم. ولكن هذا الغذاء يحتاج إلى أكسده أى احتراق بطيء لإطلاق الطاقة المخزونة فيه فكيف يتم ذلك؟

يقوم الجهاز التنفسي بامتصاص الأكسجين من الهواء، ليقوم الأكسجين بهذه الأكسدة، فيتفاعل مع الغذاء في خلايا الجسم لإطلاق ما به من طاقة. ثم يطلق هذا الجهاز أيضاً ثاني أكسيد الكربون الناتج عن هذه العملية.

ولكن كيف يصل الغذاء من الجهاز الهضمي، والأكسجين من الجهاز التنفسي إلى خلايا الجسم؟

يقوم الجهاز الدورى الدموى بهذه العملية فينقل الغذاء والأكسجين إلى خلايا الجسم.

وهكذا نرى هذه الأجهزة تعمل فى انسجام ووثام وسلام ولم يحدث مرة أن تعارضت وظيفة جهاز من هذه الأجهزة مع غيره أو رفض أن يقوم بعمله المنوط منه وما ذاك إلا أثر من آثار اسمه السلام (سبحانه).

أما اسم «الطيب» فقد ورد في الحديث الصحيح عن أبى هريرة (رضى الله عنه) قال: قال رسول الله (ﷺ): «إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً وإن الله تعالى أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون ٥١] وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة ١٧٢]، ثم ذكر الرجل يطيل السفر: أشعس أغبر، يميد يديه إلى السماء: يارب يارب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذى بالحرام، فأنى

يستجاب لذلك؟» (١).

ومعنى الطيب في اللغة: الطاهر والنظيف، والحسن والعفيف،
والسهل واللين، وذو الأمانة والخير الكثير والذي لا خبث فيه ولا
غدر (٢) والطيب من الإنسان من تعرى من الجهل والفسق وقبائح
الأعمال وتحلى بالعلم والإيمان ومحاسن الأعمال قال تعالى: ﴿الَّذِينَ
تَتَوَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ (٣) (٤).

ومعنى الطيب في حق الله عز وجل: المنزه عن النقائص والعيوب،
وهذا كما في قوله: ﴿وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا
يَقُولُونَ﴾ (٥) والمراد: المنزهون من أدناس الفواحش وأوضارها (٦).

فالله عز وجل طيب لا يقبل من الصدقات إلا ما كان طيباً ولا يقبل
من الأعمال إلا ما كان طيباً طاهراً من المفسدات كلها كالرياء والعجب،
ولا من الأموال إلا ما كان حلالاً طيباً فإن الطيب توصف به الأعمال
والاعتقادات، فكل هذه تنقسم إلى طيب وخبيث.

والمؤمن كله طيب قلبه ولسانه وجسده بما سكن في قلبه من الإيمان،
وظهر على لسانه من الذكر، وعلى جوارحه من الأعمال الصالحة التي
هي ثمرة الإيمان، وداخله في اسمه، فهذه الطيبات كلها يقبلها الله (عز
وجل) ومن أعظم ما يحصل به طيبة الأعمال للمؤمن طيب مطعمه،

(١) رواه مسلم برقم (١٠١٥) ورواه الترمذي وأحمد والدارمي.

(٢) انظر: لسان العرب مادة (طيب) ١/ ٥٦٣.

(٣) سورة النحل آية ٣٢.

(٤) الراغب الاصفهاني، مرجع سابق، ص ٣٠٦.

(٥) سورة النور آية ٢٦.

(٦) زين الدين ابن رجب الحنبلي جامع العلوم والحكم، ج ١، ص ٢٥٨، ص ٢٥٩.

وأن يكون من حلال، فبذلك يزكو عمله، وفي الحديث السابق إشارة إلى أنه لا يقبل العمل ولا يزكو إلا بأكل الحلال، وأن أكل الحرام يفسد العمل ويمنع قبوله^(١).

وتنزيه السلام الطيب سبحانه وتعالى من أركان توحيده، ولذلك فعلى العبد المؤمن أن ينزه ربه عن كل نقص وآفة وعيب. ويقتضى هذا تأدباً مع الله (عز وجل) فلا يُنسب إليه شيء من القصور أو الجور ويتأدب المؤمن أيضاً مع أنبياء الله (عز وجل) لأنه سبحانه سلم عليهم ليقتنئ بذلك البشر فلا يذكرونهم بسوء فهم أفضل خلق الله عز وجل، وقد تحملوا في سبيل الله الشدائد والمحن، فخصّهم ربهم بالسلام:

﴿سَلَامٌ عَلَى نُوْحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ (٢).

﴿سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ (٣).

﴿سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ﴾ (٤).

﴿وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ (٥).

ويعمل المؤمن على تربية قلبه على التقوى والورع ومجانبة الشبهات والبعد عن الشهوات. حتى يلقي ربه بقلب سليم خال من الغل والغش والحسد والحقد. فقلب المؤمن ينبغي أن يكون سليماً فياضاً بالحب على إخوانه، رحيماً بمن حوله فيتألم لآلامهم، ويفرح لفرحهم، ينفّس عن مكروبهم، ويستر عيوبهم. مصداقاً لحديث رسول الله (ﷺ): «مثل المؤمنين في توادهم وتعارفهم وترحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى» (٦).

(٢) سورة الصافات آية ٧٩.

(٤) سورة الصافات آية ١٢٠.

(٦) رواه البخاري ومسلم (٢٥٨٦).

(١) المرجع السابق، ص ٢٦٠.

(٣) سورة الصافات آية ١٠٩.

(٥) سورة الصافات آية ١٨١.

ويعمل المؤمن على إفشاء السلام لأنه دعامة من دعائم الحب،
وشعيرة من شعائر الإسلام.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا
وَتَسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا﴾ (١).

عن أبى هريرة (رضى الله عنه) قال: قال رسول الله (ﷺ) «لا
تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا أو لا أدلكم على شيء
إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم» (٢).

وعن عبد الله بن سلام (رضى الله عنه) قال: أول ما قدم رسول الله
(ﷺ) المدينة انجفل الناس إليه، فكننت فيمن جاءه، وكان أول ما سمعت
من كلامه أن قال: أيها الناس أفشوا السلام وأطعموا الطعام، وصلوا
بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام» (٣).

ويستحب أن يقول المبتدئ بالسلام: «السلام عليكم ورحمة الله
وبركاته». فيأتى بضمير الجمع وإن كان المسلم عليه واحداً.

ويقول المجيب: «وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته»، فيأتى بواو
العطف في قوله «وعليكم».

عن عمران بن الحصين (رضى الله عنه) قال جاء رجل إلى النبي
(ﷺ) فقال: السلام عليكم فرد عليه ثم جلس، فقال النبي (ﷺ)،
عشر. ثم جاء آخر فقال: السلام عليكم ورحمة الله، فرد عليه فجلس
فقال: «عشرون». ثم جاء آخر فقال: السلام عليكم ورحمة الله

(١) سورة النور آية ٢٧.

(٢) رواه مسلم (٥٤).

(٣) رواه الترمذى، وقال: حديث صحيح وصححه الحاكم (١٣/٣) ووافقه الذهبي.

وبركاته، فرد عليه فجلس فقال: ثلاثون»^(١).

وإذا كان الله عز وجل طيباً ولا يقبل إلا طيباً والطيب من كل شيء هو مختاره تعالى: فلا بد للمؤمن أن يكون طيباً، ويشرح ذلك ابن القيم فيقول^(٢): فللمؤمن الكلم الطيب الذي لا يصعد إلى الله إلا هو، فينفر من الفحش في المقال والتفحش في اللسان والنداء، والكذب، والنميمة، والبهت، وقول الزور وكل كلام خبيث... وفي الحديث قال رسول الله ﷺ: «ليس المؤمن بالطعان، ولا اللعان، ولا الفاحش، ولا البذيء»^(٣).

وكذلك لا يألف المؤمن من الأعمال إلا أطيها، وهي الأعمال التي اجتمعت على حسنها الفطرة السليمة مع الشرائع النبوية، وزكاتها العقول الصحيحة، فاتفق على حسنها الشرع والعقل والفطرة، مثل أن يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً، ويؤثر مرضاته على هواه، ويتحجب إليه جهده وطاقته ويحسن إلى خلقه ما استطاع، فيفعل بهم ما يحب أن يفعلوه به، ويعاملوا به، ويدعهم بما يجب أن يدعوه منه، وينصحهم بما ينصح به نفسه ويحكم لهم بما يحب أن يحكم له به، ويحمل أذاهم ولا يحملهم أذاه، ويكف عن أعراضهم ولا يقابلهم بما نالوا من عرضه.

وللمؤمن - أيضاً - من الأخلاق أطيها وأزكاها، كالعلم، والوقار، والسكينة، والرحمة، والصبر، والوفاء، وسهولة الجانب؛ ولين العريكة، والصدق؛ وسلامة الصدر، والتواضع وخفض الجناح لأهل

(١) رواه أبو داود والترمذي وقال: حديث حسن، وإسناده قوي كما قال الحافظ في الفتح (٥/١١) وأفضل صيغ رد السلام: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته. وأقل الرد عليكم السلام لا مجرد قوله عليكم من غير ذكر السلام.

(٢) ابن القيم الجوزية، زاد المعاد، ح ١، ص ٦٥، ص ٦٦.

(٣) رواه الترمذي وحسنه، ورواه أحمد والبخاري في الأدب المفرد، وابن حبان والحاكم.

الإيمان والعزه، والغلظه على أعداء الله، والعفه والشجاعه والسخاء والمروءة وكل خلق اتفقت على حسنه الشرائع والفطر والعقول.

وكذلك لا يختار من المناكح إلا أطيبها وأزكاها، ومن الرائحة إلا أطيبها وأزكاها ومن الأصحاب والعشراء إلا الطيبين منهم. فروحه طيب، وبدنه طيب، وخلقه طيب، وعمله طيب، وكلامه طيب، ومطعمه طيب، ومشربه طيب، وملبسه طيب، ومنكحه طيب، ومدخله طيب، ومخرجه طيب، ومنقلبه طيب، ومثواه كله طيب، فهذا مما قال الله تعالى فيه: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (١).

اللهم أنت السلام ومنك السلام، حينا ربنا بالسلام (٢).

اللهم إنا نسألك موجبات رحمتك، وعزائم مغفرتك والسلامة من كل إثم والغنيمة من كل بر، والفوز بالجنة، والنجاة من النار (٣).



(١) سورة النحل آية ٣٢.

(٢) أخرجه البيهقي ٧٣/٥ بلفظ: سمعت عمر يقول إذا رأى البيت: اللهم أنت السلام... وسنده حسن.

(٣) رواه الحاكم ٥٢٥/١ وصححه ووافقه الذهبي، وحسنه عبد القادر الأرئوط في الأذكار للنووي ص ٣٤٠.

السيد الصمد

١٣ ١٤

السيد: يطلق على الرب، والمالك، والشريف، والفاضل، والكريم، والحليم، والرئيس، والزوج، ومتحمل أذى قومه. وقد ورد هذا الاسم في الحديث الصحيح: «قال رسول الله (ﷺ) السيد الله تبارك وتعالى»^(١) فالله عز وجل هو السيد الذي يملك نواصي الخلق ويتولاهم، فالسؤدد كله حقيقته لله عز وجل. وهذا لا ينافي السيادة الإضافية المخصوصة بالبشر فسيادة الخالق ليست كسيادة المخلوق^(٢).

والصمد: السيد الذي انتهى سؤدده، فالتناس يصمدونه في حوائجهم: أي يقصدونه ويعتمدونه^(٣).

وقال الراغب: الصمد السيد الذي يصمد إليه في الأمر، وصمد صمده قصده معتمداً عليه قصداً، وقيل الصمد الذي ليس بأجوف^(٤).

وفى تفسير بن كثير: عن ابن عباس (رضي الله عنه) قال: الصمد يعنى الذى يصمد إليه الخلائق فى حوائجهم ومسائلهم، وهو السيد الذى كمل فى سؤدده، والشريف الذى كمل فى شرفه، والعظيم الذى كمل فى عظمته، والحليم الذى كمل فى حلمه، والعليم الذى كمل فى علمه، والحكيم الذى كمل فى حكيمته، وهو الذى قد كمل فى كل

(١) رواه أبو داود ٤/٢٥٤، وأحمد، وصححه الألبانى فى صحيح سنن أبى داود برقم ٤٠٢١.

(٢) ابن كثير، النهاية فى غريب الحديث، ج ٢، ص ٤١٨.

(٣) الزجاجى، مرجع سابق، ص ٢٥٢.

(٤) الراغب الأصفهاني، مرجع سابق، ٢٨٦.

أنواع الشرف والسؤدد.

وقال الحسن: الصمد: الحى القيوم الذي لا زوال له. وقال عكرمه الصمد الذي لم يخرج منه شيء ولا يطعم، وقال الربيع بن أنس الصمد هو الذي لم يلد ولم يولد كأنه جعل ما بعده تفسيراً له. وقال ابن عباس وسعيد ومجاهد وعكرمه وعطاء بن أبى رباح: الصمد: الذي لا جوف له. وقال الحافظ أبو القاسم الطبرانى في كتاب السنة بعد إيراده كثيراً من هذه الأقوال في تفسير الصمد: وكل هذه صحيحة وهى صفات ربنا (عز وجل) هو الذي يصمد إليه في الحوائج، وهو الذي انتهى سؤوده، وهو الصمد الذي لا جوف له، ولا يأكل ولا يشرب وهو الباقي بعد خلقه (١).

وقال ابن الأنبارى: لا خلاف بين أهل اللغة أن الصمد السيد الذي ليس فوقه أحد الذي يصمد إليه الناس في حوائجهم وأمورهم، واشتقاقه يدل على هذا فإنه من الجمع والقصد الذي اجتمع القصد نحوه، واجتمعت فيه صفات السؤدد، وهذا أصله في اللغة كما قال:

ألا بكر الناعى بخير بنى أسد بعمر بن يربوع وبالسيد الصمد

والعرب تسمى أشرافها بالصمد لاجتماع قصد القاصدين إليه واجتماع صفات السيادة فيه (٢).

قال ابن القيم:

وهو الإله السيد الصمد الذي صمدت إليه الخلق بالإذعان

الكامل الأوصاف من كل الوجوه ه كماله ما فيه من نقصان

(١) إسماعيل بن كثير، مرجع سابق، ج ٤، ص ٥٧٠.

(٢) ابن القيم الجوزية، بدائع الفوائد، ج ١، ص ١٦٠.

فالله (عز وجل) هو الصمد الذي تصمد إليه أى تقصده جميع المخلوقات بالذل والحاجة والافتقار، ويفزع إليه العالم بأسره وهو الذي قد كمل علمه وحكمته وحلمه وقدرته وعظمته ورحمته وسائر أوصافه، فالصمد هو كامل الصفات، وهو الذي تقصده المخلوقات في كل الحاجات (١).

وقد ورد اسم الصمد مرة واحدة في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ . اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ (٢).

فالله عز وجل هو السيد الصمد كامل الصفات، وهو الذى تقصده جميع المخلوقات في كل الأمور والحاجات.

وقد علم رسول الله (ﷺ) أصحابه ألا يقصدوا إلا الله (عز وجل) ولا يستعينوا بسواه.

عن ابن عباس (رضي الله عنهما)، قال: كنت خلف النبي (ﷺ)، يوماً فقال: «يا غلام إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله واعلم: أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك رفعت الأقلام، وجفت الصحف» (٣).

فالله (عز وجل) هو السيد الصمد المقصود من جميع خلقه لا يخيب رجاء من ارتجاه، عن أبى هريرة (رضي الله عنه) عن رسول الله (ﷺ)، أنه قال: قال الله (عز وجل) أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه حيث يذكرني

(١) عبد الرحمن آل سعدى، الحق الواضح المبين، ص ٧٥.

(٢) سورة الإخلاص آية (١-٢).

(٣) رواه الترمذى (٢٥١٨)، وقال: حديث حسن صحيح.

- ولله أفرح بتوبة عبده من أحدكم يجد ضالته بالفلاة - ومن تقرب إلى شبراً، تقرب إليه ذراعاً، ومن تقرب إلى ذراعاً، تقرب إليه باعاً، وإذا أقبل إلى يمشى، أقبلت إليه أهول» (١).

فهو سبحانه وتعالى خير مقصود وخير مأمول بابه مفتوح إلى يوم القيامة أمرنا بالدعاء وضمن أن يستجيب لنا.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ (٢).

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ (٣).

عن ابن جريج قال: قال لي عطاء: قال لي طاوس: يا عطاء لا تنزلن حاجتك بمن أغلق دونك أبوابه وجعل عليها حجاباً، ولكن أنزلها بمن بابه مفتوح لك إلى يوم القيامة أملك أن تدعوه وضمن أن يستجيب لك» (٤).

فليس هناك من يدعى ويرجى غير الصمد سبحانه وتعالى، وعن أنس (رضي الله عنه) قال: سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: قال الله تعالى: «يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك. يا ابن آدم لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة» (٥).

(١) متفق عليه، رواه البخاري في باب الرجاء، ومسلم في باب التوبة.

(٢) سورة غافر آية ٦٠. (٣) سورة البقرة آية ١٨٦.

(٤) ابن الجوزي، مرجع سابق، ح ٢، ص ٢٨٨.

(٥) رواه الترمذي وقال حديث حسن (كتاب الدعوات) باب فضل التوبة والاستغفار، وزاد

بعد قوله حسن: غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه وله شاهد من حديث =

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (١).

فهو سبحانه وتعالى السيد الصمد المقصود في أمور الدنيا والآخرة.
عن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: لما كنا بغزوة تبوك، أصاب الناس مجاعة، فقالوا: يا رسول الله لو أذنت لنا فنحرننا نواضحنا، فأكلنا وأدهنا: فقال: رسول الله (ﷺ): «افعلوا» فجاء عمر (رضي الله عنه)، فقال: يا رسول الله إن فعلت، قل الظهر، ولكن ادعهم بفضل أزوادهم، ثم ادع الله لهم عليها بالبركة لعل الله أن يجعل في ذلك البركة فقال رسول الله (ﷺ): «نعم» فدعا بنطع فبسطه، ثم دعا بفضل أزوادهم، فجعل الرجل يجيء بكف ذرة، ويجيء الآخر بكف تمر، ويجيء الآخر بكسرة حتى اجتمع على النطع من ذلك شيء يسير، فدعا رسول الله (ﷺ) بالبركة، ثم قال: «خذوا في أوعيتكم» فأخذوا حتى ما تركوا في العسكر وعاء إلا ملؤوه، وأكلوا حتى شبعوا وفضل فضلة، فقال رسول الله (ﷺ): «أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، لا يلتقي الله بهما عبد غير شاك، فيحجب عن الجنة» (٢).

وعن أنس بن مالك قال: أصابت الناس سنة على عهد رسول الله (ﷺ) فبينما رسول الله (ﷺ)، يخطب على المنبر يوم الجمعة إذ قام أعرابي فقال: يا رسول الله هلك المال وجاع العيال فأدع الله لنا أن يسقينا فرفع رسول الله (ﷺ) يديه وما في السماء قرعة فثار سحاب

= أبي ذر عند الإمام أحمد وآخر من حديث ابن عباس عند الطبراني. فالحديث حسن كما قال الترمذي.

(١) سورة آل عمران آية ١٣٥.

(٢) رواه مسلم.

أمثال الجبال ثم لم ينزل عن منبره حتى رأينا المطر يتحادر عن لحيته . قال : فمطرنا يومنا ذلك ، ومن الغد ، ومن بعد الغد ، والذي يليه إلى الجمعة الأخرى ، فقام ذلك الأعرابي أو رجل غيره فقال : يا رسول تهديم البناء وغرق المال ، ادع الله لنا . فرفع رسول الله (ﷺ) يديه وقال : اللهم حولينا ولا علينا قال : فما جعل يشير بيده إلى ناحية من السماء إلا أفرجت حتى صارت المدينة مثل الجوبة (١) ، حتى سال الوادئ وادئ قناة شهراً فلم يجيء أحد من ناحية إلا حدث بالجود (٢) .

فهو سبحانه وتعالى السيد الصمد الذي يقصده الخلق في حوائجهم ويفزعون إليه عند شدائدهم فهو يحقق رجاءهم ويكشف شدائدهم ويقبل شفاعتهم .

عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، رضى الله عنهما : أن النبي (ﷺ) ، تلا قول الله (عز وجل) في إبراهيم (ﷺ) : ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعْنِي فَإِنَّهُ مِنِّي ﴾ (٣) وقول عيسى (ﷺ) : ﴿ إِن تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدُكَ وَإِن تُغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (٤) فرفع يديه وقال : « اللهم أمتي أمتي » وبكى ؟ فقال الله (عز وجل) : « يا جبريل اذهب إلى محمد وربك أعلم ، فسله ما يبكيه ؟ » فأتاه جبريل ، فأخبره رسول الله (ﷺ) بما قال : وهو أعلم ، فقال الله تعالى : « يا جبريل اذهب إلى محمد فقل : إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوؤك » (٥) .

وعن ابن عباس ، رضى الله عنه ، قال : سمعت رسول الله (ﷺ)

(١) الجوبة : الحفرة المستديرة الواسعة

(٢) أخرجه البخاري ومسلم في صحيحهما في كتاب الاستسقاء .

(٣) سورة إبراهيم آية ٣٦ .

(٤) سورة المائدة آية ١١٨ .

(٥) رواه مسلم .

يقول: ما من رجل مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلاً لا يشركون بالله شيئاً إلا شفّعهم الله فيه» (١).

فهؤلاء قبل الله شفاعتهم ولم يخيب رجاءهم لتوحيدهم الخالص. وحسن الظن بالله (عز وجل) هو الذي يحدو القلوب لتتضرع للواحد الصمد. فالله عز وجل عند ظن عبده به.

ففي الحديث عن أبي هريرة (رضي الله عنه) عن رسول الله (ﷺ) قال: قال الله (عز وجل): أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه حيث يذكرني» (٢).

وعن الأعمش عن عبد الله بن مسعود (رضي الله عنه) قال: «والذي لا إله غيره لا يحسن عبد بالله الظن إلا أعطاه ظنه وذلك بأن الخير بيده» (٣).

وكان الصالحون يستحيون أن يسألوا غير الله (عز وجل). عن سفيان بن عيينه قال: دخل هشام ابن عبد الملك الكعبة، فإذا هو بسالم بن عبد الله فقال له: يا سالم سلني حاجة، فقال له: إني لأستحي من الله أن أسأل في بيت الله غير الله. فلما خرج خرج في أثره فقال له: الآن قد خرجت فسلني حاجة.

فقال له سالم من حوائج الدنيا أم من حوائج الآخرة؟ فقال: بل من حوائج الدنيا فقال له سالم: ما سألت من يملكها فكيف أسأل من لا يملكها؟ (٤).

(١) رواه مسلم في باب الجنائز.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، ومسلم في كتاب التوبة باب في الخس على التوبة والفرح بها.

(٣) رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح، وقال الهيثمي في المجمع ١٠/١٤٨: رواه الطبراني موقوفاً، ورجاله رجال الصحيح إلا أن الأعمش لم يدرك ابن مسعود.

(٤) ابن الجوزي، مرجع سابق، ج ٢، ص ٩١.

فسؤال المخلوق للمخلوق سؤال الفقير للفقير، والرب تعالى كلما سأله كرمته عليه، ورضي عنك، وأحبك، والمخلوق كلما سأله هنت عليه وأبغضك ومقتك وقلاك، كما قيل:

الله يغضب إن تركت سؤاله وبني آدم حين يسأل يغضب

قال ابن القيم:

فالطلب من الخلق في الأصل محذور، ولا يباح إلا للضرورة كإباحة الميتة للمضطر، ونص أحمد على أنه لا يجب، وكذلك كان شيخنا^(١) يشير إلى أنه لا يجب الطلب والسؤال. وسمعتة يقول في السؤال: هو ظلم في حق الربوبية وظلم في حق الخلق وفي حق النفس أما في حق الربوبية: فلما فيه من الذل لغير الله، وارقة ماء الوجه لغير خالقه، والتعرض عن سؤاله بسؤال المخلوقين، والتعرض لمقتة إذا سأل وعنده ما يكفيه يومه. وأما في حق الناس: فبمنازعتهم ما في أيديهم بالسؤال، واستخراجه منهم. وأبغض ما إليهم: من يسألهم ما في أيديهم، وأحب ما إليهم: من لا يسألهم. فإن أموالهم محبوباتهم، ومن سألك محبوبك فقد تعرض لمقتك وبغضك.

وأما ظلم السائل نفسه: فحيث امتنها، وأقامها في مقام ذل السؤال، ورضي لها بذل الطلب ممن هو مثله، أو لعل السائل خير منه وأعلى قدراً، وترك سؤال من ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، فقد أقام السائل نفسه مقام الذل، وأهانها بذلك، ورضي أن يكون شحاذاً من شحاذ مثله. والله وحده الغني الحميد^(٢).

(١) يقصد شيخ الإسلام ابن تيمية.

(٢) ابن القيم الجوزية، مدارج السالكين، ح ٢، ص ١٣١.

عن عوف بن مالك الأشجعي (رضي الله عنه) قال : كنا عند رسول الله (ﷺ) تسعة أو ثمانية أو سبعة ، فقال : «ألا تبايعون رسول الله (ﷺ)» وكنا حديثي عهد ببيعة ، فقلنا : قد بايعناك يا رسول الله ، ثم قال : «ألا تبايعون رسول الله (ﷺ)» فبسطنا أيدينا وقلنا : قد بايعناك يا رسول الله ، فعلام نبايعك؟ قال : «على أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، والصلوات الخمس وتطيعوا الله وأسر كلمة خفية» ولا تسألوا الناس شيئاً فلقد رأيت بعض أولئك نفر يسقط سوط أحدهم فما يسأل أحداً يناوله أياه (١) .

واليد العليا خير من اليد السفلى ، عن ابن عمر (رضي الله عنه) قال أن النبي (ﷺ) قال وهو على المنبر ، وذكر الصدقة والتعفف عن المسألة : «اليد العليا خير من اليد السفلى واليد العليا هي المنفقة ، والسفلى هي السائلة» (٢) .

وكثرة سؤال الخلق وبأل على صاحبه يوم القيامة ، عن ابن عمر (رضي الله عنهما) أن النبي (ﷺ) قال : «لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله تعالى وليس في وجهه مُرعة لحم» (٣) .

وقد تكفل رسول الله (ﷺ) بالجنة لمن ترك السؤال ، عن ثوبان (رضي الله عنه) قال : قال رسول الله (ﷺ) : «من تكفل لي أن لا يسأل الناس شيئاً ، وأتكفل له بالجنة؟ فقلت : أنا فكان لا يسأل أحداً شيئاً» (٤) .
والمسألة لا تحل إلا لمن تحمل حمالة أو نزلت به جائحة ، أو فقر شديد .

(١) رواه مسلم في صحيحه في كتاب الزكاة .

(٢) رواه البخاري ومسلم في الزكاة ، وغيرهما .

(٣) متفق عليه انظر صحيح مسلم (١٠٤٠) .

(٤) رواه أبو داود بإسناد صحيح .

عن أبي بشر قبيصة بن المخارق (رضي الله عنه) قال : تحملت حمالة فأتيت رسول الله (ﷺ) أسأله فيها ، فقال : « أقم حتى تأتينا الصدقة فتأمر لك بها » ثم قال : « يا قبيصة إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة : رجلٌ تحمل حمالة ، فحلّت له المسألة حتى يصيبها ، ثم يمسك ، ورجلٌ أصابته جائحة اجتاحت ماله ، فحلّت له المسألة حتى يصيب قواماً من عيش ، أو قال : سداداً من عيش ، ورجلٌ أصابته فاقة حتى يقول ثلاثة من ذوى الحجى من قومه : لقد أصابت فلاناً فاقة ، فحلّت له المسألة حتى يصيب قواماً من عيش أو قال : سداداً من عيش . فما سواه من المسألة يا قبيصة سُحّت ، يأكل صاحبها سُحْتاً^(١) .

فالعبد لا يسأل غير ربه فهو السيد الصمد ، وهو الذي يسد الفاقة ، ويرزق في العاجل والآجل . عن ابن مسعود (رضي الله عنه) قال : قال رسول الله (ﷺ) : « من أصابته فاقة فأنزلها بالناس لم تسد فاقته ، ومن أنزلها بالله ، فيوشك الله برزق عاجل أو آجل^(٢) .

وما أجمل قول القائل :

أمام بابك كل الخلق قد وقفوا	وهم ينادون : يا فتاح يا صمد
فأنت وحدك تعطى السائلين ، ولا	ترد عن بابك المقصود من قصدوا
والخير عندك مبذول لطالبه	حتى لمن كفروا ، حتى لمن جحدوا
إن أنت يارب لم ترحم ضراعتهم	فليس يرحمهم من بينهم أحد

« اللهم إني أسألك يا الله بأنك الواحد الأحد الصمد ، الذي لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد ، أن تغفر لى ذنوبى إنك أنت الغفور

(١) رواه مسلم وأبو داود والنسائي فى الزكاة .

(٢) رواه أبو داود والترمذى ، وقال : حديث حسن ، ورواه أحمد والحاكم فى مستدركه .

الرحيم» (١).

«اللهم إني أسألك بأنى أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت، الأحد، الصمد، الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد» (٢) أسألك خيراً المسألة، وخيراً الدعاء، وخيراً النجاح، وخيراً العمل، وخيراً الثواب، وخيراً الحياة، وخيراً الممات، وثبتنى وثقل موازينى، وحقق إيماني، وارفع درجتي، وتقبل صلاتي، واغفر خطيئتي، وأسألك الدرجات العلى من الجنة». آمين (٣).

* * *

(١) رواه النسائي وأحمد وانظر صحيح النسائي، ٢٩٧/١.

(٢) رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه وأحمد، وانظر صحيح سنن الترمذي، ١٦٣/٣.

(٣) أخرجه الحاكم عن أم سلمة مرفوعاً، وصححه ووافقه الذهبي، ٥٢٠/١.

العظيم

١٥

العظيم: ذو العظمة والجلال في ملكه وسلطانه (عز وجل) كذلك تعرفه العرب في خطبها ومحاوراتها. يقول قائلهم: من عظيم بنى فلان اليوم؟ أى من له العظمة والرئاسة منهم فيقال: «فلان عظيمهم» ويقولون: «هؤلاء عظماء القوم» أى رؤساؤهم وذو الجلالة والرئاسة منهم (١).

والعظيم هو الذي جاوز القدر وجلّ عن الله دود العقل، لله تى لا يتصور الإحاطة بكنهه وحقيقته (٢).

فالله (عز وجل) عظيم ليس لعظمته بداية، ولا لجلاله نهاية، له العز والعظمة والمجد والكبرياء. فهو سبحانه وتعالى أعظم من كل عظيم في وجوده لأن وجوده واجب أبداً وأزلاً، وأعظم من كل عظيم في علمه وقدرته وقهره وسلطانه ونفاذ الله كمه.

قال ابن القيم:

وهو العظيم بكل معنى يوجب التـ عظيم لا يحصىه من إنسان

يريد أن الله تعالى عظيم له كل وصف ومعنى يوجب التعظيم، فلا يقدر مخلوق أن يشئ عليه كما ينبغى له ولا يحصى ثناء عليه، بل هو كما أثنى على نفسه وفوق ما يشئ عليه عباده.

(١) الزجاجي، مرجع سابق، ص ١١١

(٢) صلاح الدين حنفى، مختصر النهاية فى غريب الحديث والأثر، ص ١٠٤.

ومعاني التعظيم الثابتة لله وحده نوعان :

أحدهما، أنه موصوف بكل صفة كمال، وله من ذلك الكمال أكمله وأعظمه وأوسع، فله العلم المحيط والقدرة النافذة والكبرياء والعظمة، ومن عظمته أن السموات والأرض في كفه أصغر من الخردلة كما قال ابن عباس وغيره، وقال تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾ (١).

وقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَرُوتَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ (٢) وفي الحديث الصحيح عنه (ﷺ) « إن الله يقول الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني واحداً منهما عذبتة » (٣) فله تعالى الكبرياء والعظمة، الوصفان اللذان لا يقدر قدرهما ولا يبلغ كنههما.

والنوع الثاني من معاني العظمة أنه لا يستحق أحدٌ من الخلق أن يعظم كما يعظم الله، فيستحق جلّ جلاله من عباده أن يعظموه بقلوبهم وألسنتهم وجوارحهم، وذلك ببذل الجهد في معرفته ومحبته والذل له والانكسار له، والخضوع لكبريائه والخوف منه وإعمال اللسان بالثناء عليه، وقيام الجوارح بشكره وعبوديته، ومن تعظيمه أن يتقى الله ق تقاته، فيطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر، ومن تعظيمه تعظيم ما حرمه الله وشرعه من زمان ومكان وأعمال الله «ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب» (٤) «ذلك ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه» (٥) ومن تعظيمه ألا يعترض على شيء مما خلقه أو شرعه (٦).

(١) سورة الزمر آية ٦٧. (٢) سورة فاطر آية ٤١.

(٣) رواه مسلم (٤/٢٠٢٣) وغيره. (٤) سورة الحج آية ٣٢.

(٥) سورة الحج آية ٣٠.

(٦) عبد الرحمن آل سعدى، الحق الواضح المبين، ص ٢٧، ص ٢٨.

قال الشاعر :

عظيم لا تحيط به الظنون بقبضته التحرك والسكون
تعالى خالق كل شئ مقدره إلى وقت يكون
إذا فزت منه بالرعاية فكل شدائد الدنيا تهون

وقد ورد اسم العظيم في أكثر من موضع في القرآن الكريم
قال تعالى : ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ (١).

﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ (٢).

﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ (٩٥) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ (٣).

وعظمة الله (عز وجل) ليس لها لله دود، فالبناء الكونى الذي نعيش فيه مهول الكبر عظيم الجرم إلى الله يصعب تصويره، وتبدو كرتنا الأرضية التى نعيش عليها إلى جانبه ذرة هباء متطايرة في فضاءه . . . فهذا الكون واسع الامداء والمسافات إلى درجة لا يمكن تخيلها مجرد تخيل . . . إلا أنه - مع ذلك كله - مشدود الصلب، متين البيان، متماسك الأجزاء، متوحد الأطراف كائى جسم آخر ضئيل في جمه صغير في جرمه .

فمن الذي يشد صلبه، ويعطيه هذا المقدار العظيم من التماسك ويمنع أجزاء جسمه الكبير والواسع الامتداد من الانفلات والضياع في دروب الفضاء، إنه قانون إلهى يطلق عليه علماء الفلك اسم « الجاذبية » المهيمنة على الكون بقوانينها وديناميتها ولكن ما هى هذه الجاذبية وما

(٢) سورة الشورى آية ٤ .

(١) سورة البقرة آية ٢٥٥ .

(٣) سورة الواقعة آية ٩٥ .

كنهها وما سرها؟ وكيف تعمل؟ ولماذا؟ ومن الذي أوجدها ومنحها هذه القدرة العجيبة العظيمة على الله فظ الموازنة بين أجرام الكون كما تتوازى كفتا ميزان في منتهى الدقة والحساسية؟ . فكل ما في الكون يجرى بنظام دقيق دون خطأ . ولو بمقدار ثانية واحدة . وينقاد انقياداً تاماً ، وبطاعة مطلقة إلى هذا القانون كانقياد المصلين إلى إمامهم . . وهذا دليل وأى دليل . بأوسع مقياس وأعظمه . على عظمة القدرة الربانية .

فما أعظم هذه قدره التي تجعل تلك الأجرام الجامدة ، والكتل الهائلة وهى بلا شعور تجرى في منتهى النظام وكمال الميزان ، وفى غاية الحكمة ، وعلى صور متباينة ، وضمن مسافات مختلفة ، وبحركات متنوعة ولو حدث خطأ أو خلل ضئيل في هذه الأمور لحدثت انفلاتات كونيه ، واصطدامات هائلة ، تدمر الكون وتجعله هباءً منثوراً^(١) .

فسبحان العظيم الذي ليس لعظمته حد .

والتفكر فى هذه الأمور يبرز عظمة العظيم سبحانه وتعالى ، قال تعالى : ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ﴾ (٢) .

قال تعالى : ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (٢٠) فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ (٣) .

(١) سعيد النورسى ، النوافذ ، ص ١٠٦ . (٢) آل عمران ١٩٠ ، ١٩١ .

(٣) سورة الغاشية آية (١٧ - ٢١) .

وتعظيم الخالق سبحانه وتعالى حق على عبده، ولا حق لأحد عليه (سبحانه). إلا ما أحق سبحانه وتعالى على نفسه، بحكم وعده وإحسانه. فالحق في الحقيقة لله على عبده، وحق العبد عليه هو ما اقتضاه جوده وبره، وإحسانه إليه بمحض جوده وكرمه (١).

ومن تعظيم الله (عز وجل) تعظيم حرمانه، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُعْظِمْ حُرْمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ (٢).

قال جماعة من المفسرين: «حرمان الله» ههنا مغاضبه، وما نهى عنه، و«تعظيمها» ترك ملابتها. قال الليث: حرمان الله: ما لا يحل انتهاكها، وقال قوم: الحرمان: هي الأمر والنهي. وقال الزجاج: الحرمة ما وجب القيام به، وحرم الحج زماناً ومكاناً. والصواب: أن «الحرمان» نعم هذا كله وهي جمع حرمة وهي ما يجب احترامه، وحفظه: من الحقوق والأشخاص، والأزمنة، والأماكن. فتعظيمها: توفيتها حقها، وحفظها من الإضاعة (٣).

ومن هذا التعظيم تعظيم أسماء الله عز وجل وصفاته فثبت له ما وصف به نفسه كما جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية دون تحريف لألفاظها، ولا تعطيل لمعانيها، ولا تشبيه لها بصفات المخلوقين. وأن تعتمد في إثباتها على القرآن الكريم والسنة النبوية فقط لا تتجاوز القرآن والحديث لأنها توقيفية.

ومن تعظيم الله (عز وجل) تعظيم أسمائه، ومعرفتها من القرآن الكريم والسنة النبوية صريحة دون اللجوء إلى اشتقاقها؛ لأن مسألة

(١) ابن القيم الجوزية، مدارج السالكين، ج ٢، ص ٥٠١.

(٢) سورة الحج آية ٣٠.

(٣) ابن القيم الجوزية: المرجع السابق، ص ٧٤.

اشتقاقها في غاية الخطورة، فقد يشتق شيء يخبر به عن الله (عز وجل) ويكون اشتقاقاً غير جائز في الله ق الله تعالى كما لو اشتق أحدهم من قوله «وأكيد كيداً» «الكيد» ومن مكروا مكرأ» «المكر» لذا ينبغي الاقتصار على الأسماء التي وردت صراحة في نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة والتي تليق بجلال الله (عز وجل).

ومن تعظيم الله (عز وجل) عدم الإقسام على الله تعالى؛ لأنه من سوء الأدب، كأن يقال: والله لا يغفر لفلانه، أو لا يدخل فلان الجنة.

ومن تعظيم الله (عز وجل) عدم ذكره في موضع قضاء الحاجة ولا في موضع مهين.

ومما يتنافى مع تعظيم الله (عز وجل) الاستشفاع بالله تعالى على خلقه كأن يقال لإنسان: نستشفع بالله عليك، أو بالله عليك، أو أسألك بالله، أو أكراماً لله فالله (عز وجل) أعظم شأناً من أن يتوسل به إلى خلقه؛ لأن رتبة المتوسل به غالباً دون رتبة المتوسل إليه، وذلك من سوء الأدب مع الله تعالى. لأن الشفعاء لا يشفعون عنده إلا بإذنه فكيف يجعل هو الشافع^(١). وهو العظيم الذي ذلت له المخلوقات جميعها، ولذا لا يجوز للمخلوق أن يسأل مخلوقاً آخر شيئاً بالله تعالى أو بواحد من أسمائه وصفاته.

قال رسول الله (ﷺ): «ملعون من سأل بوجه الله، وملعون من سأل بوجه الله ثم منع سائله ما لم يسأل هجرأ»^(٢).

ومن تعظيم الله عز وجل ألا يحلف بغيره، لحديث رسول الله

(١) عبد الرحمن آل سعدى، القول السيد في مقاصد التوحيد، ص ٨٤، ص ٨٥.

(٢) طرف من حديث رواه أبو موسى الأشعري (رضي الله عنه) وذكر الحافظ العراقي في شرح العمدة أن إسناده حسن. وحسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير.

(ﷺ): « من حلف بغير الله فقد أشرك » (١).

ومما يقتضيه تعظيم الله (عز وجل) احترام القرآن الكريم وتعظيمه لأنه كلامه (سبحانه وتعالى)، وصفة من صفاته ويقتضى ذلك:

١- أن لا يقول المسلم إذا نسى شيئاً من القرآن الكريم نسيت آية كذا وكذا وإنما يقول: نُسيت آية كذا أو كذا، لأن النسيان يشير إلى عدم الاهتمام، وفي الحديث قال رسول الله (ﷺ): « بثسما لأحدكم أن يقل نسي آية كيت وكيت، بل هو نسي » (٢).

٢- ألا يقرأ القرآن الكريم على الموتى، وفي الأمكنة التي يجتمع فيها الناس للعزاء، وأما قراءة القرآن على الميت وهو مازال حياً يحتضر فلا بأس به، لأنه من قبيل التلقين الذي ينتفع به، ويكفى قراءة القرآن على الميت شراً، أن كثيراً من الناس يربط بينها وبين الموت فإذا ما سمع قرأناً يقرأ في مكان ما ظن أن هناك ميتاً، والقرآن لم ينزل للقراءة في العزاء على الموتى بل نزل لهداية الأحياء قال تعالى: ﴿لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقُّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (٣).

٣- ألا يفرض الله فظ القرآن الكريم أو نسخة عقاباً على التلاميذ المهملين في واجباتهم، فبئس المعلم الذي يجعل القرآن الكريم عقوبة.

٤- وجوب الإنصات عند سماع القرآن الكريم قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (٤) وكما يجب على المستمع الإنصات يجب على القارئ أن لا يقرأ القرآن حيث لا ينصت إليه.

(١) رواه الترمذى وأبو داود وأحمد وابن حبان والحاكم... وصححه الألبانى.

(٢) رواه البخارى ومسلم عن ابن مسعود.

(٣) سورة يس آية ٧٠.

(٤) سورة الأعراف آية ٢٠٤.

ومن تعظيم الله (عز وجل) ترك التسمي بأسماء فيها مشاركة لله تعالى، وقد ورد النهي عنها كملك الملوك، وقاضى القضاة وحاكم الحكام، وأبى الحكم وأبى الأعلى حفظاً للتوحيد وسداً للذريعة، ففى الحديث قال رسول الله (ﷺ): أخنع الأسماء عند الله يوم القيامة رجل تسمى ملك الأملاك، لا مالك إلا الله^(١).

وقال ابن حجر: «واستدل بهذا الحديث على تحريم التسمي بهذا الاسم لورود الوعيد الشديد ويلحق به ما في معناه مثل خالق الخلق، وأحكم الحاكمين، وسلطان السلاطين، وأمير الأمراء»^(٢).

ومن تعظيم الله (عز وجل) - إجلاله وتعظيمه في القلب، وعلى قدر معرفة العبد بربه وتوحيده يكون تعظيم الرب تعالى في القلب وأعرف الناس به (سبحانه) أشدهم له تعظيماً وإجلالاً، وقد ذم الله تعالى من لم يعظمه الله ق عظمته، ولا عرفه الله ق معرفته، ولا وصفه حق صفته. قال تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً﴾^(٣) قال ابن عباس ومجاهد لا ترجون الله عظمة، وقال سعيد بن جبير: ما لكم لا تعظمون الله حق عظمته؟ وقال الكلبي: لا تخافون الله عظمة. قال البغوي «الرجاء بمعنى الخوف، و«الوقار» العظمة اسم من التوقير. وهو التعظيم. . . وروح العبادة هو الإجلال والمحبة، فإذا تخلص أحدهما عن الآخر فسدت، فإذا اقترن بهذين الشئاء على المحبوب العظيم، فذلك لله قينة الحمد»^(٤).

« لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا

(١) رواه البخاري (٤٨٦/١٠) ومسلم (٢١٤٣) عن أبي هريرة

(٢) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج ١٠، ص ٥٩٠.

(٣) سورة نوح/ ١٣.

(٤) ابن القيم الجوزي، مدارج السالكين، ج ٢، ص ٤٩٥.

- إله إلا الله رب السموات ، ورب الأرض ، ورب العرش الكريم» (١) .
- « سبحان الله العظيم ويحمده » (٢) .
- « سبحان الله ذى الجبروت ، والملكوت والكبرياء والعظمة » (٣) .
- « استغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحى القيوم وأتوب إليه » (٤) .
- « سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم » (٥) .



-
- (١) رواه البخارى ١٥٤ / ٧ ، ومسلم ٢٠٩٢ م ٢٠٩٢ . (دعاء الكرب) .
- (٢) أخرجه الترمذى والحاكم وصححه ووافقه الذهبي ، وانظر صحيح الترمذى ١٦٠ / ٣ ، ونص الحديث : من قال سبحان الله العظيم والحاكم ويحمده غرست له نخلة فى الجنة .
- (٣) أخرجه أبو داود والنسائى وأحمد وإسناده حسن .
- (٤) أخرجه أبو داود والترمذى ، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي ، انظر صحيح الترمذى ١٨٢ / ٣ .
- (٥) أخرجه الحاكم فى المستدرک ٥٠٢ / ١ وقال : حديث صحيح الإسناد ، ووافقه الذهبي (إذا قال المؤمن ذلك قال الله : أسلم عبدي واستسلم) .

الجميل

١٦

الجمال: الحسن الكثير وذلك ضربان أحدهما جمال يختص الإنسان به في نفسه أو بدنه أو فعله ؛ والثاني ما يُوصل منه إلى غيره» (١).

والله عزّ وجلّ جميل ذاتاً وأسماءً وصفاتاً وأفعالاً ففي الحديث الصحيح قال رسول الله (ﷺ) «إن الله جميلٌ يحبُّ الجمال» (٢).

قال ابن القيم

وهو الجميلُ على الحقيقة كيف لا وجمالُ سائرِ هذه الأكوان
من بعض آثار الجميل فربها أولى وأجدر عند ذى العرفان
فجماله بالذات والأوصاف والأفعا ل والأسماء بالبرهان
لاشئ يُشبه ذاته وصفاته سبحانه عن إفك ذى بهتان

فالله هو الجميل بذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله ، فلا يمكن لمخلوق أن يعبر عن بعض جمال ذاته حتى أهل الجنة مع ما هم فيه من النعيم المقيم ، واللذات والسرور ، والأفراح التي لا يقدر قدرها ، إذا رأوا ربهم وتمتعوا بجمال نسوا ما هم فيه من النعيم أو تلاشئ ما هم فيه من الأفراح ، وودوا لو تدوم هذه الحال واكتسبوا من جماله ونوره جمالاً إلى جمالهم ، وكانت قلوبهم في شوق دائم ونزوع إلى رؤية ربهم ،

(١) الراغب الأصفهاني ، مرجع سابق ، ص ٩٧ .

(٢) رواه مسلم ١/ ٩٣ .

ويفرحون يوم المزيد فرحاً تكاد تطير له القلوب وكذلك هو الجميل في أسمائه فإنها كلها لله سني بل أحسن الأسماء على الإطلاق وأجملها قال تعالى ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ ^(١) فكلها دالة على غاية الحمد والمجد والكمال فلا يسمى باسم منقسم إلى كمال وغيره . وكذلك هو الجميل في أوصافه فان أوصافه كلها أوصاف كمال ونعوت ثناء وحمد فهي أوسع الصفات، وأعمها وأكثرها تعلقاً خصوصاً أوصاف الرحمة البر والكرم والجود .

وكذلك أفعاله كلها جميلة فإنها دائرة بين أفعال البر والإحسان التي يحمد عليها، ويثنى عليه بها ويشكر، وبين أفعال العدل التي يحمد عليها لموافقتها للحكمه والحمد، فليس في أفعاله عبث ولا سفه ولا سدى ولا ظلم كلها خير وهدى ورحمة ورشد وعدل ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ^(٢) فلكماله الذي لا يحصى أحد عليه به ثناء كملت أفعاله كلها فصارت أحكامه من أحسن الأحكام، وصنعتة وخلقه أحسن خلق وصنع : ﴿صَنَعَ اللَّهُ الَّذِي اتَّقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ ^(٣) ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ ^(٤) ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ ^(٥) .

ثم استدلل المصنف بدليل عقلى على جمال البارئ وأن الأكوان محتوية على أصناف الجمال وجمالها من الله تعالى فهو الذي كساها الجمال وأعطاهما الحسن فهو أولى منها ؛ لأن معطى الجمال أحق بالجمال فكل جمال في الدنيا باطنى وظاهرى خصوصاً ما يعطيه المولى لأهل الجنة من الجمال المفرط لرجالهم ونسائهم فلو بدا كف واحدة من الخور العين إلى الدنيا لطمس ضوء الشمس كما تطمس الشمس ضوء النجوم

(١) سورة الأعراف آية ١٨٠ .

(٢) سورة هود آية ٥٦ . (٣) سورة النمل آية ٨٨ .

(٤) سورة السجدة آية ٧ . (٥) سورة المائدة آية ٥٠ .

أليس الذي كساهم ذلك الجمال ومنَّ عليهم بذلك الحسن والكمال أحقَّ منهم بالجمال الذي ليس كمثله شيء؟^(١) . وقد جاء في القرآن الكريم أن الله نور السموات والأرض قال تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نَوْرِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾^(٢) . وفي الحديث قال رسول الله (ﷺ): «اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن» . الحديث^(٣) .

وقال (ﷺ): «إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام يخفض القسط ويرفعه ويرفعه إليه عمل الليل قبل عمل النهار وعمل النهار قبل عمل الليل حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»^(٤) .

فمن أوصافه سبحانه وتعالى النور الذي هو وصفه العظيم ، فإنه ذو الجلال والإكرام وذو البهاء والسبحات الذي لو كشف الحجاب عن وجهه الكريم لأحرقت سبحاته ما انتهى إليه بصره من خلقه ، وهو الذي استنارت به العوالم كلها فبنور وجهه أشرقت الظلمات ، واستنار العرش والكرسى والسبع الطباق وجميع الأكوان . . . وهناك فرق بين نور الذات والصفات وبين النور المخلوق الحسنى منه والمعنوي فنور الذات ملازم لذاته سبحانه وتعالى لا يفارقها ولا يحل بمخلوق تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً وأما النور المخلوق فهو الذي تتصف به المخلوقات بحسب الأسباب والمعاني القائمة بها ، والمؤمن إذا كُمل إيمانه

(١) عبد الرحمن الواضح المبين ، ص ٢٩ : ص ٣٢ .

(٢) سورة النور آية ٣٥ . (٣) رواه البخاري ومسلم ٥٣٢ / ١ .

(٤) رواه مسلم ١ / ١٦١ .

أنار الله قلبه فانكشفت له حقائق الأشياء وحصل له فرقان يفرق به بين الحق والباطل، وصار هذا النور مادة لله ياته وقوته على الخير علماً وعملاً وكان قلبه نوراً وكلامه نوراً وعمله نوراً والنور محيط به من جهاته والكافر أو المنافق أو الغافل يتخبطون في الظلمات (١).

ومن آثار الجميل سبحانه وتعالى ما نراه في الكون من الله ولنا من جمال وتنظيم وإبداع والذى يتأمل هذا الكون يراه رائعاً عجيباً جميلاً لا تشبع العين من تملئ جماله وروعته، ولا يشبع العقل من تدبر نظامه ودقته، يقول سيد قطب: والجمال في تصميم هذا الكون مقصود كالكمال بل أنهما اعتباران لحقيقة واحدة، فالكمال يبلغ درجة الجمال ومن ثم يوجه القرآن النظر إلى جمال السموات بعد أن وجه النظر إلى كمالها لله ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح... فمشهد النجوم في السماء جميل جمالاً يأخذ بالقلوب. وهو جمال متجدد تتعدد ألوانه بتعدد أوقاته؛ ويختلف من صباح إلى مساء، ومن شروق إلى غروب، ومن الليلة القمرء إلى الليلة الظلماء. ومن مشهد الصفاء إلى مشهد الضباب والسحاب... بل إنه ليختلف من ساعة لساعة ومن مرصد لمرصد، ومن زاوية لزاوية... وكله جمال وكله يأخذ بالألباب... هذه النجمة الفريدة التى توصف هناك، وكأنها عين جميلة، تلتمع بالمحبة والنداء! وهاتان النجمتان المنفردتان هناك، وقد خلصتا من الزحام تتناجيان، وهذه المجموعات المتضامنة المتناصرة هنا وهناك وكأنها فى لله لقة سمر فى مهرجان السماء. وهى تجتمع وتفرق كأنها رفاق ليلة فى مهرجان! وهذا القمر الخالم الساهى ليلة، والزاهى المزهو ليلة، والمنكسر الخفيق ليلة، والوليد المتفتح ليلة. والفانى الذى يدلف

(١) عبد الرحمن السعدى، المرجع السابق، ص ٩٣: ص ٩٥.

للفناء ليلة! وهذا الفضاء الواسع الذي لا يمل البصر امتداده، ولا يبلغ أماده. إنه الجمال الجمال الذي يملك الإنسان أن يعيشه ويتملاه. ولكن لا يجد له وصفاً فيما يملك من الألفاظ والعبارات (١).

ففى الكون من الله ولنا جمال حقيقى مقصود؛ وهو تنظيم كل مظاهر الكون، وينشأ من دقة وتناسق هذه المظاهر.

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾ (٢).

﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ (٦) وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ (٣).

والذى يتأمل الأشياء من حوله يجدها تشي بهذا الجمال وتعلنه فالينابيع والجداول والأنهار وهى تنفجر من الأرض أو الجبال تأخذ بالآلاب وتبهر الأبصار بجمالها وبديع منظرها. . والأحجار والصخور فى أنواعها وتشكيلاتها وتنظيمها تعلن عن هذا الجمال. . والأزهار والثمار لها جمال أخاذ فى نقوشها البديعة وشذى عطرها الطيب وحلاوة مطعوماتها. والسحب الثقيل وهى تجري كالجبال فى فضاء واسع، ثم تنزل منها الأمطار التى ترضع الأحياء وتغيث الملهوفين لها جمال وأى جمال! فكل الكائنات من حولنا لها جمال زاهر، وحسن باهر يتلأأ على وجوها، ويتجدد بتجدها ويستمر باستمرار تعاقبها. وكل ذلك من آثار الجميل (سبحانه وتعالى).

وفى النبات من حولنا جمال يخلب القلب، ويشير الوجدان. وقد أبرز القرآن الكريم ذلك فى مواضع عدة؛ لتوجيه القلب والعقل إلى

(١) سيد قطب، مرجع سابق، ح ١، ص ٣٦٣٤.

(٢) سورة الحجر آية ١٦. (٣) سورة ق آية (٦-٧).

الاستمتاع بهذا الجمال.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرَجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

ففى الآيات السابقة ظلال وارفة من الجمال يستمتع بها الإنسان عندما يتملاها وينظر إليها ببصره وبصيرته ، فالحدائق بهيجة ناضرة حيه ممتعه .

والألوان المتناسقة في الزهور والثمار فيها إبداع وجمال ، فتتنسيق الألوان وتداخل الخطوط وتنظيم الوريقات في الزهرة الواحدة يبدو معجزة باهرة تتقاصر دونها العبقريات الفنية . وتلوين الثمار وتغير ألوانها من وقت لآخر واختلاف هذه الألوان من ثمرة إلى أخرى متعة وجمال للناظرين .

فالبرتقالة تبدأ باللون الأخضر فإذا نضجت تحولت إلى اللون الأصفر . والتمرة كذلك تتحول من اللون الأخضر إلى اللون الأصفر أو الأحمر وهكذا . وهذا التغير والتلون إشارة ونداء إلى الإنسان لقد نضجت وصرت طعاماً طيباً .

ومن أروع ما في الكون من جمال اللون الأخضر وهو الغالب على كل ألوان النبات . وقد ثبت أن هذا اللون يجلب السرور إلى داخل النفس ، ويشير في الإنسان البهجة وحب الحياة .

وهذا اللون هو اللون الغالب في الجنان ، فالجنان وارفة الظلال كثيرة الأشجار ، وأهلها يتكثون على فرش خضراء قال تعالى: ﴿مُتَكِينِينَ عَلَى رُفْرَفٍ خُضِرَ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾ (١) .

(١) الرحمن آية ٧٦ .

ولباس أهل الجنة ثياب خضر :

قال تعالى : ﴿ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ ﴾ (١).

﴿ عَلَيْهِمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٍ وَإِسْتَبْرَقٍ ﴾ (٢).

وجمال النيات لا يقتصر على لونه ، بل هناك أيضاً جمال في شكله ، وفي الله ركنه وتموجه .

فتوزيع الأوراق وتنوعها ، وما فيها من خطوط منتظمة ، وتموجات ، وتوزيع أوراق الزهرة المتفتحة يوحى بالمتعة والبهجة والجمال .

يقول ابن القيم (رحمه الله) : « ثم تأمل الحكمة في خلق الورق ، فإنك ترى في الورقة الواحدة من جملة العروق الممتدة فيها المبثوثة فيها ما يبهر الناظر . فمنها غلاظ ممتدة في الطول والعرض . ومنها دقاق تتخلل تلك الغلاظ منسوجة نسجاً دقيقاً معجباً ، لو كان مما يتولى البشر صنع مثله بأيديهم لما فرغوا من ورقة في عام كامل . ولا احتاجوا فيها إلى آلات وحركات وعلاج تعجز قدراتهم على تحصيله ، فبث الخلاق العليم في أيام قلائل من ذلك ما يملأ الأرض سهلها وجبالها بلا آلات ولا معين ولا معالجة . إنما هي الإرادة النافذة في كل شيء وقدرته التي لا يمتنع منها شيء » ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (٣) . فتأمل الحكمة من تلك العروق المتخللة الورقة بأسرها لتسقيها ، وتوصل إليها المادة فتحفظ عليها الله ياتها ونضارتها بمنزلة العروق المبثوثة في الأبدان التي توصل الغذاء إلى كل جزء منه ، وتأمل ما في الأوراق الغلاظ من إمساكها الورقة بصلابتها ومتانتها لئلا تتمزق وتضمحل ، فهي بمثابة

(١) سورة الكهف آية ٣١ .

(٢) سورة الإنسان آية ٢١ .

(٣) سورة يس ، آية : ٨٢ .

الأعصاب لبدن الحيوان فتراها قد أحكمت صنعتها ومدت العروق في طولها وعرضها لتتماسك فلا يعرض لها التمزق . . وقد جعلت هذه الأوراق زينة للشجرة وستراً ولباساً للثمرة ووقاية لها، فتبارك الله رب العالمين الذي يعلم مساقط تلك الأوراق ومنابتها فلا تخرج ورقة إلا بإذنه، ولا تسقط إلا بعلمه، ومع هذا فلو شاهدنا العباد على كثرتها وتنوعها وهى تسبح بحمد ربها مع الثمار والأفنان والأشجار، لشاهدوا من جمالها أمراً آخرأ ولرأوا خلقتها بعين أخرى، ولعلموا أنها لشأن عظيم خلقت وأنها لم تخلق سدى^(١).

وفى الأنعام أيضاً جمال وأى جمال . قال تعالى : ﴿ وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دَفءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٥) وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (٦) وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بِالْغِيَةِ إِلَّا يَشُقُّ الْأَنْفُسَ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَّحِيمٌ (٧) وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٢).

ففى الأنعام دفء من الجلود والأصواف والأوبار والأشعار، ومنافع فى هذه وفى غيرها، ومنها نأكل لحماً ولبناً وسمناً، وتحمل الأثقال إلى البلاد البعيدة، وفيها كذلك جمال عند الإراحة فى المساء وعند السرح فى الصباح . جمال الاستمتاع بمنظرها فارحة رائحة صحيحة سميئة، وفى الخيل والبغال والحمير تلبية للضرورة فى الركوب، وتلبية لحاسة الجمال فى الزينة « لتركبوها وزينة ».

وهذه اللفتة لها قيمتها فى بيان نظرة القرآن ونظرة الإسلام للحياة . فالجمال عنصر أصيل فى هذه النظرة وليست النعمة هى مجرد تلبية

(١) ابن القيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ص ٢٨٢، ص ٢٨٣.

(٢) سورة النحل آية (٨.٥) . (٣) سيد قطب/ مرجع سابق، ص ٢١٦١.

الضرورات من طعام وشراب وركوب، بل تلبية الأشواق الزائدة على الضرورات. تلبية لله أسة الجمال ووجدان الفرح والشعور الإنساني المرتفع عن ميل الحيوان وحاجة الحيوان^(١).

وفى خلق الإنسان وتصويره جمال وإبداع من الجميل الخلاق. فقد خلق (سبحانه وتعالى) الإنسان على صورة جميلة سوية معتدلة، كاملة الشكل والوظيفة، والجمال والسواء والاعتدال يبدو في تكوينه الجسدي، وفي تكوينه العقلي الروحي وهي تتناسق في كيانه في جمال واستواء... والأجهزة العامة لتكوين الإنسان الجسدي: الجهاز العظمي. والجهاز العضلي والجهاز الجلدي. والجهاز الهضمي. والجهاز الدموي والجهاز التنفسي. والجهاز التناسلي والجهاز اللمفاوي. والجهاز العصبي. والجهاز البولي. وأجهزة الذوق والشم والسمع والبصر... كلٌ منها عجيبة لا تقاس إليها كل العجائب الصناعية التي يقف الإنسان مذهوشاً أمامها. وينسى عجائب ذاته وهي أضخم وأعمق وأدق بمالا يقاس^(١).

والإنسان عندما يقف أمام نفسه يندهش لروعة خلقه وتكوينه فهناك جمال في تركيب جسمه البالغ الدقة والتعقيد، وجمال في تكوينه العقلي الفريد، وجمال في تكوينه الروحي العجيب.

يقول ابن القيم (رحمه الله): وتأمل الله كمة اللطيف في تركيب البدن، ووضع الأعضاء في مواضعها، واعدادها لما أعدت له: قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ فسبحان من ألبسه خلع الكرامة كلها من: العقل، والعلم، والبيان، والنطق، والشكل، والصورة

(١) المرجع السابق، ص ٣٨٤٨.

الحسنة، والهيئة الشريفة، والقدر المعتدل، واكتساب العلوم بالاستدلال والفكر واقتناص الأخلاق الشريفة الفاضلة: من البر، والطاعة، والانقياد. فكم بين حاله وهو نطقه في داخل الرحم مستودع هناك وبين حاله والملك يدخل في جنات عدن؟ فتبارك الله أحسن الخالقين... ثم تأمل الله كرمته في الأعضاء التي خلقت منك آحاداً ومثنى وثلاث ورباع، وما في ذلك من الحكم البالغة، فالرأس، واللسان، والأنف... خلق كل منها واحد فقط إذ لا حاجة ولا مصلحة ولا جمال في كونه أكثر من ذلك... وهذا بخلاف الأعضاء التي خلقت مثنى كالعينين، والأذنين، والشفيتين، واليدين، والرجلين والساقين، والفخذين، والثديين، فإن الحكمة فيها ظاهرة والمصلحة بينه، والجمال والزينة عليها بادية، فلو كان الإنسان بعين واحدة لكان مشوه الخلقة ناقصها، وكذلك الحاجبان، واليدان والرجلان فتعدد هذه الأعضاء ضروري لمصلحة الإنسان، وجمال هيئته... ألا ترى إلى الشفتين لا تكمل المصلحة إلا بهما، وفيهما ضروب عديدة من المنافع ومن الكلام، والذوق، وغطاء الفم، والجمال، والزينة وغير ذلك^(١).

وأجمل ما خلق الجميل (سبحانه وتعالى) الجنة وما فيها من نعيم، قال تعالى: ﴿يَا عِبَادَ لَا خَوْفَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ (٦٨) الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ (٦٩) ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ (٧٠) يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْرَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٧١) وَلِلَّهِ الْجَنَّةُ النَّبِيُّ أَوْرَثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٧٢) لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ (٧٣).

(١) ابن القيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ص ٣٢٨ إلى ص ٣٣٢ (بتصرف يسير).

(٢) سورة الزخرف آية (٦٨ - ٧٣).

وعن أبی هريرة (رضی الله عنه) قال : قال رسول الله ﷺ : قال الله (عز وجل) : أعددت لعبادئ الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر أقرؤوا إن شئتم ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (١) (٢) .

فالجنة جميلة ولا يدخلها إلا كل جميل ، عن أبی هريرة (رضی الله عنه) : قال : قال رسول الله ﷺ : « أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، ثم الذين يلونهم على أشد كوكب دري في السماء إضاءة ، ولا ييلون ولا يتغوطون ، ولا يتفلون ، ولا يمتخطون ، أمشاطهم الذهب ، ورشحهم المسك ، مجامرهم الألوة (عود الطيب) أزواجهم الحور العين ، على خلق رجل واحد ، على صورة أبيهم آدم ستون ذراعاً في السماء » (٣) .

وعن أنس بن مالك (رضی الله عنه) : أن رسول الله ﷺ قال : « لغدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها ، ولقاب قوس أحدكم أو موضع قيده يعني سوطه من الجنة خير من الدنيا وما فيها ولو اطلعت امرأة من نساء أهل الجنة إلى الأرض لمألت ما بينهما ريحاً ولأضاءت ما بينهما ولنصيفها (خمارها) على رأسها خير من الدنيا وما فيها » (٤) .

ومساكن أهل الجنة طيبة جميلة ، عن أبی موسى الأشعري (رضی الله عنه) : عن النبي ﷺ قال : « إن للمؤمنين في الجنة لحيمة من لؤلؤة

(١) سورة السجدة آية ١٧ .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق باب ما جاء في صفه الجنة ، ومسلم في صحيحه كتاب الجنة وصفه نعيمها .

(٣) أخرجه البخاري في مواضع عديدة ، ومسلم في صحيحه : كتاب الجنة وصفه نعيمها ، باب في صفات الجنة وأهلها .

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه : كتاب الجهاد ، باب العدو والروحة في سبيل الله ، ومسلم في صحيحه كتاب الامارة باب فضل العدو والروحة في سبيل الله .

واحدة مجوفة طولها في السماء ستون ميلاً للمؤمن فيها أهلون يطوف عليهم المؤمن فلا يرى بعضهم بعضاً» (١).

وأهل الجنة يزدادون على الدوام لله سناً وجمالاً، عن أنس بن مالك (رضي الله عنه) أن رسول الله (ﷺ) قال: «إن في الجنة لسوقاً يأتونها كل جمعة فتهب ريح الشمال فتحثوا في وجوههم وثيابهم فيزدادون حسناً وجمالاً فيرجعون إلى أهلهم وقد ازدادوا حسناً وجمالاً فيقول لهم أهلوهم: والله لقد ازددتم بعدنا حسناً وجمالاً فيقولون وأنتم والله لقد ازددتم بعدنا حسناً وجمالاً» (٢).

ومع هذا النعيم والجمال الذي يعجز عن وصفه اللسان فإن أهل الجنة عندما يتجلى عليهم الجميل (سبحانه) ينسون كل جمال ونعيم، عن صهيب (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (ﷺ): «إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله (عز وجل): هل تريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم ثم تلا هذه الآية ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا وَزِيَادَةٌ﴾» (٣).

والله (عز وجل) جميل يحب الجمال، ولذا أوصى عباده المؤمنين أن يتجملوا ويتزينوا خاصة عند الصلاة: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ (٤).

(١) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة، ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب في صفة خيام الجنة.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ٢١٧٨/٤، كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب في سوق الجنة.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب سورة يونس، وأخرجه مسلم في صحيحه ١٦٣/١، كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين ربهم في الآخرة.

(٤) سورة الأعراف آية ٣١.

وقد كان رسول الله (ﷺ) يلبس أحسن الحلل . ويبدو أجمل الناس : عن البراء بن عازب (رضي الله عنه) ، قال : « كان رسول الله (ﷺ) مربوعاً ولقد رأيته في حلة حمراء ما رأيته شيئاً قط أحسن منه » (١) .

وعن أبي رمثة رفاعة التيمي (رضي الله عنه) قال : « رأيته رسول الله (ﷺ) وعليه ثوبان أخضران » (٢) .

وقد أوصى رسول الله (ﷺ) بالثياب البيض لطهارتها وطيبها ، عن سمرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله (ﷺ) : « البسوا البياض فإنها أطهر وأطيب ، وكفنوا فيها موتاكم » (٣) .

فالإسلام يحض أبناءه دائماً على إحسان الشكل ، وجمال الهيئة ، وسنن الفطرة التي أمر بها الإسلام ما هي إلا تجميل وتحسين للإنسان .

عن أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) قالت : قال رسول الله (ﷺ) : « عشر من الفطرة : قص الشارب ، وإعفاء اللحية ، والسواك ، واستشاق الماء ، وقص الأظفار ، وغسل البراجم (٤) ، ونتف الإبط ، وحلق العانة ، وانتفاص الماء » قال الراوى : ونسيت العاشرة إلا أن تكون المضمضة قال وكيع وهو أحد رواه الحديث : انتفاص الماء ، يعني : الاستنجاء (٥) .

وقد بين رسول الله (ﷺ) أن من يحرص على نقاوة بدنه ونظافة أعضائه ، ووضاءة وجهه يبعث يوم القيامة على حاله تلك وضع

(١) رواه البخارى في كتاب اللباس ، وفي صفة النبي (ﷺ) ورواه مسلم في فضائل النبي (ﷺ) وغيرهما .

(٢) رواه أبو داود ، والترمذى بإسناد صحيح .

(٣) رواه النسائى والحاكم وقال : حديث صحيح .

(٤) غسل البراجم : غسل عقد الأصابع .

(٥) رواه مسلم في الطهارة (٢٦١) وأحمد وأصحاب السنن .

الوجه، أغرّ الجبين، نقى الأعضاء.

عن أبى هريرة (رضى الله عنه) قال: سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: «إن أمتى يدعون يوم القيامة غراً محجلين» (١) من آثار الوضوء فمن استطاع منكم أن يطيل غرته، فليفعل» (٢).

وعنه قال: سمعت خليلي (ﷺ) يقول: «تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء» (٣).

فالنظافة والجمال جزء لا يتجزأ من الإسلام فالمسلم نظيف البدن، لله سن الثياب، جميل الهيئة، تجرى في عروقه دماء العافية، وهيئة الإنسان الحسنة وصحة بدنه لها أثر كبير لا في سلامة تفكيره فقط بل وفي تفائله وإقباله على الحياة وعمل الصالحات والدعوة إلى الخير.

والجسم المتسخ الهزيل المتزئ بالزئ المهمل والمرقعات، إنما هو علامة على الجهل الفاضح بالدين، وافتراء على تعاليمه، وقد ظن قوم من الجهال ومحترفي التدين أن القذارة وفوضى الملابس واتساخ البدن ضرب من العبادة، وهذا يدل على جهلهم الفاضح بتعاليم الإسلام، وسمة المؤمنين. فالله عز وجل جميل يحب الجمال فكيف يتقرب إليه بما لا يحبه؟! ولأنه يحب الجمال لله فقد أوجب على عباده الطهارة عند الصلاة، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا﴾ (٤).

(١) غراً محجلين: أى بيضاً: يعنى وجوههم من أثر نور الوضوء يوم القيامة.

(٢) أخرجه البخارى (فى الوضوء) ومسلم (فى الطهارة) ٢١٦/١.

(٣) رواه مسلم فى الطهارة ٢١٩/١ وابن خزيمة فى الوضوء ٧/١ وذكر البخارى معناه فى آخر كتاب اللباس.

(٤) سورة المائدة آية ٦.

ولم يدع الرسول (ﷺ) أمر الغسل الكامل للظروف التي تفرض فرضاً، فقد يتكاسل بعض الناس عن الاغتسال ما دامت دواعي فرضه لم تقم، لذلك وقت للغسل يوماً في كل أسبوع. قال رسول الله (ﷺ): «غسل يوم الجمعة واجب على كل محتلم، وسواك، ويمس من الطيب» (١).

« اللهم إني أسألك نعيماً لا ينفذ ، وأسألك قرة عين لا تنقطع، وأسألك الرضا بعد القضاء، وأسألك برد العيش بعد الموت، وأسألك لذة النظر إلى وجهك ، والشوق إلى لقائك، في غير ضراء مضرة، ولا فتنة مضلة، اللهم زينا بزينة الإيمان، واجعلنا هداة مهتدين» (٢).

« اللهم إني أسألك إيماناً لا يرتد، ونعيماً لا ينفذ، ومرافقة محمد (ﷺ) في أعلى جنة الخلد» (٣).

« اللهم أحسن خلقى فأحسن خلقى » (٤).

* * *

(١) رواه مسلم.

(٢) متفق عليه (البخاري ٢/ ٢٩٨) ومسلم برقم (٨٤٦).

(٣) أخرجه ابن حبان برقم ٢٤٣٦ عن ابن مسعود موقوفاً.

(٤) أخرجه أحمد وصححه الألباني في إرواء الغليل برقم ٧٤.

الغنى الواسع المجيد

١٧ ١٨ ١٩

الغنى هو الذي لا يحتاج إلى شيء، المستغنى عن كل من سواه المفتقر إليه كل ما عداه. والغنى في كلام العرب: الذي ليس بمحتاج إلى غيره. والله عز وجل ليس بمحتاج إلى أحد تعالى عن ذلك علواً كبيراً. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ (١).

وكل الخلق إليه محتاج كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (٢).

فالله (عز وجل) ليس بمحتاج إلى أحد فيما خلق وما يخلق، ودبر ويدبر ويعطي ويرزق، ويقضى ويمضى لأراد أمره وهو على كل شيء قدير (٣) فلا غنى على الحقيقة إلا الله، فكل ما في العالم من مخلوقات يحتاج بعضها إلى بعض وهم قبل ذلك ومن بعده في أمس الحاجة إلى ربهم وخالقهم ورازقهم.

فالله (عز وجل) هو الغنى حقيقة عن العالمين، المتعالى عن جميع الخلق في كل زمن وحين. فهو (سبحانه) الغنى الذي له الغنى التام المطلق من كل الوجوه لكماله وكمال صفاته التي لا يتطرق إليها نقص بوجه من الوجوه، ولا يمكن إلا أن يكون غنياً فإن غناه من لوازم ذاته والمخلوقات بأسرها لا تستغنى عنه في حال من أحوالها، فهي مفتقرة

(١) سورة العنكبوت/ ٦. (٢) سورة فاطر آية ١٥.

(٣) الزجاجي، مرجع سابق ص ١١٧.

إليه في إيجادها، وفي بقائها، وفي كل ما تحتاجه أو تضطر إليه (١). قال ابن القيم: فهو الغنى بذاته فغناه ذاتي له كالجود والإحسان

قال الراغب الأصفهاني: الغنى يقال على ضروب:

أحدهما عدم الحاجات وليس ذلك إلا الله تعالى وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَهُ الْغِنَى الْحَمِيدُ﴾، ﴿أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾.

الثاني: قلة الحاجات وهو المشار إليه بقوله: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾ وذلك هو المذكور في قوله عليه الصلاة والسلام: «الغنى غنى النفس».

الثالث: كثرة القنيات بحسب ضروب الناس، كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾ وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾.

وهذا هو المعنى المقصود من قول الشاعر: قد يكثر المال والإنسان مفتقر (٢).

قال الشاعر:

لطالبى الرزق لم تنقص ولم تزد	أنت الغنى الذى مدت خزائنه
الدعاء لباب الواحد الصمد	وكل من هو محتاج يمد بمفتاح
بالجود - متكل بالحق - معتمد	تعطى بغير حساب - كل معترف
جود ذاتك محتاجاً إلى الأبد	وحين - عن غيرك - تغنيه تجعله

(١) آل سعدى، الحق الواضح المبين، ص ٤٧.

(٢) الراغب الأصفهاني، مرجع سابق، ص ٣٦٦.

فالله (سبحانه وتعالى) هو الغنى وما سواه فقير ، ومن سعة غناه أن خزائن السموات والأرض والرحمة بيده ، وأن جوده على خلقه متواصل في جميع اللحظات والأوقات ، وأن يده سخاء بالليل والنهار وخيره على الخلق مدرار .

ومن كمال غناه وكرمه أنه يأمر عباده بدعائه ، ويعددهم بإجابة دعواتهم وإسعافهم بجميع مراداتهم ، ويؤتيهم من فضله ما سألوه وما لم يسألوه ، ومن كمال غناه أنه لو اجتمع أول الخلق وآخرهم في صعيد واحد فسألوه ، فأعطى كلا منهم ما سألوه وما بلغت أمانيه ما نقص ذلك من ملكه مثقال ذرة . ومن كمال غناه وسعة عطاياه ما يبسطه على أهل دار كرامته من التعيم واللذات المتتابعات والخيرات المتواصلات ، مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

ومن كمال غناه أنه لم يتخذ صاحبةً ولا ولداً ، ولا شريكاً في الملك ، ولا ولياً من الدل ، فهو الغنى الذي كمل بنعوته وأوصافه ، المغنى لجميع مخلوقاته^(١) .

وغنى الله (عزّ وجلّ) لخالقه لا يقتصر على الغنى العام من إيجاد وإمداد بالحاجات والقنيات ، بل يشمل الغنى الخاص وهو ما يفيضه (سبحانه) على قلوب عباده المؤمنين من المعارف الربانية ، والحقائق الإيمانية .

وقد ورد اسم الغنى (سبحانه) في القرآن الكريم ثمانى عشرة مرة ، اقترن في عشر منها بالحميد ، ومرة بالحلیم ، وأخرى بالكريم ، وثالثة ، بالرحمة .

(١) آل سعدى ، المرجع السابق ، ص ٤٧-٤٨ .

قال تعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (١).
وقال تعالى: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ
حَلِيمٌ﴾ (٢).

وقال تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ (٣).

وقال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ (٤).

وكثرة اقتران الغنى بالحميد تدل على أن غناه (سبحانه وتعالى) فيه
خير وبركة للمخلوقات مما يستوجب حمدهم لأن من غناه يعطيهم
ويغنيهم ويفيض عليهم من نعمه وبركاته.

* * *

الواسع:

الواسع (سبحانه) هو الذي وسع غناه كل فقير ، ووسعت رحمته
كل شيء ، ووسع علمه جميع المخلوقات ، ووسعت قدرته جميع
المقدورات ، ووسع إحسانه وإنعامه كل خلقه فالكلمة مشتقة من
السعة ، والسعة تضاف إلى العلم إذا اتسع ، وإلى الإحسان إذا كثر ،
وإلى القدرة إذا أحاطت ، وإلى النعمة إذا فاضت ، وإلى الرحمة إذا
شملت .

قال الراغب الأصفهاني: « وسع يقال في الأمكنة وفي الحال وفي

(١) سورة لقمان / ٢٦ .

(٢) سورة البقرة / ٢٦٣ .

(٣) سورة النمل / ٤٠ .

(٤) سورة الأنعام / ٤ .

الفعل كالقدرة والجود . ففي المكان : ﴿إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ﴾ (١) ، وفي الحال : ﴿لَيَنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّنْ سَعَتِهِ﴾ (٢) والوسع من القدرة ما يفضل قدر المكلف . ﴿لَا يَكْلِفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (٣) وقوله : ﴿وَسِعَ كُلُّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ (٤) ، وقوله تعالى : ﴿وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا﴾ (٥) .

فعبارة عن سعة قدرته وعلمه ورحمته وإفضاله (٦) .

فالله عز وجل واسع الملك ، واسع القدرة ، واسع العلم ، واسع الرحمة ، واسع الإحسان والإنعام ، واسع المغفرة . فهو سبحانه وتعالى الواسع المطلق في كل شيء فكل شيء في الوجود له نهاية وحد ، ولا بد أن ينتهي إلى طرف والذئ لا يتناهي ولا حد لإحسانه ولا نهاية لسلطانه وإنعامه ، ولا ساحل لعلمه ، لا يحاط بذاته ولا بأسمائه وصفاته وهو الواسع الحق ، هو الله . فسبحان من وسع علمه جميع المعلومات فلا يشغله معلوم عن معلوم ، ووسعت قدرته جميع المقدورات فلا يشغله شأن عن شأن ، ووسع سمعه جميع المسموعات فلا يشغله دعاء عن دعاء ، ووسع إحسانه جميع الخلائق فلا يمنعه إغاثة ملهوف عن إغاثة غيره . ووسعت رحمته كل شيء فهو أرحم الراحمين ، ووسعت مغفرته كل ذنب فيغفر الذنوب جميعا . قال تعالى : ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (٥٣) وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلَمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٧﴾ .

(١) سورة العنكبوت ، آية : ٥٦ .

(٢) سورة الطلاق ، آية : ٧ .

(٣) سورة البقرة ، آية : ٢٨٦ .

(٤) سورة طه ، آية : ٩٨ .

(٥) سورة النساء ، آية : ١٣٠ .

(٦) الراغب الأصفهاني ، مرجع سابق ، ص ٥٢٣ .

(٧) سورة الزمر آية ٥٣ ، ٥٤ .

منها في سورة البقرة تعقيباً على ملكه وجوده ومغفرته .

قال تعالى : ﴿ فَأَيَّمَا تَوَلَّوْا فَنَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلَكُهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٢) .

وقال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٣) .

وقال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٤) .

ويلاحظ اقتران اسم الواسع باسم العليم في سبعة مواضع من المواضع التسعة التي وردت في القرآن الكريم مما يدل على أن فضل الواسع (سبحانه) وإحسانه ونعمه ورحمته وقدرته تعطى بناء على علمه الشامل المحيط بعباده .

فإذا ما أعطى سبحانه وتعالى ملكاً لطالوت وجعله ملكاً لبني إسرائيل فهو عليم سبحانه وتعالى به ، وهو الذي يضع الأمور في مواضعها .

وإذا ما ضاعف الرزق والثواب لمن ينفقون أموالهم في سبيله فهو سبحانه صاحب العطاء الواسع الذي لا ينضب ، وهو العليم الذي يعلم النيات ويثيب عليها ولا تخفى عليه خافية . وإذا خوف الشيطان المؤمنين من الفقر وأثار في نفوسهم الحرص والشح وعدهم الواسع العليم مغفرةً وعطاءً واسعاً جزيلاً .

(١) سورة البقرة آية ١١٥ .

(٢) سورة البقرة آية ٢٤٧ .

(٣) سورة البقرة آية ٢٦١ .

(٤) سورة البقرة آية ٢٦٨ .

المجيد:

المجيد في لغة العرب الكريم، والمجد: الكرم واشتقاقه من قول العرب: أمجدت الدابة علفاً، إذ أكثرته لها «فكان المجيد المبالغ في الكرم، المتناهي فيه»^(١).

والمجد الشرف الواسع، ورجل ماجد: مفضال كثير الخير شريف، والمجيد فعيل منه للمبالغة^(٢).

فالله عز وجل مجيد له الشرف التام الكامل والمجد والعلو والعظمة في ذاته وصفاته وأفعاله.

قال ابن القيم:

وهو المجيد صفاته أوصاف تعظيم فشأن الوصف أعظم شأن

فهو سبحانه المجيد له المجد العظيم، والمجد هو عظمة الصفات وسعتها، فكل وصف من أوصافه عظيم شأنه: فهو العليم الكامل في علمه، الرحيم الذي وسعت رحمته كل شيء، القدير الذي لا يعجزه شيء، الحليم الكامل في حلمه، الحكيم الكامل في حكمته، إلى بقية أسمائه وصفاته^(٣) التي بلغت غاية المجد فليس في شيء منها قصور أو نقصان، فهو سبحانه وتعالى (مجيد) بلغ الغاية في كل شيء فله الشرف الكامل والملك الواسع، والعطاء الجزيل، البر الجميل.

(١) الزجاجي، مرجع سابق، ص ١٥٢.

(٢) صلاح الدين حفتي، مختصر النهاية في غريب الحديث والأثر، ص ١٤٧.

(٣) عبد الرحمن آل سعدى، الحق الواضح البين، ص ٣٣.

وقد ورد هذا الاسم في القرآن الكريم مرتين :

﴿رَحِمْتُ اللَّهَ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾ (١) .

﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْودُودُ (١٤) ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾ (٢) .

وقد وصف القرآن الكريم بالمجيد ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ (٣) لكثرة ما تضمنه من العلوم والمكارم والمقاصد العليا والفوائد الدنيوية والأخروية .

وآثار الغنى الواسع المجيد في الكون والحياة لا يحصيها العد ، فالكون وما فيه من عوالم مختلفة وأم شتى إنما هو أثر من هذه الآثار ، فالمجرات والنجوم في السموات مما لا يحصيه العد أثر من هذه الآثار ، ويكفى أن تنظر إلى الشمس وما أودع فيها الغنى الواسع من منافع ، فبضوئها نبصر ونسير في الأرض ، وبحرارته وضوئها يتكون في النبات طعامنا بل وطعام كل كائن حي ، ومن أشعتها وحرارتها خزن الوقود للإنسان في الأرض ، ومن هذه الحرارة نلمس الدفء على سطح الأرض والذي لولاه لقضت البرودة على كل كائن حي . . . إلخ فسبحان الغنى الواسع .

والأرض وما عليها من منافع عظيمة وأرزاق شتى . . . بحيث نجدها مائدة عظيمة واسعة عامرة بأنواع الطعام ، يتناول منها كل ذئ حياة طعامه الخاص بحياته ويستمد رزقه الذي يناسبه ، فملايين الملايين من الأحياء ابتداء من ذئ الخلية الواحدة في النباتات والحيوانات وانتهاء بالإنسان في برها وبحرها وجوها تأكل كل يوم بل كل ساعة بل

(١) سورة هود آية ٧٣ .

(٢) سورة البروج آية ١٥ . (٣) سورة ق آية ١ .

كل دقيقة من على هذه المائدة، ومع ذلك لا ينفذ طعامها ولا ينضب فسبحان الغنى الواسع .

والحيوانات التي تملأ البر والبحر والتي تساق إليها أرزاقها بسهولة ويسر أثر من هذه الآثار، والجبال الراسيات وما في أجوافها من معادن مدخرة لمصالح العباد أثر من هذه الآثار .

وإبداع خلق الإنسان وتزويده بالأجهزة المتنوعة وتسليحه بالأسلحة الكثيرة أثر من هذه الآثار . فكل شيء في الوجود من حولنا يشهد بفقره إلى الغنى الواسع المجيد (سبحانه) . فكل الكائنات، وجميع الموجودات من الذرات حتى المجرات تخشع أمام الغنى الواسع، وتهمس في رجاء، وتلهج بالدعاء: فقراء يا ربنا فأغننا . . . عراة فاكسنا . . . جوعى فأطعمنا، عطشى فاسقنا . . . موتى فأحيينا . . . حاجاتنا إليك - يا ربنا - لا تنتهي فأعطنا حاجاتنا . . . أمن رغباتنا . . . حقق آمالنا . . . أعنا - يا خالقنا - لأداء ما لأجله خلقتنا . . . وحركنا لإنجاز مهامنا التي بها حياتنا . . . فليس لنا أحد سواك . . . منك أتينا وإليك - في حاجاتنا - نعود . . . ومنك حياتنا وإليك - في حفظها - نرجع . . . فأجب دعوانا يا مجيب كل داع ويا مغنى كل فقير . . . ويا معطى كل ذى حاجة حاجته ^(١) والاستغناء بالله عز وجل هو لبّ إيمان الموحدين، فالؤمن لا يتضرع إلا إليه، ولا يرجو أحداً سواه . فهو الغنى وكل من في الوجود إليه فقراء .

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (٢) .

(١) سعيد النورسى، التوافذ، ترجمه إحسان الصالحى، ص ١١، ١٢ .

(٢) سورة فاطر آية ١٥ .

وخزائن الغنى الواسع لا تنفذ ولا تنقص ، ففي الحديث القدسي الصحيح» . . .

«يا عبادى إني حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا، يا عبادى كلكم ضال إلا من هديته فاستهدونى أهدكم، يا عبادى كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعمونى أطعمكم، يا عبادى كلكم عار إلا من كسوته فاستكسونى أكسكم، يا عبادى إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفرونى أغفر لكم . يا عبادى إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى ولن تبلغوا نفعى فتنعونى، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئاً، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكى شيئاً، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد فسألونى فأعطيت كل إنسان مسأله ما نقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص الخيط إذا أدخل البحر....» (١) .

فجميع الخلق مفتقرون إلى الغنى الواسع المجيد فى جلب مصالحهم ، ودفع مضارهم فى أمور دينهم ودنياهم ، والعباد لا يملكون لأنفسهم شيئاً من ذلك كله ، وأن من لم يتفضل الله عليه بالهدى والرزق ، فإنه يحرمهما فى الدنيا ، ومن لم يتفضل الله عليه بمغفرة ذنوبه ، أو بقتة خطاياهم فى الآخرة . قال تعالى : ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾ (٢) . ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا

(١) رواه مسلم برقم / ٢٥٧٧ ، ورواه أحمد ١٥٤ / ٥ ، وابن ماجه والترمذى (٢٤٩٥) بلفظ

مغاير .

(٢) سورة الكهف آية ١٧ .

مُمْسِكٌ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ ﴿١﴾ . ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ ﴿٢﴾ .

فالله (عز وجل) هو الغنى وهو الواسع المجيد هو الذي خلق وهو الذي يهدى وهو الذي يطعم ، وهو الذي يشفى وهو الذي يحيى ويميت وهو الذي يغفر . قال إبراهيم (عليه السلام) لقومه :

﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ ﴿٣﴾ .

فهو سبحانه الغنى المتفرد بالألوهية والعبادة والسؤال والتضرع إليه والاستكانة له ومن غناه وسعته ومجده يحب أن يسأله العباد جميع مصالح دينهم ودنياهم ، ومن الطعام والشراب والكسوة والهداية وغير ذلك كما ورد في الحديث السابق . وكان بعض السلف يسأل الله (عز وجل) في صلاته كل شيء حتى ملح عجينه وعلف دابته .

وقد جاء في أثر إسرائيل أن موسى (عليه السلام) قال : «يا رب إنه لتعرض لى الحاجة من الدنيا ، فأستحيى أن أسألك ، قال : سلنى حتى ملح عجيتك وعلف حمارك» فإن كل ما يحتاج إليه العبد إذا سأل الله فقد أظهر حاجته فيه ، وافتقاره إلى الله ، وذلك يحبه الله (٤) فدوام السؤال يعبر عن دوام الافتقار إلى الله (عز وجل) .

(١) سورة فاطر آية ٢ .

(٢) سورة هود ٦ .

(٣) سررة الشعراء / ٧٥ - ٨٢ .

(٤) ابن رجب الحنبلى ، جامع العلوم والحكم ، ج ٢ ، ص ٣٩ .

ولا تنافى بين الافتقار إلى الله (عز وجل)، وامتلاك المال، فقد كان رسل الله وأنبيأؤه في ذروة الافتقار إلى الله (عز وجل) مع جدتهم وملكهم، كإبراهيم الخليل (عليه السلام) كان أبا الضيفان. وكان له من الأموال والمواشي. وكذلك كان سليمان وداود عليهما السلام. وكذلك كان نبينا (ﷺ)، كما قال الله (عز وجل) ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾^(١) فكانوا أغنياء في فقرهم. فقراء في غناهم^(٢).

وقد قيل: أحسن ما يتوسل به العبد إلى الله: دوام الافتقار إليه على جميع الأحوال وملازمة السنة في جميع الأفعال، وطلب القوت من الحلال.

فالفقر إلى الله (عز وجل) هو عين الغنى بالله ولا غنى إلا به سبحانه وتعالى لأنه هو الغنى حقيقة، وكل ما سواه فقير إليه فينبغى ألا يتعلق إلا به. فمن تعلق بغير الله افتقر لأنه تعلق بفقير وكيف يستغنى الفقير بالفقير؟!

وملك الغنى (سبحانه) لا يزيد بطاعة الخلق، ولو كانوا كلهم بررة أتقياء، قلوبهم على قلب أتقى رجل منهم، ولا ينقص ملكه بمعصية العاصين، فإنه (سبحانه) الغنى بذاته عمن سواه، وله الكمال المطلق في ذاته وصفاته وأفعاله، فملكه ملك كامل لا نقص فيه بوجه من الوجوه على أى وجه كان. فمن كمال ملكه وكمال غناه أن خزائنه لا تنفذ، ولا تنقص بالعطاء، ولو أعطى الأولين والآخرين من الجن والإنس جميع ما سألوه في مقام واحد. وفى الحديث عن أبى هريرة (رضى الله عنه)

(١) سورة الضحى/ ٨.

(٢) ابن القيم الجوزية، مدارج السالكين، ج ٢، ص ٤٠٠، ص ٤٤١.

عن النبي (ﷺ) قال: «يد الله ملاءى، لا تفيضها نفقة، سحاء الليل والنهار، أفرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض؟ فإنه لم يفيض ما فى يمينه»^(١).

وقال أبو سعيد الخدرى: إذا دعوتكم، فارفعوا فى المسألة، فإن ما عنده لا ينفده شيء، وإذا دعوتكم فاعزموا، فإن الله لا مستكره له.

وفى الصحيح عن أبى هريرة (رضى الله عنه) عن النبي (ﷺ) قال: «إذا دعا أحدكم، فلا يقل اللهم اغفر لى إن شئت، ولكن ليحزم المسألة، وليعظم الرغبة فإن (لا يتعاضمه شيء)»^(٢).

فالعبد لا يسأل إلا الغنى الواسع، وهو سبحانه يحب أن يسأل ويرغب إليه فى الخوائج، ويلج فى سؤاله ودعائه، ويغضب على من لا يسأله، والمخلوق بخلاف ذلك كله: يكره أن يسأل، ويحب أن لا يسأل لعجزه وفقره وحاجته ولهذا قال رسول (ﷺ) فى الحديث الذى رواه ابن عباس «... وإذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله...»^(٣).

وقد ثبت فى الصحيحين عن النبي (ﷺ) أن الله (عز وجل) يقول: «هل من داع فأستجيب له؟ هل من سائل فأعطيه؟ هل من مستغفر فأغفر له»^(٤).

فالله عز وجل هو الغنى وهو الذى يحب أن يسأل وغيره يكره ذلك

(١) رواه البخارى (٤٦٨٤) ومسلم (٩٩٣)، والترمذى (٣٠٤٥).

(٢) رواه مسلم برقم (٢٦٧٩)، ورواه أحمد، وصححه ابن حبان (٨٩٦).

(٣) رواه الترمذى، وقال: حديث حسن صحيح (٢٥١٦) ورواه أحمد وأبو يعلى إلا أن طريقة تخريج الترمذى حسنة جيدة: انظر جامع العلوم والحكم حديث رقم ١٩.

(٤) رواه البخارى (١١٤٥)، ومسلم (٨٥٨)، وغيرهما.

لأنه فقير محتاج ولهذا قال وهب بن منبه لرجل كان يأتي الملوك :
ويحك، أتأتى من يغلث عنك بابه، ويظهر لك فقره، ويوارئ عنك
غناه، وتدع من يفتح لك بابه بنصف الليل ونصف النهار، ويظهر لك
غناه، ويقول: ادعني أستجب لك؟!!

وقال طاووس لعطاء: إياك أن تطلب حوائجك إلى من أغلق
دونك بابه، وجعل دونها حجابها، وعليك بمن بابه مفتوح إلى يوم
القيامة أمرك أن تسأله، ووعدك أن يجيبك^(١).

والخلق عندما يعطون فإنهم يمنون بعطاياهم، ويتتظرون عوضاً،
وما ذاك إلا لفقرهم وحاجتهم.

قال عبد الرزاق سمعت النعمان بن الزبير الصنعاني يحدث أن
محمد بن يوسف أو أيوب بن يحيى بعث إلى طاووس بسبعمائة دينار
أو خمسمائة. وقيل للرسول: إن أخذها الشيخ منك، فإن الأمير
سيحسن إليك ويكسوك، فقدم بها على طاووس، فأراد على أخذها،
فأبى، فغفل طاووس، فرمى بها الرجل في كوة البيت، ثم ذهب وقال
لهم: قد أخذها، ثم بلغهم عن طاووس شيء يكرهونه فقال: ابعثوا
إليه، فليبعث إلينا بما لنا، فجاءه الرسول، فقال: المال الذي بعث به
الأمير إليك، قال: ما قبضت منه شيئاً، فرجع الرسول، وعرفوا أنه
صادق، فبعثوا إليه الرجل الأول، فقال: المال الذي جئتك به يا أبا عبد
الرحمن؟ قال: هل قبضت منك شيئاً؟ قال: لا، ثم نظر حيث وضعه،
فمدّ يده فإذا بالبصرة قد بنى العنكبوت عليها. فذهب بها إليهم^(٢).

(١) رواه أبو نعيم في الحلية ١١/٤، ١٤١/٨.

(٢) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٥، ص ٤٠.

ولذلك كان الصالحون يتعففون عن عطايا السلاطين، لأن الكل فقراء والله هو الغنى الحميد. روى كثير بن يحيى عن أبيه قال: قدم سليمان بن عبد الملك المدينة وعمر بن عبد العزيز عامل عليها، قال: فصلني بالناس الظهر، ثم فتح باب المقصورة واستند إلى المحراب، واستقبل الناس بوجهه، فنظر إلى صفوان بن سليم، فقال لعمر: من هذا؟ ما رأيت أحسن سمةً منه. قال: صفوان، قال: يا غلام كيس فيه خمسمائة دينار فأتاه به، فقال لخادمه: اذهب بها إلى ذلك القائم، فأتني حتى أجلس إلى صفوان وهو يصلي، ثم سلم، فأقبل عليه، فقال ما حاجتك؟ قال: يقول أمير المؤمنين: استعن بهذه على زمانك وعيالك، فقال صفوان: لست الذي أرسلت إليه فقال: أأنت صفوان بن سليم؟. قال: بلى، قال: فيأليك أرسلت، قال اذهب فاستثبت، فولني الغلام، وأخذ صفوان نعليه وخرج، فلم يُرَ بها حتى خرج سليمان من المدينة (١).

وقال ابن شوذب: قسم أمير البصرة على قرائها، فبعث إلى مالك بن دينار فأخذ فقال له محمد بن واسع: قبلت جوائزهم؟ قال سل جلسائي. قالوا: يا أبا بكر اشترى بهم رقيقاً فأعتقهم. قال: أنشدك، أأقبلك الساعة على ما كان عليه؟ قال اللهم لا إنما مالك حمار، إنما يعبد الله مثل محمد بن واسع (٢).

فالعبد لا يسأل إلا الله ولا يستعين إلا به، لأن الاستعانة بغيره عجز، لأن العبد عاجز عن الاستقلال بجلب مصالحه، ودفع مضاره،

(١) المرجع السابق، ص ٣٦٨.

(٢) المرجع السابق، ج ٦، ص ١٢٠.

ولا معين له على مصالح دينه ودنياه إلا الله عزّ وجلّ، فمن أعانته الله فهو المعان، ومن خذله فهو المخذول وهذا تحقيق معنى قوله: «لا حول ولا قوة إلا بالله» فإن المعنى لا تحول للعبد من حال إلى حال، ولا قوة له على ذلك إلا بالله. فمن ترك الاستعانة بالله واستعان بغيره وكله الله إلى من استعان به فصار مخذولاً. كتب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز: لا تستعن بغير الله، فيكلك الله إليه. ومن كلام بعض السلف: يارب عجبت لمن يعرفك كيف يرجو غيرك؟ عجبت لمن يعرفك كيف يستعين بغيرك؟^(١).

﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾^(٢).

«اللهم آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار»^(٣).

«اللهم إني أسألك الهدى، والتقى، والعفاف، والغنى»^(٤).

«اللهم إني أعوذ بك من الفقر والقلة والذلة، وأعوذ بك من أن أظلم أو أظلم»^(٥).

«اللهم قنني بما رزقتني، وبارك لي فيه، واخلف على كل غائبة لي بخير»^(٦).

(١) ابن رجب الحنبلي، مرجع سابق، ج١، ص ٤٨٢

(٢) سورة القصص / ٢٤.

(٣) البخاري ١٦٣ / ٧، ومسلم ٢٠٧٠ / ٤.

(٤) رواه مسلم ٢٠٨٧ / ٤.

(٥) رواه النسائي وأبو داود، وانظر صحيح النسائي ١١١١ / ٣، وصحيح الجامع ٤٠٧ / ١.

(٦) أخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي ٥١٠ / ١ (عن ابن عباس رضي الله عنهما).

العلي الأعلى المتعالى

٢٠ ٢١ ٢٢

العليّ: فعيل من العلو والعلاء، والعلاء الرفعة والسناء والجلال تقول العربى «فلان عليّ ذو علاء» إذا كان جليلاً عظيماً الشأن. وقال الخليل بن أحمد: «الله عزّ وجلّ هو العليّ الأعلى المتعالى ذو العلاء والعلو، فأما العلاء: فالرفعة، والعلو: العظمة والتجبر. وتقول «علاء الشئ علاء». ويقال: علوت وعليت جميعاً، وكذلك على علاء في الرفعة والشرف والارتفاع. والعلنى والعالى أيضاً: القاهر الغالب للأشياء، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ (١) قيل معناه: قهر أهلها وغلبهم واستولى عليهم. . . فالله (عزّ وجلّ) العلىّ العالىّ ذو العلاء والجلال والرفعة والسناء، الغالب القاهر للأشياء كلها، والله عزّ وجلّ العليّ العالىّ جلّ وتقدست أسماؤه (٢).

فالله عزّ وجلّ له علو الذات فإنه فوق المخلوقات، وله علو الصفات وعظمتها فلا يماثله صفة مخلوق، وله علو القهر فهو الواحد القهار.

قال ابن القيم:

وهو العليّ فكل أنواع العلى — وله فثابتة بلا نكران

فجميع معانى العلو ثابتة لله من كل وجه، فله علو الذات فإنه فوق المخلوقات وعلى العرش استوى أي علا وارتفع وله علو القدر وهو علو صفاته وعظمتها فلا يماثله صفة مخلوق، بل لا يقدر الخلائق كلهم أن يحيطوا ببعض معانى صفة واحدة من صفاته، قال تعالى: ﴿وَلَا

(٢) الزجاجي، مرجع سابق، ص ١١٠.

(١) سورة القصص، آية: ٤.

يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴿١﴾ وبذلك يعلم أنه ليس كمثله شيء في كل نعوته . وله علو القهر فإنه الواحد القهار الذي قهر بعزته وعلوه الخلق كلهم فنواصيهم بيده، وما شاء كان لا يمانعه فيه ممانع، وما لم يشأ لم يكن، فلو اجتمع الخلق على إيجاد ما لم يشأه الله لم يقدرُوا، ولو اجتمعوا على منع ما حكمت به مشيئته لم يمنعه، وذلك لكمال اقتداره ونفوذ مشيئته وشدة افتقار المخلوقات كلها إليه من كل وجه (٢).

وعلو الله تعالى بذاته وصفاته من أبين الأشياء وأظهرها، وهو ثابت بالكتاب والسنة والعقل والفطرة والإجماع (٣):

أما الكتاب فقد تعددت دلالاته على ذلك، فتارة بلفظ العلو والفوقية والاستواء على العرش وكونه في السماء كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ (٤)، ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ (٥)، ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ (٦)، ﴿أَأَمْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ﴾ (٧).

وتارة بلفظ صعود الأشياء وعروجها ورفعها إليه كقوله ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ (٨) ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ (٩)، ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنِي مَرْيَمَ ارْفَعِي أَيْدِيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ (١٠).

وتارة بلفظ نزول الأشياء منه ونحو ذلك كقوله تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ﴾ (١١)، ﴿يُدَبِّرُ الْأُمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ﴾ (١٢).

أما السنة فقد دلت عليه بأنواعها القولية والفعلية والإقرارية في

(١) سورة طه/ ١١٠.

(٢) عبد الرحمن آل سعدى، الحق الواضح المبين، ص ٢٦.

(٣) محمد بن صالح بن عثيمين، القواعد المثلى، ص ٦١، ٦٢.

(٤) سورة البقرة، آية: ٢٥٥. (٥) سورة الأنعام، آية: ١٨ و ٦١.

(٦) سورة طه، آية: ٥. (٧) سورة الملك، آية: ١٦.

(٨) سورة فاطر، آية: ١٠. (٩) سورة المعارج، آية: ٤.

(١٠) سورة آل عمران، آية: ٥٥. (١١) سورة النحل، آية: ١٠٢.

(١٢) سورة السجدة، آية: ٥.

أحاديث كثيرة تبلغ حد التواتر وعلى وجوه متنوعة كقوله (ﷺ) في سجوده: «سبحان ربي الأعلى»، وقوله: «إن الله لما قضى الخلق كتب عنده فوق عرشه إن رحمتي تسبق غضبي»، وقوله: «ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء» وثبت عنه أنه رفع يديه وهو على المنبر يوم الجمعة يقول: «اللهم أغثنا». وأنه رفع يده إلى السماء وهو يخطب الناس يوم عرفة حين قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت فقال: «اللهم اشهد». وأنه قال للجارية: أين الله؟ قالت في السماء فأقرأها وقال لسيدها: «اعتقها فإنها مؤمنة».

وأما العقل فقد دل على وجوب صفة الكمال لله تعالى وتنزيهه عن النقص. والعلو صفة كمال والسفل نقص فوجب لله تعالى صفة العلو وتنزيهه عن ضده.

وأما الفطرة فقد دلت على علو الله تعالى دلالة ضرورية فطرية فما من داع أو خائف فزع إلى ربه تعالى إلا وجد في قلبه ضرورة الاتجاه نحو العلو لا يلتفت عن ذلك يئمة ولا يسرة. واسأل المصلين يقول الواحد منهم في سجوده! «سبحان ربي الأعلى أين تتجه» أين تتجه قلوبهم حينذاك؟.

وأما الإجماع فقد أجمع الصحابة والتابعون والأئمة على أن الله تعالى فوق سمواته مستور على عرشه وكلامهم مشهور في ذلك نصاً وظاهراً، قال الأوزاعي: كنا والتابعون متوافرون نقول إن الله تعالى ذكره فوق عرشه ونؤمن بما جفمن كل وجه عادم الـ

وعلو الله (عز وجل) لا يخالف معينه لعباده، فالله (عز وجل) فوق العرش حقيقة ومعنا حقيقة كما جمع بينهما في قوله سبحانه وتعالى: «هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ

مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١﴾ .

فأخبر أنه فوق العرش يعلم كل شيء، وهو معنا أينما كنا كما قال (ﷺ) في حديث الأفعال: «والله فوق العرش وهو يعلم ما أنتم عليه» .

فتفسير المعية بظاهرها على الحقيقة اللائقة بالله تعالى لا يناقض ما ثبت من علو الله تعالى بذاته على عرشه وذلك من وجوه ثلاثة :

الأول: أن الله تعالى جمع بينهما لنفسه في كتابه المبين المنزه عن التناقض وما جمع الله بينهما في كتابه فلا تناقض بينهما .

وكل شيء في القرآن تظن فيه التناقض فيما يبدو لك فتدبره حتى يتبين لك لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ (٢) فإن لم يتبين لك فعليك بطريق الراسخين في العلم الذين يقولون لله آمنا به كل من عند ربنا» وكل الأمر إلى منزله الذي يعلمه واعلم أن القصور في علمك أو في فهمك وأن القرآن لا تناقض فيه .

والإلى هذا الوجه أشار ابن تيمية وابن القيم حيث قال : وقد أخبر الله أنه مع خلقه مع كونه مستوياً على عرشه وقرن بين الأمرين كما في آية الحديد فأخبر أنه خلق السموات والأرض ثم استوى على العرش وأنه مع خلقه يبصر أعمالهم من فوق عرشه وكما في الحديث : «والله فوق العرش يرى ما أنتم عليه» فعملوه لا يناقض معيته ، ومعيته لا تبطل علوه بل كلاهما حق .

الوجه الثاني: أن حقيقة معنى المعية لا يناقض العلو فالاجتماع بينهما ممكن في حق المخلوق فإنه يقال : ما زلنا نسير والقمر معنا ولا يعد ذلك تناقضاً ولا يفهم منه أحد أن القمر نزل في الأرض فإذا كان هذا ممكناً في

(١) سورة الحديد، آية : ٤ .

(٢) سورة النساء، آية : ٨٢ .

حق المخلوق ففي حق الخالق المحيط بكل شيء مع علوه سبحانه من باب أولى، وذلك لأن حقيقة المعية لا تستلزم الاجتماع في المكان.

وإلى هذا الوجه أشار شيخ الإسلام ابن تيمية في الفتاوى الحموية (الفتاوى: المجلد الخامس / ص ١٠٣) حيث قال: وذلك أن كلمة (مع) في اللغة إذا أطلقت فليس ظاهرها في اللغة إلا المقارنة المطلقة من غير مماسة أو محاذاة عن يمين أو شمال فإذا قيدت بمعنى من المعاني دلت على المقارنة في ذلك المعنى فإنه يقال: ما زلنا نسير والقمر معنا أو والنجم معنا ويقال: هذا المتاع معي لمجامعته لك وإن كان فوق رأسك فالله مع خلقه حقيقة وهو فوق عرشه حقيقة. وصدق رحمة الله تعالى فإن من كان عالماً بك مطالعاً عليك مهيمناً عليك يسمع ما تقول ويرى ما تفعل ويدبر جميع أمورك فهو معك حقيقة وإن كان فوق عرشه حقيقة لأن المعية لا تستلزم الاجتماع في المكان.

الوجه الثالث: أنه لو فرض امتناع اجتماع المعية والعلو في حق المخلوق لم يلزم أن يكون ذلك ممتنعاً في حق الخالق الذي جمع لنفسه بينهما لأن الله تعالى لا يماثله شيء من مخلوقاته كما قال تعالى: ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾.

وإلى هذا أشار ابن تيمية في العقيدة الوسطية حيث قال: وما ذكر في الكتاب والسنة من قربه ومعيته لا ينافي ما ذكر من علوه وفوقيته فإنه سبحانه ليس كمثله شيء في جميع نعوته وهو على في دنوة قريب في علوه (١).

وهناك فرق بين العلو والاستواء، فالعلو من صفات الذات، والاستواء من صفات الأفعال فعلم الله على خلقه وصف لازم لذاته، والاستواء فعل من أفعاله سبحانه يفعل به سبحانه وتعالى بمشيئته وقدرته

(١) محمد بن صالح بن عثيمين، المرجع السابق، ص ٥٨، ص ٦٠.

إذا شاء، ولذا قال فيه: (ثم استوى) وكان ذلك بعد خلق السموات والأرض. كما أن العلو من الصفات الثابتة بالعقل والنقل، والاستواء ثابت بالنقل لا بالعقل^(١).

وقد ورد اسم العلي في القرآن الكريم تسع مرات اقترن في خمس منها بالكبير، وفي اثنتين بالعظيم، وفي اثنتين بالحكيم.

- قال تعالى: ﴿وَلَا يَدْعُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ (٢).
- ﴿وَأَنْ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ (٣).
- ﴿وَأَنْ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ (٤).
- ﴿قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ (٥).
- ﴿وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ (٦).
- ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ (٧).
- ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيُّ حَكِيمٌ﴾ (٨).
- ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ﴾ (٩).
- ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ (١٠).

أما اسم الله الأعلى فقد ورد مرتين:

قال تعالى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى . الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى﴾ (١١).

(١) صالح الفوزان، شرح العقيدة الوسطية، ص ٨١.

(٢) سورة البقرة آية ٢٥٥. (٣) سورة الحج آية ٦٢.

(٤) سورة لقمان آية ٣٠. (٥) سورة سبأ آية ٢٣.

(٦) سورة غافر آية ١٢. (٧) سورة الشورى آية ٤.

(٨) سورة الشورى آية ٥١. (٩) سورة الزخرف آية ٤.

(١٠) سورة النساء آية ٣٤. (١١) الأعلى آية ١، ٢.

﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى﴾ (١).

وورد اسم الله المتعالي مرة واحدة.

قال تعالى ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ (٢).

وقد فرق ابن الأثير بين الأسمين العلي والمتعالي، فقال: إن العلي هو الذي ليس فوقه شيء، فهو فعيل بمعنى فاعل، من علا يعلو، والمتعالي هو الذي جلّ عن إفك المفترين وعلا شأنه، وقيل: جلّ عن كل وصفٍ وثناء وهو متفاعل من العلو، وقد يكون المعنى العالِي (٣).

﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ أعلى من أن يقاس به أو يعتبر بغيره (٤).

فهو سبحانه ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى . وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ الذي خلق كل شيء فسواه، فأكمل صنعته، وبلغ به غاية الكمال الذي يناسبه، والذي قدر لكل مخلوق وظيفته وغايته فهده لما خلقه لأجله، وألهمه غاية وجوده، وقدر له ما يصلحه مدة بقائه وهده إليه . . . وجميع الأشياء مجتمعة كاملة التناسق، ميسرة لكي تؤدي في تجمعها دورها الجماعي، مثلما هي مسيرة فرادى لكي تؤدي دورها الفردي. الذرة بمفردها كاملة التناسق بين كهاربها وبروتوناتها وإلكتروناتها، شأنها شأن المجموعة الشمسية في تناسق شمسها وكواكبها وتوابعها . . . وهي تعرف طريقها وتؤدي مثلها وظيفتها . . . والخلية الحية المفردة كاملة الخلقة والاستعداد لأداء وظائفها كلها شأنها شأن أرقى الخلائق الحية المركبة المعقدة. وبين الذرة المفردة والمجموعة الشمسية، كما بين الخلية الواحدة وأرقى الكائنات الحية، درجات من التنظيمات والتركيبات كلها في مثل هذا

(١) الليل: ١٩، ٢٠. (٢) الرعد آية ٩.

(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، ص.

(٤) الراغب الأصفهاني، مرجع سابق، ص ٣٤٥.

الكمال الخلقى، وفي مثل هذا التناسق الجماعي، وفي مثل هذا التدبير والتقدير الذي يحكمها ويصرفها. والكون كله هو الشاهد الحاضر على هذه الحقيقة العميقة (١).

فسبحان ربي الأعلى الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى والذي أخرج المرعى فجعله غثاء أحوى.

روى الإمام أحمد أن عقبة بن عامر قال: لما نزلت ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ قال لنا رسول الله ﷺ «اجعلوها في ركوعكم» فلما نزلت ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ قال: «اجعلوها في سجودكم» (٢).

وروى أيضاً أن ابن عباس (رضي الله عنهما) قال: إن رسول الله ﷺ كان إذا قرأ ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ قال: «سبحان ربي الأعلى» (٣).

والمسلم عندما ينظر في خلق الله (عز وجل)، وهو واحد وأتمودج من هذا الخلق يتوارى شعوره بنفسه ليملاًها الشعور بالأعلى المتعالي (سبحانه وتعالى) فلا يقوم في نفسه خاطر استعلاء في الأرض وإنما يشعر بضالته أمام آثار العلي الأعلى (سبحانه).

قال تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (٤).

وقال تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ (٥). أي

(١) سيد قطب، في ظلا القرآن، ج٦، ص ٣٨٨٤.

(٢) ورواه أبو داود وابن ماجه، وانظر صحيح مسلم (٧٧٢) في صلاة المسافرين.

(٣) ورواه أبو داود أيضاً، وانظر صحيح مسلم (٧٧٢) في صلاة المسافرين.

(٤) سورة القصص آية ٨٣.

(٥) سورة الفرقان/ ٦٣.

في سَكينة ووقار متواضعين، غير أشربين ولا مرحين ولا متكبرين.

وأول ذنب عصي به الله (عز وجل) الكبر وهو ذنب إبليس اللعين، ولذلك جعل الله النار دار المتكبرين قال الله تعالى للكافرين: ﴿ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ (١).

وأهل الكبر التجبر هم الذين طبع الله على قلوبهم، قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ يَطْعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٌ﴾ (٢).

ومن كان في قلبه مثقال ذرة من كبر فمصيره النار. قال رسول الله (ﷺ) «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر» فقال رجل: الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً، ونعله حسناً؟ قال: «إن الله جميل يحب الجمال الكبر بطر الحق، وغمط الناس» (٣).

وإذا تغلغل مرض التكبر وتمكن من أقطار النفس صعب على صاحبه أن يثوب إلى الحق فضلاً عن التواضع.

عن سلمة بن الأكوع (رضي الله عنه) أن رجلاً أكل عند رسول الله (ﷺ) فقال: «كل يمينك» قال لا أستطيع! قال: «لا استطعت» ما منعه إلا الكبر. قال: فما رفعها إلى فيه (٤).

والكبر يزيد يوماً بعد يوم في النفوس الخاوية الخربة التي ليس فيها أثر من التواضع والخضوع للعلي الأعلى سبحانه وتعالى، حتى تلقى مصيرها المحتوم من الخسف في الأرض والعذاب الأليم جزاءً وفاقاً. فطالما استطالت على ظهر الأرض وسامت الضعفاء سوء العذاب.

(١) سورة الزمر/ ٧٢. (٢) سورة غافر/ ٣٥.

(٣) رواه مسلم في كتاب الإيمان، ورواه أبو داود والترمذي والنسائي، وبطر الحق رده، وغمط الناس: احتقارهم.

(٤) رواه مسلم في باب الأطعمة.

قال تعالى: ﴿إِنْ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءَ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ (١) إلى قوله تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ﴾ الآيات.

عن سلمة بن الأكوع (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (ﷺ) «لا يزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب في الجبارين، فيصيبه ما أصابهم» (٢).

وعن أبي هريرة (رضي الله عنه) أن رسول الله (ﷺ) قال: «بينما رجل يمشي في حلة تعجبه نفسه، مرجل رأسه، يختال في مشيته، إذ خسف الله به، فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة» (٣).

أما الصالحون فيتواضعون ويشعرون بالذل والانكسار أمام العلي الأعلى المتعالي قال رسول الله (ﷺ): «... وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله» (٤) وقد ضرب لنا رسول الله (ﷺ) وهو سيد ولد آدم المثل الأعلى في التواضع ولين الجانب وكرم الطباع. فإنه حين رأى رجلاً يرتعد منه ظناً منه أنه ملك من الملوك قال له رسول الله (ﷺ): «هون عليك فإنني لست بملك إنما أنا ابن امرأة من قريش، كانت تأكل القديد» (٥).

وعن أبي رفاعة تميم بن أسيد (رضي الله عنه) قال: انتهيت إلى رسول الله (ﷺ) وهو يخطب، فقلت: يا رسول الله، رجل غريب جاء يسأل عن دينه لا يدري ما دينه؟ فأقبل عليّ رسول الله (ﷺ)، وترك خطبته حتى انتهت إليّ فأتى بكرسي، فقعده عليه، وجعل يعلمني مما علمه الله، ثم أتى خطبته، فأتى آخرها (٦).

(١) سورة القصص / ٧٦. (٢) رواه الترمذي، وقال حديث حسن.

(٣) متفق عليه، (مسلم / ٢٠٨٨). (٤) أخرجه مسلم والترمذي.

(٥) صحيح سنن ابن ماجه برقم / ٢٦٧٧، ٣٣١٢.

(٦) رواه مسلم في أبواب الجمعة من صحيحه، ورواه النسائي في سننه.

وعن الأسود بن يزيد قال : سئلت عائشة (رضي الله عنها) ما كان النبي (ﷺ) يصنع في بيته ؟ قالت : كان يكون في مهنة أهله - يعني خدمة أهله - فإذا حضرت الصلاة ، خرج إلى الصلاة (١) .

وكان (ﷺ) يسلم على الصبيان ، وتأخذ الأمة بيده فتنتلق به حيث شاءت . عن أنس (رضي الله عنه) أنه مرّ على صبيان فسلم عليهم ، وقال : كان النبي (ﷺ) يفعل (٢) .

وعنه قال : إن كانت الأمة من إماء المدينة لتأخذ بيد النبي (ﷺ) فتنتلق به حيث شاءت (٣) .

وقد علم أصحابه (ﷺ) هذا الخلق النبيل قولاً وسلوكاً :

عن عياض بن حمار (رضي الله عنه) قال : قال رسول الله (ﷺ) : «إن الله أوحى إلى أن تواضعوا حتى لا يفخر أحدٌ على أحدٍ ، ولا يبغي أحدٌ على أحدٍ» (٤) .

وقد استقى أصحابه (ﷺ) من هذا النبع الفياض . فهذا زيد بن ثابت (رضي الله عنه) يركب فيدنو منه ابن عباس ليأخذ بركابه ، فقال له زيد : مه يا ابن عم رسول الله فقال : هكذا أمرنا أن نفعل بكبرائنا . فقال : أرني يدك فأخرجها إليه فقبلها فقال : هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت رسول الله (ﷺ) (٥) .

وقال عروة بن الزبير (رضي الله عنهما) : رأيت عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) على عاتقه قربة ماء ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، لا ينبغي

(١) رواه البخاري في كتاب الاستئذان .

(٢) رواه البخاري في كتاب الاستئذان .

(٣) رواه البخاري . (٤) رواه مسلم وأبو داود وابن ماجه .

(٥) أبو الفرج بن الجوزي ، مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٧٠٦ .

لك هذا. فقال: لما أتاني الوفود سامعين مطيعين. دخلت نفسي نخوة، فأردت أن أكسرها.

وولى أبو هريرة (رضي الله عنه) إمارة مرة فكان يحمل حزمة الخطب على ظهره، ويقولوا: طرّقوا للأمير.

ومر الحسن على صبيان معهم كسر خبز، فاستضافوه، فنزل فأكل معهم، ثم حملهم إلى منزله، فأطعمهم وكساهم، وقال: اليد لهم، لأنهم لا يجدون شيئاً غير ما أطعموني ونحن نجد أكثر منه.

وعير أبو ذر بلالاً (رضي الله عنهما) بسواده، ثم ندم، فألقى بنفسه، وحلف: لا رفعت رأسي حتى يطأ بلال خدي بقدمه فلم يرفع حتى فعل بلال.

ورأى محمد بن واسع ابناً له يمشي مشية منكرة، فقال: تدري بكم اشتريت أمك؟ بثلاثمائة درهم. وأبوك - لا أكثر الله في المسلمين مثله - أنا وأنت تمشي هذه المشية^(١).

«اللهم إني أعوذ بك من منكرات الأخلاق، والأعمال، والأهواء»^(٢).

«اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل والجبن والبخل، والهرم، وعذاب القبر، اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها. أنت وليها ومولاها. اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها»^(٣).

(١) ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين، ج ٢، ص ٣٣٠، ص ٣٣١.

(٢) رواه الترمذي وابن ماجه والحاكم والطبراني، وانظر صحيح الترمذي ١٨٤/٣.

(٣) رواه مسلم ٢٠٨٨/٤.

الكبير المتكبر

٢٣ ٢٤

الكبير: العظيم الجليل، يقال فلان كبير بني فلان «أي رئيسهم وعظيمهم» ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبْرَاءَنَا﴾ أي عظماءنا ورؤساءنا، وكبرياء الله: عظمته وجلاله. ومنه قيل: كبرت تكبيراً وعظمت تعظيماً أي وصفته بالكبرياء والعظمة (١).

فالله عز وجل هو الكبير في كل شيء، وهو الذي كبر وعلا في ذاته وصفاته وأفعاله عن مشابهة مخلوقاته. فله تبارك وتعالى كبرياء الذات والصفات والأفعال. فهو سبحانه وتعالى أكبر من كل شيء، وأعلى من كل شيء، وأجل من كل شيء، تتضاءل أمامه الكبرياء والعظمة. وقد جاء ذكر اسم الكبير في القرآن الكريم (ست مرات).

قال تعالى:

﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ (٢).

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ (٣).

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ (٤).

﴿قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ (٥).

(١) الزجاجي، مرجع سابق، ص ١٥٥. (٢) سورة الرعد/ ٩.

(٣) سورة الحج/ ٦٢. (٤) سورة لقمان/ ٣٠.

(٥) سورة سبأ/ ٢٣.

﴿فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ (١).

﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِمْ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ (٣).

ويلاحظ اقتران الكبير بالعلي المتعالي مما يدل على أنه كبير في علوه علي في كبريائه (سبحانه وتعالى).

أما المتكبر فهو المتعالي عن صفات الخلق، الذي تكبر برؤيته فلا شيء مثله، وتكبر عن كل سوء، وتعظم عما لا يليق به من صفات الحدث والذم. وهو سبحانه الذي يتكبر على عتاة خلقه إذا نازعوه العظمة فيقصرهم، والتاء في المتكبر تاء التفرد والتخصص بالكبر، لا تاء التعاطي والتكلف. فهو متفرد بالكبرياء والعظمة، وليس للملكه زوال، ولا لعظمته انتقال. فالكبرياء في صفات الله (عز وجل) مدح، وفي صفات المخلوقين ذم.

وفي الحديث عن أبي هريرة (رضي الله عنه) أن رسول الله (ﷺ) قال: قال الله عز وجل «العز إزاري والكبرياء ردائي فمن نازعني عذبت» (٣).

قال الأصفهاني: «والتكبر يقال على وجهين: أحدهما: أن تكون الأفعال حسنة كثيرة في الحقيقة وزائدة على محاسن غيره وعلى هذا وصف الله تعالى بالتكبر. والثاني: أن يكون متكلفاً لذلك متشعباً به وذلك في وصف عامة الناس. فمن وصف بالتكبر على الوجه الأول فهو محمود. ومن وصف بالتكبر على الوجه الثاني فهو مذموم» (٤).

(١) سورة غافر/ ١٢.

(٢) سورة النساء/ ٣٤.

(٣) أخرجه مسلم في اللباس، وأبو داود في الزهد، ورواه ابن ماجه والبخاري.

(٤) الراغب الأصفهاني، مرجع سابق، ص ٤٢٢.

متفرد بالكبرياء	فليس يشبهه أحد
لو شاء أغلق بابه	عمن عصاه ومن جحد
متوحد متكبر	سبحانه الفرد الصمد
وله الكمال بغير	حد والوجود بلا عدد
طوبى لعبد صالح	لجلال سيده سجد

وقد ذكر اسم (التكبر) مرة واحدة في القرآن الكريم:

﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (١).

وآثار التكبر المتكبر في الحياة لا يحصيها العد، فما أكثر المتكبرين الذين تكبروا وعتوا في الأرض فساداً ثم كان عاقبتهم الذل والهوان. أذلهم التكبر الحق ليجعلهم عبرة لمن يعتبر في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أشد وأنكى.

عن سلمة بن الأكوع (رضي الله عنه) قال: أكل رجل عند رسول الله (ﷺ) بشماله، فقال له الرسول (ﷺ): كل بيمينك. قال: لا أستطيع. فقال (ﷺ): لا استطعت. ما منعه إلا الكبر، فما رفعها إلى فيه بعد. (أي شلت يده) (٢).

وقال رسول الله (ﷺ): «بينما رجل يمشي في حلة تعجبه نفسه، مرجل رأسه، يخال في مشيته، إذ خسف الله به، فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة» (٣).

وقد روى أن رجلاً من الأغنياء كان يطوف بالكعبة وحوله خدمه

(١) سورة الحشر / ٢٣. (٢) رواه مسلم في باب الأطعمة.

(٣) متفق عليه انظر (البخاري ١٠/٢٢١، ومسلم / ٢٠٨٨).

وأعوانه يطرّدون الناس لينفرد بالطواف . . . وانقضى زمان فرآه أحد هؤلاء الناس على جسر في بغداد يتكفف الناس ، فقال له : ألسنت أنت الذي كنت وكنت ؟ ! قال : نعم . قال : فماذا حدث ؟ قال : تكبرت في موضع يتواضع فيه الناس ، فأذلني الله في مكان يرتفع فيه الناس !

ويروي محمد بن الفضل الجرجرائي فيقول كنت أتولّي ضياع عجيف (قائد المعتصم) وكان متكبراً جباراً ، فرفع إليه أني ختته وأخربت ضياعه فأنفذ إليّ من قيدي وأدخلت عليه ، فلما نظر إليّ شتمني ، وقال : أخربت الضياع ونهبت الارتفاع لأقتلنك شر قتلة قبلت على نفسي . . . فلما رأيته كاتبه قال له : أعز الله القائد ! أنت اليوم مشغول وقتل هذا في أيدينا ولن يفوت فأمر به الآن إلى الحبس حتى تفرغ له . . . ثم كان من أمر عجيف أن قتله المعتصم . فأطلق سراحه ، ثم عملت في ديار ربيعة ، فنزلت إحدى الضياع ، وخرجت من الليل من داري . إلى تل في الصحراء لأبول فخرج إليّ أحد الناس ، وقال لي : أتدري على من تبول ؟ ! قلت على تل من تراب .

هذا قبر رجل يعرف بعجيف قائد من قواد المعتصم ، كان قد سخط عليه ، ودفعه مقيداً إلى هنا ثم قتل وطرح في هذا المكان تحت الحائط . قال محمد بن الفضل : فعجبت من بولي خوفاً منه ، ومن بولي عليه ! (١) .

وهذا جاجارين (رائد الفضاء الروسي) الذي خرج إلى الفضاء ، وصعد فوق القمر ، فرجع يعلن في صلف وتكبر أنه بحث عن الله في الفضاء فلم يجده ، يلقي مصرعه في حادثة طائرة عادية ، وفي رحلة يقوم بها الملايين كل يوم وينجون ! . فما أضعف الإنسان ! قال علي بن

(١) إبراهيم الحازمي ، الفرح بعد الشدة والضيقة ، ج ١ ، ص ٦٣ .

أبي طالب (رضي الله عنه): عجباً لابن آدم تقتله دقة، وتؤلمه بقه، وتنتنه عرقه، فكيف يتكبر؟!

وأول درس نتعلمه في ضوء اسم الله المتكبر، هو التواضع، ولين الجانب، والتواضع هو الانقياد للحق، مع لين الجانب، وقهر النفس.

قال الفضيل بن عياض: التواضع أن تخضع للحق، وتنقاد له، وتقبل الحق، من كل من تسمعه منه، وهو أحسن ما يتزين به الإنسان.

قال منصور بن عمار: أحسن لباس العبد التواضع والانكسار. وقال آخر: الخير كله في بيت ومفتاحه التواضع، والشر كله في بيت ومفتاحه التكبر، ومما يدل على ذلك أن آدم (عليه السلام) تواضع في ذنبه فنال العفو والكرامة، وأن إبليس تكبر فلم ينفعه شيء وقد ضرب لنا رسولنا محمد (ﷺ) المثل الأعلى في التواضع، فقد نهى أصحابه عن إطرائه.

عن عمر (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (ﷺ): لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم فإنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله (١).

عن الحسن (رضي الله عنه) أنه ذكر رسول الله (ﷺ) فقال لا وإما كانت تغلق دونه الأبواب، ولا يقوم دونه الحجاب، ولا يغدئ عليه بالحفان، ولا يراح عليه بها، ولكنه كان بارزاً من أراد أن يلقي نبي الله لقيه، وكان يجلس بالأرض ويوضع طعامه بالأرض، ويلبس الغليظ، ويركب الحمار، ويردف عبده، ويعلف دابته بيده.

(١) رواه البخاري.

عن الأسود قال : قلت لعائشة (رضي الله عنها) : ما كان رسول الله (ﷺ) يصنع إذا دخل بيته ؟ قالت : كان يكون في مهنة أهله فإذا حضرت الصلاة خرج فصللي^(١) .

وقد كان أصحابه (ﷺ) مثلاً في التواضع ولين الجانب ، فاستحقوا الشرف والرفعة في الدنيا والآخرة .

فهذا أبو بكر الصديق (رضي الله عنه) يحلب للحى أغنامهم ، فلما بويع بالخلافة ، قالت جارية من الحى : الآن لا تحلب لنا منائح دارنا ، فسمعها أبو بكر فقال : بللى لعمرى لأحلبنها لكم ، وإنى لأرجو ألا يغيرني ما دخلت فيه^(٢) .

ونادى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) يوماً : الصلاة جامعة . . . ثم صعد المنبر فحمد الله ، وأثنى عليه ، وصلّى على نبيه (ﷺ) ثم قال : أيها الناس لقد رأيتمني أرعى على خالات لي من بني مخزوم فيقبضن لي القبضة من التمر والزبيب ، فأظل يومي ، وأي يوم ! ثم نزل ، فقال له عبد الرحمن بن عوف يا أمير المؤمنين ما زدت على أن قمئت نفسك أي عبتها . فقال : ويحك يا ابن عوف : خلوت فحدثني نفسي فقالت : أنت أمير المؤمنين فمن ذا أفضل مني ، فأردت أن أعرفها نفسها .

وكان سلمان الفارسي (رضي الله عنه) أميراً على المدائن فجاء رجل من أهل الشام ومعه حمل تبين . فقال لسلمان : تعال احمل ، وهو لا يعرفه .

(١) رواه البخاري في الأدب من صحيحه .

(٢) أبو الفرج بن الجوزي ، صفة الصفوة ، ج ١ ، ص ٢٥٨ .

فحمل سلمان فرآه الناس فعرفوه فقالوا: هذا الأمير . فقال الرجل: لم أعرفك فقال له سلمان: لا حتى أبلغ منزلك وفي رواية أخرى: إني قد نويت فيه نية فلا أضعه حتى أبلغ بيتك .

وعن أبي الأحوص قال: افتخرت قريش عند سلمان، فقال: لكنني خلقت من نطفة قدرة ثم أعود جيفة متنة ثم يؤدي بي إلى الميزان فإن ثقلت فأنا كريم، وإن خففت فأنا لئيم (١) .

فالمرء من يعيش بين إخوانه متواضعاً هنياً ليناً، مجانباً الكبر لأن الكبر هو أول ذنب عصي به الله عز وجل .

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ (٢) .

وقد حرم الله عز وجل الجنة على من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر في الحديث قال رسول الله (ﷺ): « لا يدخل الجنة أحد في قلبه مثقال ذرة من كبر » (٣) .

وأوصى لقمان ابنه وهو يعظه بالبعد عن هذا الداء المهلك فجاء على لسانه في القرآن الكريم: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ (٤) .

والاختيال والتعظيم عرضان ظاهران لهذا المرض . لأن الكبر إذا تمكن في القلب كدّره، وظهرت آثاره على الظاهر، ولذلك قيل:

(١) انظر ترجمة سلمان الفارسي في صفة الصفوة، ج١، ص ٥٤٢ .

(٢) سورة البقرة/ ٢٤ .

(٣) رواه مسلم في كتاب الإيمان من صحيحه، وأبو داود في كتاب اللباس، والترمذي في البر والصلة والنسائي في السنة .

(٤) سورة لقمان/ ١٨ .

التواضع من تصفية الباطن تلقى بركاته على الظاهر، والتكبر من كدورة الباطن تظهر ظلمته على الظاهر.

ولأن المتكبر متعاطف في نفسه مختال في مشيته متعال على غيره في الدنيا، فإنه يحشر يوم القيامة على هيئة حقيرة تحت أقدام الخلائق.

قال رسول الله (ﷺ) « يحشر الجبارون والمتكبرون يوم القيامة أمثال الذر يطؤونهم الناس، يغشاهم الذل من كل مكان » (١). ويلقى المتكبر ربه وهو عليه غضبان.

قال رسول الله (ﷺ): « ما من رجل يختال في مشيته ويتعاطف في نفسه إلا لقي الله وهو عليه غضبان » (٢).

وتكبر الإنسان آت من جهله، فما هو إلا هباءة صغيرة تحيا على ظهر ذرة هي الأرض، وما الأرض إلا ذرة في مجموعة ذرات هي المجموعة الشمسية وما المجموعة الشمسية إلا ذرة في المجرة وما المجرة إلا ذرة في رحاب الكون الفسيح. وما عمر الإنسان وإن طال إلا لحظة في عمر الكون الذي ابتداء منذ ملايين السنين.

ولله در القائل:

تمرت فوق الأرض يا نفسى فاهدنى ولا تذهبي في العُجب شتى المذاهب
فما أنت إلا ذرة فوق متها وما هي إلا ذرة في الكواكب
عجائب هذا الكون شتى وفتتى بهيمتى في الكون كبرى العجائب
« اللهم إني أعوذ بك من قلب لا يخشع، ومن دعاء لا يسمع، ومن نفس لا تشبع ومن علم لا ينفع، أعوذ بك من هؤلاء الأربع » (٣).

(١) رواه أحمد والترمذي وغيرهما. (٢) رواه البخاري.

(٣) رواه الترمذي وأبو داود، وانظر صحيح الجامع، ٤١٠/١٠، وصحيح النسائي.

« اللهم جنبني منكرات الأخلاق، والأهواء، والأعمال،
والأدواء » (١).

« اللهم إنا نعوذ بك من القسوة، والكبر، والغفلة، والكفر
والسمعة، والرياء ».

* * *

(١) أخرجه الحاكم وقال صحيح على شرط ووافقه الذهبي ١/ ٥٣٢.

العزیز

٢٥

العزیز من العزة أى القوة والغلبة، وهو من الشئ العزیز أى النادر الذي يصعب وجود مثله، وهو أيضاً بمعنى الممتنع، والخطير الذي يقل وجوده، وتشتد الحاجة إليه ويصعب الوصول إليه (١).

قال الراغب الأصفهاني: العزة حالة مانعة للإنسان من أن يغلب من قولهم أرض عزاز أى صلبة، قال تعالى: ﴿أَيَّتُّنَّوْنَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ (٢)، وتعزز اللحم اشتد وعز كانه حصل في عزاز يصعب الوصول إليه، والعزیز الذي يقهر ولا يقهر قال تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٣)، ﴿سبحان ربك رب العزة عما يصفون﴾ (٤).

فا (سبحانه) عزیز أى غالب لا يُغلب، قاهر لا يقهر، وهو عزیز جلیل وهو عزیز قوى شديد، وهو عزیز أى لا مثل له ولا نظير، وهو عزیز تشتد الحاجة إليه، ويصعب الوصول إليه. قال ابن القيم في نوتيته المشهورة:

وهو العزیز فلن يرام جنبه	أنى يرام جنب ذى سلطان
وهو العزیز القاهر الغلاب لم	يغلبه شئ هذه صفتان
وهو العزیز بقوة هى وصفه	فالعزُ حينئذ ثلاث معان
وهى التى كملت له سبحانه	من كل وجه عادم نقصان

(١) الزجاجي، مرجع سابق، ص ٢٣: ص ٢٣٩.

(٢) الراغب الأصفهاني، مرجع سابق، ص ٣٣٢.

(٣) سورة النساء، آية: ١٣٩. (٤) سورة العنكبوت، آية: ٢٦.

فالعزة لها ثلاثة معانٍ ، وكلها كاملة لله عز وجل :

١ - عزة القوة الدال عليها من أسمائه القويّ المتين ، وهي وصفه العظيم الذي لا تنسب إليه قوة المخلوقات وإن عظمت .

٢ - عزة الامتناع ، فإنه هو الغنى بذاته ، فلا يحتاج إلى أحد ولا يبلغ العباد ضره فيضرونه ، ولا نفعه فينفعونه ، بل هو الضار النافع المعطي المانع .

٣ - عزة القهر والغلبة لكل الكائنات ، فهي كلها مقهورة لله خاضعة لعظمته منقادة لإرادته ، فجميع نواصي الخلق بيده ، لا يتحرك منها متحرك ولا يتصرف منها متصرف إلا بحوله وقوته وإذنه ، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن لا حول ولا قوة إلا به . فمن قوته واقتداره أنه خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ، وأنه خلق الخلق ثم يميّتهم ثم يحييهم ثم إليه يرجعون (١) .

وقال آخر مخاطباً العزيز سبحانه :

أنت العزيز ولا عزيز سواك كل الخلاق يطلبون رضاك

وقال :

عزيز وكل العالمين عبيد	تفرد فوق العرش فهو مجيد
له الملك، تعنو الكائنات لنوره	قريب إليها في الوجود بعيد
له الأمر لا شيء من الخلق كلهم	يريد إذا كان العزيز يريد

وقد ذكر الله العزيز « كاسم من أسماء الله الحسنى ، أكثر من ثمانين مرة في القرآن الكريم ، وغالباً ما يصحب هذا الاسم اسم آخر فما هو الله ولماذا ؟

(١) عبد الرحمن آل سعدى ، الحق الواضح المبين ، ص ٤٤ ، ص ٤٥ .

إن العزيز وصف قوة، واقتدار، وغلبة، وسيطرة، ولذلك قد تقترن هذه القوة بما يناسبها، ويقترب من معناها مثل القوي، والمقتدر، والمهيمن، والجبار، وذئ الانتقام

قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ (١).

﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخَذَ عَزِيزٌ مُّقْتَدِرٌ﴾ (٢).

﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ﴾ (٣).

فهو اقتران قوة بقوة، وكمال بكمال، وقد يبلغ الخوف بالإنسان مبلغاً كبيراً حين يرى اقتران هذه الأسماء الدالة على القوة والغلبة والاقتران والسيطرة فيظن الجاهل أن العزة فيها شيء من الظلم أو الجور أو التعذيب بلا حساب فيأتى تصحيحاً لهذا الظن الخطأ في اقتران العزيز بالحكيم، ويتكرر هذا الاقتران أكثر من خمس وأربعين مرة في القرآن الكريم ليعلم الإنسان أن عزة الله عز وجل عزة حكيمة، لا جور فيها ولا طغيان.

قال تعالى: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ (٤).

﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٥).

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَاراً كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزاً حَكِيماً﴾ (٦).

(٢) سورة القمر / ٤٢.

(١) سورة هود / ٦٦.

(٤) سورة آل عمران / ١٢٦.

(٣) سورة الحشر / ٢٣.

(٦) سورة النساء / ٥٦.

(٥) سورة المائدة / ٣٨.

وهناك ما هو أبعد من ذلك ، وهو أن عزة الله (عز وجل) لا تقتصر بالحكمة فقط وإنما تقتصر بالرحمة أيضاً . فقد يتوهم بعض الناس أن العزة تنافي الرحمة ، فأراد الحق (سبحانه) أن ينفي ذلك بالنسبة له فهو سبحانه عزيز قوئى مقتدر جبار ومع ذلك فهو عزيز رحيم . وقد اقترن اسم العزيز باسم الرحيم في القرآن الكريم ثلاث عشرة مرة ، في سورة الشعراء وحدها تسع مرات ، جاء ثمان منها بالنص التالى :

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾

والتاسعة ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴾

ويقترّب من هذا المعنى ويؤكدّه اقتران اسم العزيز باسمى الغفور والغفار في مثل قوله تعالى ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ (١) .

﴿ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴾ (٢) .

ولا يحمّد العزيز من الناس إلا نادراً ، ولكن عزة الله (سبحانه) عزة محمودّة لأنها عزة حامدة تحمّد لكل ذئ عمل علمه ، وتشيب كل محسن على إحسانه ، ومن هنا جاء اقتران اسم العزيز باسم الحميد في القرآن الكريم .

قال تعالى : ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ (٣) .

﴿ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ (٤) .

وعزة الله عز وجل عزة عالمة محيططة مقدرة . أيضاً . ولذلك جاء

(١) سورة فاطر / ٢٨ .

(٢) سورة ص / ٦٦ .

(٣) سورة إبراهيم / ١ .

(٤) سورة البروج / ٨ .

اقتران اسم العزيز باسم العليم في القرآن الكريم . قال تعالى :

﴿ ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ (١) .

﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ (٢) .

وآثار العزيز (سبحانه) في الكون والحياة لا يحصيها العد، فما من رسول أرسله الله عز وجل إلا وأيده بنصره وعزته ، قال تعالى : ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (٣) .

فنوح (عليه السلام) عصاه قومه وكذبوه ، فجاء النصر من القوى العزيز فنجاه الله عز وجل ، ﴿ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (٤) . بعداً لهم من الحياة فقد ذهبوا وبعداً لهم من رحمة الله فقد لعنوا ، فما عادوا يستحقون ذكراً ولا ذكرى .

وبعد أن طوى الطوفان المعاندين من قوم نوح ، وبقي الناجون المؤمنون مع نوح (عليه السلام) تفرقوا في البلاد ، وعادت الجاهلية مرة أخرى ، فبعث الله عز وجل إلى عاد أخاهم هوداً بالكلمة التي جاء بها كل الأنبياء ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ (٥) .

فلما كذبوه حق عليهم التوعيد والإنذار ، وجاء النصر من القوى العزيز ، قال تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٥٨) وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (٥٩) وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾ (٦) .

(١) سورة الأنعام / ٩٦ . (٢) سورة غافر / ٢ .

(٣) سورة المجادلة / ٢١ . (٤) سورة هود / ٤٤ .

(٥) سورة هود / ٥٠ . (٦) سورة هود / ٥٨ : ٦٠ .

ثم أرسل الله (عز وجل) صالحاً إلى قومه ثمود، بهذه الكلمة الخالدة: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ فلما طلبوا الآية جاءتهم الناقة: ﴿وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أََرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ (١).

ولكن القوم عاندوا وكذبوا واستهتروا فعقروا الناقة فنجى الله صالحاً والذين آمنوا معه وحق العذاب على هؤلاء المعاندين المكذبين فقال: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ (٦٥) فلما جاء أمرنا نجينا صالحاً والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزي يومئذ إن ربك هو القوي العزيز (٦٦) وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين (٦٧) كأن لم يغنوا فيها ألا إن ثمود كفروا ربهم ألا بعداً لثمود (٢).

وإبراهيم (عليه السلام) دعا قومه إلى عبادة الله وحده وترك الأصنام التي يعبدونها، والتي لا تنفع ولا تضر: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ (٥٢) قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (٥٣) قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٣).

وبعد أن أقام الحجة عليهم، أخذتهم العزة بالإثم بعد أن فقدوا الحجة والدليل فلجأوا إلى القوة الغاشمة والعذاب الغليظ: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ (٤).

فجاءت الكلمة العليا من القوي العزيز: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ (٦٩) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ (٥).

وأرسل الله (عز وجل) موسى (عليه السلام) إلى فرعون بآيات

(١) سورة هود/ ٦٤.

(٣) سورة الأنبياء/ ٥٢: ٥٤.

(٢) سورة هود/ ٦٥: ٦٨.

(٥) سورة الأنبياء/ ٦٩: ٧٠.

(٤) سورة الأنبياء/ ٦٨.

وبراهين ساطعة فجاء رد فرعون ومن معه : ﴿ اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ﴾ (١). وكثر لغط فرعون وأتباعه وجدالهم واستهتارهم بعد أن ظهر الحق وعلا ولم تنفعهم نصيحة الرجل المؤمن. فجاء النصر من القوى العزيز : ﴿ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ (٢). فالله عز وجل عزيز غالب لا يغلب ﴿ وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (٣).

وآثار العزيز سبحانه وتعالى في الوجود والحياة لا تنقطع ، فالكوارث والنكبات التي تصيب الجبارين والكافرين ما هي إلا أثر من هذه الآثار .

قال تعالى : ﴿ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ (٤).

وما الثورات البركانية إلا أثر من هذه الآثار فيشعر الإنسان بضعفه وانهيأر قواه أمام بركان هائل يقذف حمماً من اللهب ، فتخرج من باطن الأرض كصواريخ موجهة يصيب بها من يشاء ، فما هي إلا لحظات وتدفن قرى ومدن بكاملها في جوف الأرض وماذا يصنع الإنسان العاجز أمام قدرة القوى العزيز الذي يبعث هذا العذاب فيطمس الحياة والأحياء ؟!

ففي عام (١٩٠٢ م) وفي منتصف شهر إبريل انبعثت من بركان بيليه بمدينة (سان بيير) بعض الأدخنة ، وكان الأهالي يرون فيها زيادة في جمال منظر الجبال التي كانوا يخرجون إليها للتنزه في أيام الأحاد إلا أن السحب الدخانية بدأت تتكثف شيئاً فشيئاً ، وأخذت جميع الحيوانات والطيور تهجر المرتفعات ، وهي تحدث أصواتاً صاخبة ثم

(٢) سورة الأعراف / ١٣٦ .

(١) سورة غافر / ٢٥ .

(٤) سورة الرعد / ٣١ .

(٣) سورة الحج / ٤٠ .

تصاعدت في الجو أصوات زمجرة البحر بعد أن ارتفعت درجة حرارته ، وهكذا بقى الحال قرابة عشرين يوماً وفى يوم (٥ مايو) بدأت أولى النذر فقد ذهب ضحية الأحوال المناسبة (٢٤ موظفاً) في مصنع السكر ، وأعلن الجنرال (موتيه) بناء على تقرير لجنة علمية أنه لا خطر على السكان ، ولم يمض وقت طويل حتى أخذ البركان ينفث دخاناً أسود لمدة ثلاثة أيام ، وفى (٨ مايو) أحس الناس بالخطر الذي يهدد حياتهم فأخذوا يجهزون للفرار ، ولكن أين المفر؟ لقد جاء أمر ربك! فسرعان ما انفجرت قمة الجبل وانسابت فوق المنطقة سحابة غازية شديدة السخونة ، وهى عبارة عن سيل من النيران الشديدة اللهب ، وفى ثلاث ثوان فقط أخذت مياه الخليج في الغليان ، ثم انطلقت الحمم البركانية وانسابت على جوانب الجبل المخروطى في أخاديد عظيمة بنيران متوهجة ، وأخذت الغازات المتصاعدة تقذف كتلاً نارية تصل أحجامها إلى عدة أمتار مكعبة ذات غطاء جلدى كجلد البقر! فكانت رجوماً أبادت (٢٨ ألف نسمة) في لحظات!!

ويقولون إن أعظم انفجار في التاريخ كله ؛ كان ذلك البركان الذي دمر بين يوم وليلة الحضارة المينونية العظيمة في الحوض الأوسط للبحر المتوسط ، ونتج عنه طيران جزيرة (تيرا) في الهواء التي كانت تقوم عليها مدينة (أتاتنس) الجميلة ، وتطاير الرماد البركاني فوق الأراضي المصرية كأنه مطر من دماء!! (١).

فحَقّاً ﴿ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (٢).

ومن آثار العزيز سبحانه وتعالى أنه لا يترك من اعتصم به ، والتجأ

(١) ابن خليفة عليوى ، مرجع سابق ، ص ٢٣٩ .

(٢) سورة الحج / ٧٤ .

إليه ، وإنما يعزه ويذل عدوه فيعز سبحانه أوليائه ، ويذل أعداءه .

قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَعْصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (١) .

عن محمد بن يزيد قال : أمرني عمر بن عبد العزيز (رضي الله عنه) أن أخرج قوماً من السجن فأخرجتهم ، وترك يزيدي بن أبي مسلم كاتب الحجاج فحقد عليّ ونذر دمي فأني بأفريقية إذ قيل : قدم يزيد بن أبي مسلم كاتب الحجاج ، فهربت منه وعلم بمكانني فطلبني ، فظفر بي ، فلما دخلت إليه قال : لطالما سألت الله (عز وجل) أن يكتنني منك ، فقلت له : وأنا طالما طلبت من الله أن يعيذني منك . فقال يزيد ، ما أعاذك الله مني ، والله لأقتلنك ولو سابقني ملك الموت إلى قبض روحك لسبقته . ثم دعا بالسيف والنطع فأتى بهما ، وأمر بي فأقمت في النطع ، وكتفت ، وشد رأسي وقام من ورائي رجل بسيف منتضى يريد أن يضرب عنقي ، وأقيمت الصلاة ، فقال : أمهلوه حتى أصلي ، وخرج إلى الصلاة ، فلما سجد أخذته السيوف فقتل ، ودخل إلى من حل كتافي ورأسي ، وخلي سبيلي ، فانصرفت سالماً (٢) .

ومن التوجيهات التربوية التي نلمسها في ضوء هذا الإسم الجليل الاعتقاد الراسخ بأنه لا عزيز إلا الله عز وجل ، ولا عزة إلا منه سبحانه . قال تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً ﴾ (٣) .

وقد يقول قائل : كيف نجتمع بين قوله ﴿ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً ﴾ وقوله ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٤) .

والجواب : ليس هناك تناف بينهما ، فإن العزة التي للرسول

(١) سورة آل عمران / ١٠١ .

(٢) إبراهيم الحازمي : الفرح بعد الشدة والضيقة ، ج١ ، ص ١٥٠ .

(٣) سورة فاطر / ١٠ . (٤) سورة المنافقون / ٨ .

وللمؤمنين هي في الحقيقة ملك لله عز وجل، ومخلوقة منه، وعزته سبحانه هي مصدر كل عزة، وعلى هذا فالعزة لله جميعاً، وهو يهب العزة لمن يشاء من الصالحين من عباده فيجعلهم الوارثين في الأرض القائمين بالأمر.

والمؤمن لا يطلب العزة إلا من العزيز، لأنها لا تطلب من غيره، وكل عزة تأتي من غير العزيز (سبحانه) فهي بطلان وغرور وذل:

قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ (١). أي اتخذوا هذه الآلهة ليتعززوا بها، فماذا كانت النتيجة؟! ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ (٢).

والمراد بالضد هنا أي ضد العز، وهو الدل. ويحكي القرآن الكريم عن الكفار أيضاً: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ (٣). أي في شدة وقوة، فماذا كان بعد ذلك؟ هددهم وأوعدهم:

﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوا وَلَاتْ حِينَ مَنَاصٍ﴾ (٤).

ثم عاد إلى تهديدهم: ﴿بَلْ لَمَّا يَدُوقُوا عَذَابَ﴾ (٥).

ثم جاء القرار الفاصل الحاسم:

﴿جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ﴾ (٦).

فكل اعتزاز بغير الله (عز وجل) ذل وخسران. والعبد المؤمن لا يذل إلا للعزيز، وذل البشر للبشر باطل وضياع. والعزة والإباء والكرامة من أبرز الخلال التي نادى بها الإسلام وغرسها في أنحاء المجتمع، وتعهد

(١) سورة مريم / ٨١. (٢) سورة مريم / ٨٢.

(٣) سورة ص / ٢. (٤) سورة ص / ٢.

(٥) سورة ص / ٨. (٦) سورة ص / ١١.

نمائها بما شرع من عقائد و سنن من تعاليم وإليها يشير عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) بقوله : « أحب من الرجل إذا سيم خطه خسف أن يقول بملء فيه : لا . فالملؤ من لا يقيم - أبداً - في مكان يشعر فيه بالذل والهوان ، وإنما يتحول عنه ، وينشد الكرامة في غيره .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ (١) .

قال تعالى : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٢) .

فالأمور بيد العزيز سبحانه وتعالى .

وفي وصية رسول الله (ﷺ) لابن عباس (رضي الله عنهما) : « يا غلام إنني أعلمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله واعلم : أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشئ ، لم ينفعوك إلا بشئ قد كتبه الله لك ، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشئ ، لم يضروك إلا بشئ قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وجفت الصحف » (٣) .

« اللهم اهدني فيمن هديت ، وعافني فيمن عافيت ، وتولني فيمن توليت ، وبارك لي فيما أعطيت ، وقني شر ما قضيت ، فإنك تقضي ولا يقضى عليك ، وإنه لا يذل من واليت ، ولا يعز من عاديت تباركت ربنا

(١) سورة النساء / ٩١ .

(٢) سورة آل عمران / ٢٦ .

(٣) رواه الترمذی . ، وقال : حديث حسن صحيح .

وتعاليت لا ملجأ منك إلا إليك استغفرك وأتوب إليك» (١).

« اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنيت، وبك خاصمت، اللهم أعوذ بعزتك، لا إله إلا أنت أن تضلني، أنت الحي الذي لا يموت والجن والإنس يموتون» (٢).

* * *

(١) أخرجه أصحاب السنن وأحمد والحاكم والبيهقي، وصححه الألباني في إرواء الغليل ١٧٢/٢.

(٢) أخرجه البخاري ١٦٧/٧، ومسلم ٢٠٨٦/٤.

الأول الآخر الظاهر الباطن الوارث

٢٦ ٢٧ ٢٨ ٢٩ ٣٠

جاءت هذه الأسماء الأربعة (الأول الآخر الظاهر الباطن) متتابعة في سورة الحديد. قال تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (١).

وقد فسر النبي (ﷺ) هذه الأسماء الأربعة تفسيراً واضحاً فقال مناجياً ربه: «اللهم رب السموات ورب الأرض ورب العرش العظيم، ربنا ورب كل شيء فالق الحب والنوى ومنزل التوراة والإنجيل والفرقان. أعوذ بك من شر كل شيء أنت آخذ بناصيته، اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء. وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء اقض عنا الدين وأغننا من الفقر» (٢).

ففسر كل اسم بمعناه ونفى عنه ما يضاده وينافيه، وتدل هذه الأسماء على الكمال المطلق والإحاطة المطلقة الزمانية في «الأول والآخر»، والإحاطة المطلقة المكانية في «الظاهر والباطن». فالأول يدل على أن كل ما سواه حادث كائن بعد أن لم يكن، ويوجب للعبد أن يلحظ فضل ربه في كل نعمة دينية أو دنيوية، إذ السبب والمسبب منه تعالى. و«الآخر» يدل على أنه هو الغاية، والصمد الذي تصمد إليه المخلوقات بعبوديتها ورغبتها، ورهبتها، وجميع مطالبها، و«الظاهر» يدل على عظمة «الباطن» يدل على إطلاعه على السرائر والضمائر،

(١) سورة الحديد / ٣.

(٢) رواه مسلم، كتاب الذكر والدعاء، حديث رقم (٢٧١٣).

والخبايا، والخفايا، ودقائق الأشياء، كما يدل على كمال قرب ودنوه. ولا يتنافى الظاهر والباطن لأن الله ليس كمثله شيء في كل النعوت (١).

قال ابن القيم:

هو أول هو آخر هو ظاهر	هو باطن هي أربع بوزان
ما قبله شيء كذا ما بعده	شيء تعالى الله ذو السلطان
ما فوقه شيء كذا ما دونه	شيء وذا تفسير ذي البرهان

« فهذه الأسماء الأربعة متقابلة: اسمان لأزليته وأبديته سبحانه واسمان لعلوه وقربه فأوليته سبقه لكل شيء وآخريته بقاؤه بعد كل شيء، وظاهرية فوقيته وعلوه على كل شيء، ومعنى الظهور يقتضي العلو، وظاهر الشيء ما علا منه، وبطونه سبحانه إحاطته بكل شيء، بحيث يكون أقرب إليه من نفسه وهذا قرب الإحاطة العامة » (٢).

ويعلل ابن القيم ورود هذه الأسماء معطوفة بعضها على بعض فيقول: « وأما في أسماء الرب تبارك وتعالى فأكثر ما يجيء في القرآن بغير عطف نحو السميع العليم العزيز الحكيم الغفور الرحيم الملك القدوس السلام إلى آخرها. وجاءت معطوفة في أربعة أسماء وهي الأول والآخر والظاهر والباطن... فأما ترك العطف في الغالب فلتناسب معاني تلك الأسماء، وقرب بعضها من بعض وشعور الذهن بالثاني من شعوره بالأول، ألا ترى أنك إذا شعرت بصفة المغفرة انتقل ذهنك منها إلى الرحمة، وكذلك إذا شعرت بصفة السمع انتقل الذهن

(١) عبد الرحمن آل سعدى، الحق الواضح المبين، ص ٢٥.

(٢) انظر: شرح العقيدة الوسطية، صالح الفوزان، ص ٢٩.

إلى البصر، وكذلك (الخالق البارئ المصور). وأما تلك الأسماء فلما كانت دالة على معانٍ متباينة، وأن الكمال في الاتصاف بها على تباينها فهي ثابتة للموصوف بها... وأيضاً لأن الواو تقتضى تحقيق الوصف المتقدم وتقريره ففي العطف مزيد تقرير وتوكيد يدفع به توهم الإنكار... فإذا قيل هو الأول ربما سرى الوهم إلى أن كونه أولاً يقتضى أن يكون الآخر غيره...

وكذلك الظاهر والباطن إذا قيل: هو ظاهر ربما سرى الوهم إلى أن الباطن مقابله فقطع هذا الوهم بحرف العطف الدال على أن الموصوف بالأولية هو الموصوف بالآخرية فكأنه قيل هو الأول، وهو الآخر، وهو الظاهر، وهو الباطن، لا سواه... والذي يوضح ذلك أنه إذا كان للبلد مثلاً قاض وخطيب وأمير فاجتمعت في رجل حسن أن تقول: زيد هو الخطيب والقاضى والأمير وكان للعطف هنا مزية ليست للنعت المجرد فعطف الصفات هنا أحسن قطعاً لوهم متوهم أن الخطيب غيره. وأن الأمير غيره^(١).

أما الوارث (سبحانه) فهو الباقي بعد فناء المخلوقات، المسترد أملاكهم، ومواريتهم فالأشياء كلها صائرة إليه. فكل الأملاك ترجع إليه بعد فناء الملاك.

فهو سبحانه الذي يرث الأرض ومن عليها، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ (٢).

وهو سبحانه يرث الأشياء كلها بعد فناء أهلها، وينادى حين ذاك: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ (٣).

(١) ابن القيم الجوزية، بدائع الفوائد، ج١، ص ١٩٠، ص ١٩١.

(٢) سورة مريم/ ٤٠. (٣) سورة غافر/ ١٦.

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾ (١).

قال الزجاجي: «الوارث اسم الفاعل من ورث يرث فهو وارث، فالله عز وجل وارث الخلق أجمعين لأنه الباقي بعدهم وهم الفانون، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ (٢).

وقال الراغب الأصفهاني: «ووصف الله تعالى نفسه بأنه الوارث من حيث أن الأشياء كلها صائرة إلى الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وقال ﴿وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾ وكونه تعالى وارثاً لما روى الله أنه ينادي لمن الملك اليوم الله فيقال: لله الواحد القهار» (٣).

وكل المخلوقات لها بداية وتسير نحو نهاية، فالإنسان يُولد ويموت، وكذلك كل شيء من حولنا فلا شيء من حولنا يستعصى على الميلاد والموت، فالذرة تولد وتموت، وقد كان ظن الماديين أن المادة لا تفنى ولا تستحدث أى لا تموت ولا تولد، غير أن تفجير الذرة هدم هذا الظن. والشمس هي الأخرى يجرى عليها ما يجرى على كل شيء من الميلاد والموت، فعلماء الفلك يقولون: إن الشمس مولود حديث الولادة نسبياً في مجرتنا، فعمر المجرة يزيد على عشرة آلاف مليون سنة أما الشمس فعمرها نصف هذا العدد من السنين، فقد مضى عليها خمسة

(١) سورة الحجر / ٢٣.

(٢) سورة مريم / ٤٠، الزجاجي، مرجع سابق، ص ١٧٣.

(٣) سورة غافر / ١٦، الراغب الأصفهاني، مرجع سابق، ص ٥١٩.

آلاف مليون سنة . وبعد ألفي مليون سنة ستبدأ في الإنكماش ،
وسيؤول حالها في اضمحلالها النهائي إلى أن تصبح قرماً أبيض ، ثم
تفقد حرارتها وتبرد ، وبعد خمسة آلاف مليون سنة ستكون قد
استحالت إلى لا شيء إلى فراغ أسود .

فسبحان الأول قبل كل شيء ، الآخر بعد كل شيء ! فالكون المادى
من حولنا ليس أزلياً وإنما هو مستحدث له بداية وله نهاية . فهناك في
عناصر تكوينه عناصر غير ثابتة ، إنها العناصر المشعة . فاليورانيوم مثلاً
يظل يرسل دقائق مشعة حتى يتحول في نهاية الأمر إلى رصاص ، فلو
كان الكون أزلياً لنفدت العناصر المشعة وانتهت من زمن بعيد فلا يمكن
أن تبقى حتى اليوم ترسل أشعتها ، فوجود هذه العناصر دليل على
حدثة هذا الكون (١) .

وهناك قوانين (الثرموديناميك) التي تتعلق بانتشار الحرارة وتنص
على أن الحرارة تنقل باستمرار من الجسم الحار إلى الجسم البارد حتى
تصل حرارة الجسمين إلى الإستواء ولو كان الكون أزلي الوجود ،
لسادت منذ زمن بعيد درجة حرارة واحدة في جميع أجزائه ولكن
ما زالت الشمس تصدر الحرارة والطاقة كما تفعل ذلك عشرات الألوف
من الشموس الأخرى ، وهذا يثبت بالدليل القاطع أن الكون (بما فيه من
مادة) له بداية (٢) فمن الذي بدأ هذه البداية ؟ !

(١) ، (٢) عدنان السبيعي ، سريهم آياتنا ، ص ٢٨ ، ص ٢٩ .

سبحان الأول الذي بدأها وبرأها .

يقول السيد جيمس جينز : « إنَّ الكونَ ليس بناءً ثابتاً بل إنه يحيا حياته ، ويجتاز الطريق من المهد إلى اللحد شأننا جميعاً ، ولا تقدم سوى التقدم نحو القبر » (١) .

وهو سبحانه وتعالى الظاهر بعلوه وغلبته وقدرته ، وأين قوة المخلوقات - وإن عظمت - بجوار قوته وقدرته (سبحانه وتعالى)؟ ، فكل الكائنات مقهورة له خاضعة لعظمته ، منقادة لإرادته ، فجميع نواصي الخلق بيده ، لا يتحرك منها متحرك ، ولا يصرف منها منصرف إلا بحوله وقوته وإذنه ، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، ولا حول ولا قوة إلا به . فسبحان الظاهر بقدرته وعظمته ! خضعت له الرقاب ، وذلت له الجبابرة وعنت له الوجوه وقهر كل شيء ودانت له الخلائق ، وتواضعت لعظمة جلاله وكبريائه وعلوه وقدرته كل الأشياء واستكانت وتضاءلت بين يديه وتحت قهره وحكمه .

وهو سبحانه «الباطن» يعلم السر وأخفى ، والخبيا والخفايا ، ودقائق الأشياء :

قال تعالى : ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ (٢) .

فسبحان الباطن العليم بكل شيء المحيط بكل شيء ، الحافظ لكل شيء ، صغيره وكبيره حقيره وجليله ، بعيده وقريبه ، مجهوله ومعلومه ! وهو سبحانه الوارث لكل شيء الباقي بعد فناء كل شيء ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا

(١) انظر : بن خليفة عليوي ، مرجع سابق ، ص ٩٥ .

(٢) سورة الأنعام / ٥٩ .

فَإِنَّ (٢٦) وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿١﴾ .

ففى هذا اليوم تطوى صفحة الكون المنظور ، وتنطوى صفحة الخلق
الفانى ، وتتوارى أشباح الخلائق جميعاً ، ويفرغ المجال من كل شئ ،
ويتجلى وجه الوارث الكريم الباقي ، منفرداً بالبقاء ، منفرداً بالجلال .

فالفناء يشمل كل شئ ، ويطوى كل حركة ، ويغمر آفاق السموات
والأرض ولا يبقى إلا ذو الجلال والإكرام . فكل شئ زائل ، وكل شئ
ذاهب . المال والجاه والسلطان والقوة ، والحياة والمتاع ، وهذه الأرض
ومن عليها ، وتلك السموات وما فيها ومن فيها . . . الكل هالك
وذاهب ولا يبقى إلا الله منفرداً بالبقاء . ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ
الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٢) .

فكل كائن حتى له عمر قد يكون دقائق أو ساعات أو أياماً أو شهوراً
أو سنوات أو عشرات أو مئات السنين ، ولكن لا بد أن يموت . . . فعمر
الإنسان يعتبر في عمر الكون ثوانى أو دقائق معدودات ثم يسرى عليه
ما يسرى على كل مخلوق حتى . فتتوقف حركته وتتوقف خلاياه ، فلا
ينبض القلب ، ولا تزفر الرئة ، ولا تتحرك الجفون ، ولا تنظر
العيون . . . بل تتوقف وتتحجر ! فسبحان الأول بلا ابتداء والآخر بلا
إنتهاء المنفرد بالبقاء .

ويبين ابن القيم (رحمه الله) كيفية التعبد بهذه الأسماء (الأول الآخر
الظاهر الباطن) ، فيقول : والتعبد بهذه الأسماء رتبتان :

الرتبة الأولى: أن تشهد الأوليه منه تعالى في كل شئ ، والآخره بعد
كل شئ ، والعلو والفوقية فوق كل شئ ، والقرب والدنو دون كل شئ .

(١) سورة الرحمن / ٢٦ - ٢٧ .

(٢) سورة القصص / ٨٨ .

الرتبة الثانية: من التعبد أن تعامل كل اسم بمقتضاه فيعامل سبقه تعالى بأوليته لكل شيء، وسبقه بفضلته وإحسانه الأسباب كلها بما يقتضيه ذلك من إفراده وعدم الالتفات إلى غيره والوثوق بسواه والتوكل على غيره . . .

فينبغي على العبد أن يتوكل عليه وحده وأن يعامله وحده، وأن يؤثر رضاه وحده ويجعل حبه ومرضاته كعبة قلبه . . ثم يتعبد باسمه الآخر بأن يجعله وحده الغاية التي لا غاية سواه، ولا مطلوب وراءه، فهو الذي انتهت إليه الأواخر وكان بعد كل آخر . فينبغي على العبد أن يجعل نهايته إليه، فإن إلى ربك المنتهى . إليه انتهت الأسباب والغايات فليس وراءه مرمى ينتهى إليه .

وأما التعبد باسمه الظاهر فكما فسرہ النبي (ﷺ) « وأنت الظاهر فليس فوقك شيء » فإذا تحقق العبد علوه المطلق على كل شيء بذاته وأنه ليس فوقه شيء ألبته، وأنه قاهر فوق عباده يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه ﴿إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه﴾ صار لقلبه أمما يقصده، ورباً يعبده، وإلها يتوجه إليه، بخلاف من لا يدرى أين ربه فإنه ضائع مشتت القلب ليس لقلبه قبة يتوجه نحوها، ولا معبود يتوجه إليه بقصده . . . وأما التعبد باسمه الباطن، فإذا شهدت إحاطته بالعوالم وقرب البعيد منه وظهور البواطن له وبدو السرائر وأنه لا شيء بينه وبينها . فعامله بمقتضى هذا الشهود وظهر سريرتك فإنها عنده علانية، وأصلح له غيبتك فإنها عنده شهادة وزك له باطنك فإنه عنده ظاهر (١) .

وإذا استقرت معاني هذه الأسماء في القلب توجه بكليته إلى الله

(١) انظر: عبد الحميد كشك، أسماء الله الحسنى، ص ١٧٩ .

وترك ما سواه وأخذ في أهبة السفر، وتعبئة الزاد ليوم المعاد. فيفر العبد إلى الله عز وجل لا منه، لأن الفرار نوعان: فرار السعداء، وفرار الأشقياء. فالأول إلى الله والثاني من الله. والفرار إلى الله عز وجل هو العمل بطاعته، والخوف من عقابه، والطمع في ثوابه، فإذا صدق العبد في فراره إلى الله عز وجل تجده لا يفرح إلا بالله ولا يسكن إلا إليه، ولا يستغنى إلا بالله، ولا يفتقر إلا إلى الله، ولا يخاف إلا من سقوطه من عين الله، فكله بالله، وكله لله، وكله مع الله، وسيره دائماً إلى الله.

وما دامت الدنيا منقطعة، والكل عنها راحلون، وعن وراثتها زائلون، فعلى العبد أن يقصر فيها أمله، وأن يجتهد فيها لآخرته، فلا يفرح فيها بوجود، ولا يأسف منها على مفقود. فنعيم الدنيا بحذافيره في جنب نعيم الآخرة أقل من ذرة في جنب جبال الدنيا.

قال عمر بن الخطاب (رضي الله عنه): «لو أن الدنيا من أولها إلى آخرها أوتيها رجل ثم جاءه الموت، لكان بمنزلة من رأى في منامه ما يسره، ثم استيقظ فإذا ليس في يده شيء، فصحيح العقل لا يقطعه هذا الجزء الحقير عن النعيم الذي لا يزول.

قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ (١).

ويسير من رضوانه. ولا يقال له يسير. أكبر من الجنات وما فيها.

فالدنيا منقطعة ولا وارث لها إلا خالقها، فلا أمل للعبد إلا فيما عند الله عز وجل وما عند الله خير وأبقى.

قال تعالى: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ

بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾
الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ
أَمَلًا ﴿١﴾.

فمتاع الدنيا مهما كثر لا يساوي شيئاً بجوار نعيم الجنة ، فهو قطرة
في بحر .

روى المستورد بن شداد (رضي الله عنه) قال : قال رسول الله
(ﷺ) : « ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه في اليم ،
فلينظر بم يرجع » (٢) .

فالعيش هو عيش الآخرة ، والحياة الحقيقية هي حياة الآخرة ، روى
أنس (رضي الله عنه) ، أن النبي (ﷺ) ، قال : « اللهم لا عيش إلا عيش
الآخرة » (٣) .

فمن عرف الأول الآخر الظاهر الباطن الوارث ، وأيقن هذه
الأسماء أعرض عما سوى الحق بالكلية ، ولزم الإقبال عليه ،
والاشتغال بمحابه ، وجمع همومه وعزائمه وإرادته وأوقاته للوصول
إليه . يحدوه في ذلك الرجاء الذي يسوق القلوب إلى بلاد المحبوب
وهو الله والدار الآخرة .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ
يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٤) .

اللهم رب السموات ورب الأرض ورب العرش العظيم ، ربنا رب

(١) سورة الكهف / ٤٥ - ٤٦ .

(٢) رواه مسلم (٢٨٥٨) .

(٣) متفق عليه (بخارى ٣٠٢ / ٧) ومسلم (١٨٠٥) .

(٤) سورة البقرة / ٢١٨ .

كل شيء فالحب والنوى، ومنزل التوراة والإنجيل والفرقان، أعوذ
بك من شر كل شيء أنت آخذ بناصيته، اللهم أنت الأول فليس قبلك
شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء،
وأنت الباطن فليس دونك شيء، اقض عنا الدين وأغننا من الفقر (١).
﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ (٢).

* * *

(١) سبق تخريجه.

(٢) سورة الأنبياء / ٨٩.

الملك - المليك

٣١ ٣٢

الملك هو المستغنى عن غيره، وقد احتاج إليه غيره، وهو المالك لكل الخلائق والأكوان، والمتصرف فيها، فهو وحده ذو الملك والسلطان.

فالله عز وجل هو الملك الذي استغنى بذاته، وصفاته، وأفعاله عن كل مخلوق ويحتاج إليه كل مخلوق.

والله (سبحانه وتعالى) هو الملك وهو ملك الملوك، المالك لجميع الأشياء المتصرف فيها بلا ممانعة ولا مدافعة.

والمالك: اسم الفاعل من مَلَّكَ يَمْلُكُ فهو مالك، فالله (عز وجل) مالك الأشياء كلها ومصرفها على إرادته لا يمتنع عليه منها شيء، لأن المالك للشيء في كلام العرب هو المتصرف فيه، القادر عليه.

والله (عز وجل) قادر على الأشياء التي خلقها ويخلقها ولا يمتنع عليه منها شيء. وقد قرأ القراء (مالك يوم الدين) و (ملك يوم الدين) وقد رويت القراءتان عن رسول الله (ﷺ) (١). والمليك أبلغ من المالك، لأن المالك والمليك كالناصر والنصير، والعالم والعليم (٢).

قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ (٣) وأصل الملك في الكلام: الربط والشد، يقال: ملكت العجين، أملكه ملكاً، إذا شددت عجنه وإملاك المرأة من هذا إنما هو

(١) ابن قيم الجوزية، بذائع الفوائد، ج٢، ص ٢٤٩.

(٢) أبو القاسم الزجاجي، مرجع سابق، ص ٤٣.

(٣) سورة القمر / ٥٤، ٥٥.

ربطها بالزواج . وهذا الربط والشد يرجع حاصله إلى القدرة التامة الكاملة . فالملكية المطلقة لا تثبت إلا لله وحده ، وله سبحانه كمال القدرة والتصرف في ملكه .

قال تعالى : ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ (١) .

﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (٢) .

﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٣) .

فذكرت الآيات ملكه العظيم ، ثم ذكرت قدرته التامة في ملكه .

وقد سمي الله (عز وجل) بعض خلقه باسم (الملك) فقال تعالى عن ملك مصر في عهد يوسف (عليه السلام) ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ﴾ (٤) . وفي سورة الكهف ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلَكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ (٥) . وجاء على لسان بلقيس ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَءَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ (٦) .

فما الفرق بين ملكية الحق وملكية الخلق؟

الثابت للبشر من معاني الملك غير الثابت للحق (سبحانه وتعالى) ، فالبشر عندما يملك ويسمى ملكاً ، إنما هو مستخلف ومبتلى ، وملكه طارئ يزول ولا يدوم فهو لم يكن ملكاً ثم صار ملكاً ، وسيترك هذا الملك إن أجلاً أو عاجلاً . فملك البشر ملك استخلاف وابتلاء وليس ملكاً حقيقياً دائماً .

أما الحق (سبحانه وتعالى) فهو صاحب الملك الدائم .

(١) سورة الشورى/ ٤٩ . (٢) سورة الزمر/ ٤٤ . (٣) سورة الحديد/ ٢ .

(٤) سورة يوسف/ ٥٤ . (٥) سورة الكهف/ ٧٩ .

(٦) سورة النمل/ ٣٤ .

ملوك الدنيا إذا أعطوا انتقص ملكهم بالعطاء، أما الحق (سبحانه وتعالى) فخزائنه لا تفيض ولا تنفذ. وهو سبحانه الذي يعطي الملك لهؤلاء الملوك. فكل تمليك إنما هو هبة منه (سبحانه).

قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١).

فكل تمليك إنما هو منه سبحانه، وسيؤول إليه في النهاية:

قال تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ (٢).

والبشر وما ملكوا ملك الله عز وجل، فهو الملك والمالك ملكاً حقيقياً دائماً فالله سبحانه وتعالى يملك كل ما سواه من شيء ذاتاً لأنه الخالق (سبحانه) وتصرفاً فهو المعز المذل يؤتي الملك من يشاء، وعبودية فالجميع عباده وفي قبضته سبحانه وتعالى. وملكية الله (عز وجل) المطلقة هي نعمة كبرى ينبغي أن نحمده عليها.

قال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ وَكَبْرُهُ تَكْبِيرًا﴾ (٣).

وكل المخلوقات مفتقرة محتاجة إلى غيرها، فالجماد فقير محتاج والنبات كذلك والحيوان كذلك، والإنسان كذلك، فالإنسان يجوع فيطلب الطعام، ويمرض فيسعى في طلب الدواء... وهكذا سائر الكائنات. والفقير لا يصح أن يكون ملكاً، لأن الملك الحق هو الذي

(١) سورة آل عمران/ ٢٦.

(٢) سورة الإسراء/ ١١١.

(٣) سورة غافر/ ١٦.

يستغني عن كل أحد أي لا يحتاج لأحد، وهذا لا يكون إلا الله (عز وجل) فهو الملك الحق.

وقد خلق الله (عز وجل) لكل شيء آفة من جنسه ليثبت بذلك عجزه، ولتفكر العقول في أن كل ما سوى الله عاجز ضعيف.

قال الشاعر:

لكل شيء آفة من جنسه حتى الحديد سطا عليه المبرد

فالنبات تفتك به الأمراض، وتأكله الحيوانات، والحيوانات تفتك بها الميكروبات والفيروسات، والإنسان يقعده المرض وتجري عليه السنون فيصيبه الهرم، وتنتهي دنياه بالموت. وما من مستخلف في ملك الله من حولنا بغنى وطغى إلا كانت عاقبته إلى ذل وهوان. فالنمرود قال أنا أحيي وأميت فكانت عاقبته إلى ذل وخسة وضياع. وفرعون قال أنا ربكم الأعلى فأخذه الله نكال الآخرة والأولى، وجاءت نهايته: ﴿وَفَرَعُونَ ذِي الْأَوْتَادِ . الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ . فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ . فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ . إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ (١).

فكل شيء من حولنا يشعرونا بأنه لا ملك إلا الله - عز وجل - فهو الملك الحق وما عداه من الملوك لم يكن ملكاً ثم أعطاه الله ملكاً، وسيسلبه هذا الملك إن أجلاً أم عاجلاً. وعلى المؤمن ألا ينسب شيئاً في هذا الكون إلا لله (عز وجل)، فالملك ملكه والكل ضيوف في مملكته. ولذلك كان رسول الله (ﷺ) يداوم على هذا الذكر صباحاً ومساءً:

«أَمْسِينَا وَأَمْسَى الْمَلِكُ لِلَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ، وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، رَبِّ أَسْأَلُكَ خَيْرَ مَا فِي

هذا الليلة، وخير ما بعدها، وأعوذ بك من شر ما في هذه الليلة وشر ما بعدها، رب أعوذ بك من الكسل وسوء الكبر، رب أعوذ بك من عذاب في النار، وعذاب في القبر، وإذا أصبح قال أصبحنا وأصبح الملك لله...» (١).

والمؤمن لا يتضرع إلا لله، ولا يتوكل إلا عليه، فكل من في الأرض وما يملكونه ملك لله عز وجل، فالتضرع والتوكل على غير الله جهل، والرجوع إلى الله عز وجل والاستعانة به عين الفكر والفهم.

قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٢).

وجاء في الأثر أن ملكاً قال لأحد الصالحين: سلني حاجتك؟ فأجابه الصالح: ما سألت الدنيا ممن يملكها (وهو الله) فكيف أسألها ممن لا يملكها؟!!

ووقف أحد الملوك على أحد الصالحين، ثم قال له الملك ألك حاجة؟

فقال الصالح: نعم.

قال الملك: ماهي؟

قال الصالح: تطعمني إذا جعت.

قال الملك: أجل.

قال الصالح: تسقيني إذا ظمئت.

(١) رواه مسلم برقم (٢٧٢٣) في الذكر والدعاء، وأبو داود والترمذي والنسائي.

(٢) سورة آل عمران/ ٢٦.

قال الملك : أجل .

قال الصالح : تشفيني إذا مرضت .

قال الملك : ألتمس لك الأطباء .

قال الصالح : تحييني إذا مت .

قال الملك : ليس ذلك إلي .

قال الصالح : لِمَ سألتني عن حاجة لا تقدر على قضائها؟!

والعبد المؤمن يطمئن قلبه بربه ، لأنه (سبحانه) بيده ملكوت كل شيء ويملك خزائن كل شيء فلا يسأل عند الحاجة إلا هو .

وفي الحديث عن ابن عباس (رضي الله عنهما) قال : كنت خلف النبي (ﷺ) يوماً فقال : يا غلام إني أعلمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، وإذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، وأعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وجفت الصحف (١) .

وقال الشاعر :

لا تخضعن لمخلوق على طمع فإن ذلك وهن منك في الدين

واسترزق الله مما في خزائنه فإن رزقك بين الكاف والنون

وقد سئل أحد الصالحين عن سبب توبته ، فقال : كنا في سنة

(١) رواه الترمذي ، وقال : حديث حسن صحيح ورواه أحمد ٢٩٣/١ ، وأبو يعلى (٢٥٥٦) ، وأصح طريق تخريج الترمذي من طريق حنش الصهفاني .

جدباء، والناس في قحط شديد وبلاء جهيد، فرأيت غلاماً يرح ويضحك فقلت له: ألا تخشى الفقر والجوع؟ فقال: إن سيدي (مخدومي) عنده قرية وفيها بستان مليء من كل الثمار فعلاًم أخاف وأحزن؟ فقلت: إن هذا العبد لا يستوحش لأن مخدومه يملك بستاناً فكيف استوحش وأحزن وربى يملك خزائن السموات والأرض؟! فانتبهت وتبت إلى الله (عز وجل).

فاليأس والقنوط إنما ينشأ من انقطاع الصلة بملك الملوك، والأحزان والهموم التي تحول حياة كثير من الناس إلى جحيم إنما هي من البعد عن ملك الملوك، والطمع فيما عند المخلوق. ولذلك قيل: لو رجعت إليه (أى إلى الله) في أول الشدائد لأمدك بالفوائد، ولو رجعت إلى أشكالك (المخلوقات) لزادوا في أشغالك.

وإذا كان الله عز وجل هو الملك وهو ملك الملوك. فلا ينبغي الاحتكام إلا إليه فهو سبحانه وتعالى الملك الحقيقي، وهو الحاكم الحق.

فالحكم لله وحده، وهو شعار المؤمنين، ولا يجوز أن يحتكم المؤمنون إلى شرع غير شرع الله (عز وجل). فالاحتكام إلى القوانين البشرية، وترك الشريعة الربانية مناقض للإيمان قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ (١).

وحكم الله (عز وجل) فيه الخير والصلاح والسعادة في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (٢). وإذا

(١) سورة النساء/ ٦٥.

(٢) سورة المائدة/ ٥٠.

كان الله (عزّ وجلّ) هو ملك الملوك، فلا ينبغي لعبد مهما اتسع ملكه أن يسمى ملك الملوك.

وقد ورد في الحديث عن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (ﷺ): «أخنع اسم عند الله رجل تسمى بملك الأملاك» (١).

وفي رواية مسلم: «أغيظ رجل على الله يوم القيامة وأخبثه . . .» قال ابن حجر واستدل بهذا الحديث على تحريم التسمي بهذا الاسم لورود الوعيد الشديد، ويلتحق به ما في معناه مثل: أحكم الحاكمين، وسلطان السلاطين، وأمير الأمراء . . . (٢).

وإذا كان الملك لله عزّ وجلّ وحده فعلى العبد المؤمن أن يستبشر بذلك، وخاصة يوم القيامة حيث يقتص الملك من الظالم للمظلوم ويذل كل الجبابرة والمتغطرسين قال تعالى:

﴿يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ (٣).

﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ (٤).

﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ﴾ (٥).

وعن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (ﷺ) «يقبض الله تبارك وتعالى الأرض يوم القيامة، ويطوي السماء بيمينه، ثم يقول: أنا الملك أين ملوك الأرض؟» (٦).

وحاشا لله عزّ وجلّ أن يظلم أحداً، فهو سبحانه حكيم عدل، قال

(١) رواه البخاري ومسلم وغيرهما ومعنى أخنع إسم: أوضع إسم وأذله.

(٢) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري ج١، ص ٥٩٠.

(٣) سورة غافر/ ١٦.

(٤) سورة الحج/ ٥٦. (٥) سورة الفرقان/ ٢٦.

(٦) متفق عليه انظر (البخاري، كتاب الدعوات، باب يقبض الله الأرض).

تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ (١).

﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ (٢).

«اللهم أنت الملك الذي لا شريك لك والفرد الذي لا ند لك، كل شيء هالك إلا وجهك، أحق من ذكر، وأحق من عبد، وأنصر من أبتغي، وأرأف من ملك، أقرب شهيد، وأدنى حفيظ، حلت دون النفوس، وأخذت بالنواصي، وكتبت الآثار، ونسخت الآجال، القلوب لك مفضية، والسر عندك علانية، الحلال ما أحللت، والحرام ما حرمت، والدين ما شرعت، والخلق خلقك، والعبيد عبيدك، نسألك يا ذا الملك والملكوت، والعزة والجبروت، أن تقبل أعمالنا، وتغفر ذنوبنا، وتجيرنا من النار».

«اللهم ربنا لك الحمد أنت قيم السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت ملك السموات والأرض ومن فيهن ولك الحمد أنت الحق، وقولك الحق، ووعدك الحق، ولقاؤك حق، والجنة حق، والنار حق، والنبيون حق، ومحمد حق، والساعة حق. اللهم لك أسلمت وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاکمت، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أنت أعلم به مني، أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله إلا أنت» (٣).

«لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير» (٤).

(١) سورة فصلت/ ٤٦. (٢) سورة الأنبياء/ ٤٧.

(٣) أخرجه البخاري في التهجد، ومسلم في صلاة المسافرين باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه برقم (٢٧١٧).

(٤) أخرجه أحمد ٢/ ٢١٠، وفي سننه محمد بن أبي حميد، وهو ضعيف، لكن له شاهد مرسل في الموطأ بنحوه فهو حسن، وهو عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: كان أكثر دعاء النبي (ﷺ) يوم عرفة: لا إله إلا الله... إلخ الحديث.

الجبار القاهر القهار

٢٣ ٢٤ ٢٥

قال الراغب الأصفهاني: «أصل الجبر: إصلاح الشيء بضرب من القهر يقال: جبرته فأنجبر... وقد يقال: الجبر تارة في الإصلاح المجرد نحو قول علي ابن أبي طالب (رضي الله عنه): يا جابر كل كسير، ويامسهل كل عسير، وتارة في القهر المجرد... ولتصور القهر بالعلو على الأقران قيل: نخلة جبارة وناق جبارة... فأما في وصفه تعالى نحو: ﴿الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ﴾ (١) فقد قيل: سمي بذلك من قولهم جبرت الفقير لأنه هو الذي يجبر الناس بفائض نعمه، وقيل: لأنه يجبر الناس أي يقهرهم على ما يريد حسبما تقتضيه الحكمة الإلهية (٢).

فالله سبحانه وتعالى جبار، أي: مصلح للأمر، ويقال: جبرت الكسر إذا أصلحته، وجبرت الفقير إذا أنعشته، وكفيته أمره، ومن الدعاء: يا جابر كل كسير.

فالجبار في الحقيقة هو الله (سبحانه وتعالى)، لأنه هو المصلح لأمر الخلق، والمظهر لهم الدين الحق، والميسر لكل عسير، والجابر لكل كسير.

وهناك معنى ثان للجبار، وهو من القهر، أي أنه القهار الذي يجبر الخلق على ما يريد، ويحملهم على ما أراد من أمور تقتضيهما الحكمة الإلهية، فقد أجبر الخلق على أشياء لا انفكاك لهم منها حسبما تقتضيه حكمته، وذلك كإكراههم على الموت والبعث والنشور، وتسخير كل منهم لصناعة يتعاطاها، وأعمال يتحراها، والناس في ذلك بين راضٍ

(١) الراغب الأصفهاني، مرجع سابق، ص ٨٥، ص ٨٦. (٢) سورة الحشر، آية: ٢٣.

بصنعتة لا يريد عنها حولا ، وكاره لها يكابدها مع كراهيته لها كأنه لا يجد عنها بديلاً .

قال تعالى : ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ... ﴾ (١) وهو سبحانه وتعالى لا يقهر إلا على ما تقتضي الحكمة .

وهناك معنى ثالث للجبار وهو العالي الذي لا ينال ومنه يقال نخلة جبارة إذا طالت وعلت وقصرت الأيدي عن أن تنال أعلاها . وقد جمع ابن القيم هذه المعاني الثلاثة في قوله :

وكذلك الجبار من أوصافه	والجبر في أوصافه نوعان
جبر الضعيف وكل قلب قد غدا	ذا كسرة فالخير منه دان
والثاني جبر القهر بالعز الذي	لا ينبغي لسواه من إنسان
وله مسمى ثالث وهو العـ	و فليس يدنو منه من إنسان
من قولهم جبارة للنخلة العليـ	ما التي فاقت لكل بنان

فالجبار له ثلاثة معان ، فهو الذي يجبر الضعيف والكسير ، ويغني الفقير ، ويسر على كل عسير ، ويجبر المصاب بتوقيه للثبات والصبر ، ويعيضة على مصابه أعظم الأجر ، ويجبر جبراً خالصاً قلوب الخاضعين لعظمته وجلاله ، وقلوب المحبين بما يفيض عليها من أنواع الكرامات ، وأصناف المعارف والأحوال الإيمانية .

والمعنى الثاني : إنه القهار لكل شيء الذي دان له كل شيء وخضع له كل شيء .

والمعنى الثالث : أنه العلي على كل شيء . فصار الجبار متضمناً لمعنى الرؤوف القهار العلي ، وقد يراد به معنى رابع وهو المتكبر على كل سوء

ونقص، وعن مماثلة أحد، وعن أن يكون له كفو أو ضد أو سمي أو شريك في خصائصه وحقوقه (١).

فكل المعاني السابقة متضمنة في اسمه الجبار (سبحانه) فهو العالي الذي لا ينال، وتقتصر العقول عن الإحاطة بجلاله، وهو سبحانه الذي يغني الفقير ويصلح الكسير، ويسر العسير، وهو سبحانه الذي تنفذ مشيئته في خلقه فلا يجري في ملكه إلا ما يريد، وإرادته سبحانه إرادة حكيم في لطف خبير، فالله سبحانه هو الجبار المطلق الذي يجبر كل أحد ولا يجبره أحد، قاصم الجبابة، ومذل الفراعنة، تنفذ مشيئته في كل أحد، وهو القهار الفرد الصمد.

قال الشاعر:

يا من له عنت الوجوه تنوعاً	والليل داج والظلام سكون
رحماك يا جبار حكمك نافذ	عنت الوجوه إليك والأبصار
وإليك منك يلوذ خلقك ما لهم	فوق الحياة إذا غضبت قرار
رحمماك أنت على الوجود	وإذا انتقمتم فقاهر جبار

وقد ورد اسم الجبار مرة واحدة في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ . هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ﴾ (٢).

ووردت كلمة «الجبروت» في الحديث النبوي:

عن حذيفة بن اليمان (رضي الله عنه) قال: أتيت النبي (ﷺ) ذات ليلة متوضأ وقام يصلي فأتيته فقممت عن يساره فأوقفني عن يمينه، فقال سبحانه ذي الملك والملكوت، والعزة والجبروت، والكبرياء

(١) عبد الرحمن آل سعدي، الحق الواضح المبين، ص ٧٧.

(٢) سورة الحشر/ ٢٣.

والعظمة» (١).

والجبروت والقهر في حق المخلوق مذموم، ولكنه في حق الحق محمود، لأن جبروته وقهره (سبحانه) حق أما الخلق فموصفون بصفات النقص، مقهورون، ضعفاء تؤذيهم البعوضة، وتعكر صفوهم الذبابة، أسرى الجوع والعطش، صرعى الشبع، فكيف يوصف بالجبروت والقهر من هذا نعت!

والحق سبحانه وتعالى لا يجري عليه حكم حاكم فيجب عليه طاعته ولا يتوجه عليه أمر أمر فيلزمه امتثاله، أمر غير مأمور، قاهر غير مقهور، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون، فجبروته وتكبره سبحانه حق.

وجبروته سبحانه وتعالى رحمة ونعمة، لأنه بجبروته قهر الجبابرة، وأذل الأكاسرة والفراعنة، وأنصف المظلومين من الظلمة، ونصر جنده على المعاندين والكافرين الفجرة.

القاهر-القهار: القهر الغلبة والتذليل معاً ويستعمل في كل واحد منهما، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ وقال: ﴿وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ وقال: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ أي لا تذلل، وأقهره سلط عليه من يقهره (٢).

والقاهر والقهار من أسماء الله الحسنى، وكلاهما ورد في القرآن الكريم والقاهر مبالغة في القهر. فالله عز وجل هو القاهر القهار الذي قهر خلقه بسلطانه وقدرته، وصرفهم على ما أراد طوعاً وكرهاً.

(١) رواه أبو داود (٢٣٠/١) والنسائي وأحمد بإسناد حسن.

(٢) الراغب الأصفهاني، مرجع سابق، ص ٤١٤.

قال ابن القيم :

وكذلك القهار من أوصافه فالخلق مقهورون بالسلطان
لو لم يكن حياً عزيزاً قاهراً ما كان من قهر ومن سلطان

فالقهار هو الذي قهر جميع الكائنات، وذلت له جميع المخلوقات، ودانت لقدرته ومشيئته مواد وعناصر العالم العلوي والسفلي، فلا يحدث حادث ولا يسكن ساكن إلا بإذنه، وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وجميع الخلق فقراء إلى الله عاجزون، لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ولا خيرا ولا شرا، ثم ذكر المصنف أن قهره مستلزم لحياته وعزته وقدرته فلا يتم قهره للخلقة إلا بتمام حياته وقوة عزته واقتداره (١).

وقد ورد اسم القهار ست مرات في القرآن الكريم :

﴿ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ (٢).

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ (٣).

ويلاحظ أن اسم القهار يقترن دائماً باسم الواحد في القرآن الكريم. ويبدو أن الحكمة في ذلك أن شرط القهار ألا يقهره أحد، وأن يكون هو قهار لكل ما عداه وهذا يقتضي أن لا يكون إلا واحداً فهو سبحانه الواحد القهار الذي يقهر كل أحد ولا يقهره أحد.

أما اسم القاهر فقد ورد في القرآن مرتين في سورة الأنعام قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ ، ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً ﴾ .

(١) عبد الرحمن آل سعدي، مرجع سابق، ص ٧٦.

(٢) سورة الرعد / ١٦.

(٣) سورة إبراهيم / ٤٨.

وآثار الجبار في الحياة لا تحصى، فكم من ظالم جبار من البشر قصم الله ظهره ورد كيده في نحره.

روى ابن الجوزي قال: لما قتل الحجاج بن يوسف الثقفي سعيد بن جبير وكان سعيد من العلماء الأجلاء، ومن خرجوا على الحجاج لبطشه وظلمه، بلغ الخبر الحسن بن أبي الحسن البصري فقال: اللهم يا قاصم الجبابرة اقصم الحجاج فما بقي إلا ثلاثاً.

عن يحيى بن سعيد عن كاتب للحجاج يقال له يعلي، قال: كنت أكتب للحجاج وأنا يومئذ غلام حديث السن فدخلت عليه يوماً بعدما قتل سعيد بن جبير، وهو في قبة لها أربعة أبواب فدخلت مما يلي ظهره فسمعته يقول: مالي ولسعيد بن جبير! كلما أردت النوم أخذ برجلي! فلم ينشب بعد ذلك إلا قليلاً، قيل: عاش بعده خمسة عشرة يوماً، وقيل ثلاثة أيام^(١).

وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: لم يكذب إبراهيم (عليه السلام) إلا ثلاث كذبات: اثنتين منهن في ذات الله (عز وجل): قوله: (إني سقيم)، وقوله (بل فعله كبيرهم هذا) وقال: بينا هو ذات يوم وسارة إذ أتى على جبار من الجبابرة فقبل له: إن هاهنا رجلاً معه امرأة من أحسن الناس فأرسل إليه فسأله عنها فقال: من هذه؟

قال: أختي، فأتى سارة قال: يا سارة ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك وإن هذا سألني عنك فأخبرته أنك أختي فلا تكذبيني. فأرسل إليها، فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده فأخذ: فقال ادعي الله فترك فأخذ يتناولها فأخذ مثلها أو أشد. فقال: ادعي الله

(١) أبو الفرج ابن الجوزي، صفة الصفوة، ج ٣، ص ٨٥.

لي ولا أضرك فدعت فأطلق فدعا بعض حبيبته، فقال: إنكم لم تأتونني بإنسان إنما أتيتموني بشيطان فأخدموها هاجر.

فاتته (أى إبراهيم عليه السلام) وهو قائم يصلي فأوماً بيده: مهيم؟ قالت: رد الله كيد الفاجر الكافر في نحره، وأخدمني هاجر^(١).

وكم من إنسان ضاقت عليه الحياة، واجتمعت عليه الشدائد فتوجه إلى الله عز وجل بقلب كسير ليزيل الشدة والكرب فبدل الله ضيقه سعة، وأزال شدته وكرهه.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لَجَنَّهُ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زِينٌ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٢).

روى ابن اسحق وابن أبي حاتم وغيرهما: أن مالكا الأشجعي جاء إلى رسول الله (ﷺ) فقال له: أسر ابني عوف، فقال له رسول الله (ﷺ)، أرسل إليه، وقل له إن رسول الله (ﷺ) يأمرك أن تكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله، وكانوا قد شدوه بالقد، فسقط القد عنه، فخرج فإذا بناقة لهم فركبها، وأقبل فإذا بسرح القوم الذين كانوا قد شدوه فصاح بهم فأتبع أولها آخرها، فلم يفجأ أبويه إلا ينادي بالباب فقال أبوه: عوف ورب الكعبة، فقالت أمه: واسوأ تاه؟! وعوف كيف يقدم لما هو فيه من القد، فاستبقا الباب والخادم، فإذا هو عوف قد ملأ الفناء إبلا فقص على أبيه أمره وأمر الإبل، فقال أبوه قف حتى آتي رسول الله (ﷺ) فأخبره بخبر عوف، وخبر الإبل، فقال له رسول الله (ﷺ): اصنع بها ما أحببت، وما كنت صانعا بمالك ونزل قول الله عز

(١) انظر صحيح البخاري كتاب الأنبياء.

(٢) سورة يونس/ ١٢.

وجل ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ (١).

فالقلوب عندما تتوجه إلى الجبار (سبحانه) بخشوع وانكسار، فما أسرع ما يجبر كسرهما، بل ويعطيها فوق ما ترجو وتأمل.

وقرأت يوماً: أن شاباً كان ينتزه وحيداً في البحر بقاربه، ودخل وقت الغروب . . . وفجأة حدث ما لم يكن في الحسبان حيث هاجت الأمواج، فانقلب القارب رأساً على عقب، وأصبح الشاب بين الأمواج يصارع الموت، ولم يستطع أن يتناول طوق النجاة المعد لمثل هذه الحالات، وانقطعت عنه كل الأسباب، ولم يبق إلا سبب واحد، وهو أن يدعو الله، فصرخ بأعلى صوته يارب أنقذني! صدرت هذه الصرخة من أعماقه . . . ولم يدر بعد ذلك ماذا حدث . . . غاب عن الوعي . . . ليستيقظ فيرى من حوله رجالاً كثيرين يقولون الحمد لله إنه حي لم يمت، وصاروا يهتثونه على نجاته من الهلاك.

فمن الذي جبر هذا القلب الكسير وأنجاه من الهلاك؟ إنه الجبار (سبحانه).

وتمتد آثار الجبار (سبحانه) إلى داخل بدن الإنسان، فالبدن بإلهام من الجبار يرم نفسه بنفسه، ويصل نفسه بنفسه، فهو إله ولكن من طراز عجيب . . . فلو قارنا بين هذا الجسد والسيارة مثلاً.

نجد أن السيارة عندما ينفد الوقود تتوقف، أما الجسد فيأخذ من نفس كيانه وتذوب عضلاته وعظامه وأنسجته وبلغمه ودمه ومفاصله تدريجياً لتعطى الوقود ليستمر الجسم في الحياة، وهكذا يفعل البدن في الصيام الطويل، أما السيارة فلا يمكن أن يتحول حديد العجلات

(١) سورة الطلاق/ ٢ انظر ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج٤، ص ٣٨٠.

وحديد هيكلها وخشبها إلى بنزين ووقود كما يحدث في البدن!
وإذا أصيب مطاط العجلات، وبدأ الهواء يتسرب فإن المطاط
والعجلات لا يستطيعان فرز الصمغ والرقعة لإصلاح هذا التسرب،
بينما إذا حدث نزيف في البدن فإنه سرعان ما يرقى نفسه بنفسه بواسطة
صفيحات الدم وإحدى خمائره (البروترومبين) وفيتامين K، ومعدن
الكلس . . . وهكذا تشترك عناصر الجسم من عناصر معدنية
وفيتامينات وخمائر وتشكيلات حيوية للانقاذ كفريق مدربة أحسن
تدريب!!

وتحتاج السيارة إلى زيت وشحم، ولكن في جسم الإنسان يمكن أن
يتحول الوقود إلى زيت وشحم وهكذا تمتليء مفاصل الإنسان بالزيت
الملائم لتزلق العظام على بعضها البعض ولا تتآكل.

وتحتاج السيارة إلى دهان لما يعلوها من غبار وصدأ وفي بدن
الإنسان يحدث نفس الشيء، ولكن الهيكل هنا يقوم بإزالة الصدأ
 وإعادة طلي الجلد في كل لحظة، وهو ما يحدث تماماً في التجديد الدائم
للبشرة والأظافر والشعر وإفراز الدهن والعرق وصبغ الجلد بمادة
الميلانين من خلايا الجلد القاعدية^(١).

والبدن يغير نفسه باستمرار، وكل خلاياه باستثناء الخلايا العصبية
فإنها تبقى ثابتة بدون تبديل، ولعل السر في هذا يعود إلى وظيفة الخلايا
العصبية لأن فيها مخزون المعلومات ونعلم اللغة والمهارات والذاكرة
والتراكم الذهني فإذا تغيرت كان معناه هدم هذه الأشياء مما يحرم
الإنسان من التطور العقلي.

وتجدد الخلايا أمر يسترعي الانتباه لدقته وكثرته، فعندما تموت خلية

(١) خالص خليي، الطب محراب الإيمان، ج٢، ص ٨٩، ص ٩٠.

تأت الخلية الجديدة لتحل محلها بالضبط، فهناك دقة في وضع الخلية الجديدة مكان القديمة، ولو لم يحدث ذلك ل مات الإنسان. ولعل هذا هو السبب في موت الإنسان بمرض السرطان الذي يعني نمو خلايا البدن وتوزعها بشكل فوضوي غير منتظم.

وعدد الخلايا التي تموت، وتستبدل غيرها كبير، ويكفي أن نعلم أنه في الساعة الواحدة مثلاً تموت عشرة مليارات كرية حمراء، وعمر الكرية الواحدة حوالي (١٢٠) يوماً، وهكذا فإن الكريات الموجودة في الدم تتبدل كلها في مدئ (١٢٠) يوماً ويتجدد يومياً (٢٤٠) مليار كرية حمراء، ويعتبر نقي العظام هو المصنع العملاق لإنتاج هذه الكريات (١).

فمن الذي يقوم على هذا الإصلاح والتجديد؟

وقد زود الجبار (سبحانه) البدن باحتياطي دائم بحيث أن المرض لا يحل به إلا بعد دفاعات مستميتة، فالتنفس رثان، ويبقى الإنسان قادراً على الحياة حتى بنصف رئة، ولتصفية الدم كليتان، ويمكن للبدن أن يعيش بجزء من كلية... والغدة لا تقصر في وظيفتها إلا بعد إصابة ما يزيد على ثلاثة أرباعها.

وقد اكتشف عند مريض في اليابان إصابة الكبد بورمين في القسم الأيمن والأيسر منه فأجريت له عملية أولية استؤصل فيها الورم مع القسم الأيمن، وترك حتى يتجدد، ثم أجريت له عملية تالية استؤصل فيها القسم الأيسر مع الكتلة الورمية، وبعد فترة رجع الكبد إلى حجمه الطبيعي بعد أن استؤصل منه ما يزيد على ٩٠% (٢).

(١) المرجع السابق، ص ١٠٧.

(٢) المرجع السابق، ص ١٠٨.

أما آثار القهار سبحانه وتعالى فتبدوا في كل لحظة وفي كل ذرة في
كياننا . فهو سبحانه قهر الكافرين والجاحدين والمعاندين ، قهرهم
بانتقامه منهم وإذلاله لهم ، وقهره سبحانه وتعالى عدل وحكمة ورحمة
ونصر للمؤمنين . قال تعالى : ﴿ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرُمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا
نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١) .

وهو سبحانه الذي قهر سائر البشر بالجوع والعطش والنوم
والمرض ، فالإنسان يجوع فيبحث عن الطعام ، ويعطش فيلهث وراء
قطرة من ماء ، ويمرض فتتدهار قواه فيسرع إلى الأطباء . ويأخذ النوم فلا
يستطيع له دفعا ، وقد حار الأطباء في ظاهرة النوم واعترفوا بأن النوم
سر غامض يقهر الإنسان ولا علاج له إلا به .

وقد أجرى الدكتور النفساني (هارولد ويليامز) يعمل بمعمل أبحاث
(ولتر ريد) تجربة عجيبة على جماعة مكونة من خمسة وعشرين رجلاً
تطوعوا بالبقاء مستيقظين فترات تصل إلى مائة ساعة أي أكثر من أربعة
أيام . . . وبدأت المتاعب تطرأ عليهم بعد يومين ، فقد تبين لهم أنه من
الصعب أن يركزوا انتباههم ، وأصبحوا سريعى التهيج ، وبدأ بعضهم
يرى صور الأشياء مزدوجة . . . كما عانوا أيضاً من هلوسة غريبة ، فقد
سمع أحدهم وخيل إليه أن أمه تناديه وصار يلتفت حوله . . . بينما
خيل للآخر أن الأثاث يتحرك ، وخيل لثالث أن كلباً يسير في عنبر
المستشفى وهكذا بدأت عقولهم في الإنهيار (٢) ولا علاج إلا بالنوم .

فسبحان القاهر القهار .

ومن آثار القهار سبحانه ما نراه من قهر العناصر المتنافرة واتحادها

(١) سورة الروم/ ٤٧ .

(٢) ابن خليفة عليوي ، مرجع سابق ، ص ١٢٨ .

معاً على الرغم من تباينها واختلافها، فهو سبحانه قهر الروح وهي مخلوق من نور لتستقر في البدن المخلوق من الطين، ثم قهر هذه الروح فأخرجها من البدن عند الموت، وهو الذي قهر العناصر المختلفة فجعلها تتحد مع بعضها البعض ولولا ذلك لما وجد تراب ولا ماء ولا شجر ولا حيوان.

وهو سبحانه الذي قهر نفوس العابدين بخوف عقوبته، عن سهل عن سعد (رضي الله عنه) أن فتى من الأنصار دخلته خشية الله فكان يبكي عند ذكر النار حتى حبسه ذلك فذكروا ذلك لرسول الله (ﷺ) فجاءه في البيت فلما دخل عليه اعتنقه النبي (ﷺ) وخرميتاً فقال النبي (ﷺ) جهزوا صاحبكم الفرق فلذ كبده (١).

ومعرفتنا للجبار القهار (سبحانه وتعالى) توجب علينا تنزيهه، فهو سبحانه لا يُنال لعلو قدره، وأمره نافذ لأنه لا يخرج أحد في الوجود عن قبضته.

والتضرع إلى الجبار القهار (سبحانه وتعالى) بإنكسار مفتاح لكشف الكرب وإزالة الضر.

روى عن طاووس أنه قال: رأيت علي بن الحسين ساجداً في الحجر فقلت: رجل صالح من أهل بيت طيب لأسمعن ما يقول، فأصغيت إليه فسمعتة يقول:

عبيدك بفنائك، مسكينك بفنائك، سائلك بفنائك، فقيرك بفنائك، فوالله ما دعوت الله بها في كرب إلا كشف الله عني (٢).

ومن عرف الجبار القهار تواضع وتذلل حتى لا يتجبر في الأرض فينتقم منه جبار السموات والأرض. وقد ذم الجبار (سبحانه وتعالى)

(١) رواه الحاكم وقال: صحيح الإسناد.

(٢) ابن الجوزي، مرجع سابق، ص ١٠٠.

الجبارين من البشر، لأن تجبرهم يبدأ بالإعجاب بالنفس، ثم الترفع على الخلق، ثم التكبر الذي ينتهي إلى الإفساد والتجبر، فتجبر الخلق خلل وإفساد، وتجبر الحق نعمة وإصلاح.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ (١).

وقال تعالى: ﴿إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ﴾ (٢).

وجزاء المتجبرين ذل وهلاك في الدنيا، وعذاب شديد في الآخرة.

قال تعالى: ﴿وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ . مَن وَرَأَاهُ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ . يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَأَاهُ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ (٣).

وعن سلمة بن الأكوع (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (ﷺ) «لا يزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب في الجبارين فيصيبه ما أصابهم» (٤) وعن أبي سعيد الخدري (رضي الله عنه) عن النبي (ﷺ) قال: «احتجت الجنة والنار فقالت النار: في الجبارون والمتكبرون، وقالت الجنة: في ضعفاء المسلمين ومساكينهم فقضى الله بينهما: إنك الجنة رحمتي أرحم بك من أشاء، وإنك النار عذابي أعذب به من أشاء، ولكليكما علي ملؤها» (٥).

ولأن الجبار عات متمرد معاند للحق مذل للخلق فقد خصه الله (عز وجل) بوادٍ في جهنم يلقي فيه أشد العذاب.

عن أبي موسى (رضي الله عنه) عن النبي (ﷺ) قال: «إن في جهنم

(١) سورة الشعراء/ ١٣٠.

(٢) سورة القصص/ ١٩. (٣) سورة إبراهيم/ ١٥ : ١٧.

(٤) رواه الترمذي، وقال: حديث حسن.

(٥) رواه مسلم في باب صفة الجنة والنار.

وإدباً يقال له هبهب حقاً على الله أن يسكنه كل جبار عنيد» (١).

والمؤمن الحق لا يخضع ولا يذل لأحد من البشر مهما علا وعظم لأن الكل مقهورون أمام الواحد القهار لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرراً. فهو لا يذل ولا يخضع إلا لله الواحد القهار. وقد علمنا رسول الله (ﷺ) ألا نخاف إلا من الله، ولا نذل إلا له.

عن جابر (رضي الله عنه) أنه غزا مع النبي (ﷺ) قبل نجد، فلما قفل رسول الله (ﷺ) قفل معهم، فأدركتهم القائلة في وادٍ كثير العضاة، فنزل رسول الله (ﷺ)، وتفرق الناس يستظلون بالشجر، ونزل رسول الله (ﷺ) تحت شجرة فعلق بها سيفه، وغنا نومة، فإذا رسول الله (ﷺ) يدعونا، وإذا عنده أعرابي فقال «إن هذا اخترط علي سيفي وأنا نائم، فاستيقظت وهو في يده صلتا، قال: من يمنعك مني؟ قلت: الله ثلاثاً ولم يعاقبه وجلس... وفي رواية: قال جابر: ... فجاء رجل من المشركين وسيف رسول الله (ﷺ) معلق بالشجرة، فاخترطه، فقال: تخافني؟ قال: «لا» قال: فمن يمنعك مني؟ قال «الله» (٢). وفي رواية أخرى قال: من يمنعك مني؟ قال: «الله» فسقط السيف من يده.

وقد علمنا رسول الله (ﷺ) أن لا نذل ونتضعع عند الكرب والشدة وإنما نقول:

١- «لا إله إلا الله العظيم الحليم. لا إله إلا الله رب العرش العظيم لا إله إلا الله رب السموات ورب الأرض ورب العرش الكريم» (٣).

٢- «اللهم رحمتك أرجو فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين وأصلح لي

(١) رواه أبو يعلى والحاكم وقال: صحيح الإسناد.

(٢) رواه البخاري، ٧١/٦.

(٣) رواه البخاري، ١٥٤/٧، ومسلم، ٢٠٩٢/٤.

شأنني كله «لا إله إلا أنت» (١).

٣- «لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين» (٢).

٤- «الله الله ربي لا أشرك به شيئاً» (٣).

«اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي، وأصلح لي آخرتي التي إليها معادي، واجعل الحياة زيادة لي في كل خير، واجعل الموت راحة لي من كل شر» (٤).

* * *

(١) رواه أبو داود وأحمد وحسن الألباني وعبد القادر الأرناؤوط .

(٢) رواه الترمذي والحاكم وصححه ووافقه الذهبي ، صحيح الترمذي ١٦٨/٣ .

(٣) رواه أبو داود وانظر صحيح الترمذي ١٩٦/٤ ، وصحيح ابن ماجه ٣٣٥/٢ .

(٤) أخرجه مسلم ٢٠٨٧/٤ .

القادر القدير المقتدر القوي المتين

٣٦ ٣٧ ٣٨ ٣٩ ٤٠

القادر والقدير المقتدر من أسماء الله الحسنى التي وردت في القرآن الكريم .

والقادر هو الذي يقدر على إيجاد المعدوم ، وإعدام الموجود بلا معالجة ولا واسطة فلا يلحقه عجز فيما يريد إنفاذه ولا فتور ، ولا يعارضه منازع ، ولا يخرج عن قبضته مخالف أو طائع ، لا يتقيد بالأسباب إذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون .

والقادر أيضاً يكون بمعنى المقدر للشيء ، يقال قَدَرْتُ الشيء وقدرته بمعنى واحد كقوله تعالى : ﴿ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ﴾ (١) أي نعم المقدرون ، وعلى هذا يتأول قوله (سبحانه) : ﴿ فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾ (٢) . أي لن نقدر عليه الخطيئة أو العقوبة إذ لا يجوز على نبي الله أن يظن عدم قدرة الله - عز وجل - عليه في حال من الأحوال .

والقدير هو الفاعل لما يشاء على قدر ما تقتضي الحكمة ، لا زائداً عليه ولا ناقصاً منه .

وهو أبلغ في الوصف بالقدرة من القادر لأن القادر اسم الفاعل من قدر يقدر فهو قادر : وقدير : فعيل من أبنية المبالغة (٣) .

(١) سورة المرسلات / ٢٣ .

(٢) سورة الأنبياء / ٨٧ ، ويجوز أن لن نقدر عليه أي : لن نضيق عليه . مثل قوله تعالى : ﴿ ييسر الرزق لمن يشاء ويقدر ﴾ .

(٣) الزجاجي ، مرجع سابق ، ص ٤٨ .

والمقتدر: هو التام القدرة الذي لا يمتنع عليه شيء ولا يحتجز عنه بمنعة وقوة ويشترك مع القدير والقادر في تضمنهم صفة القدرة، إلا أن الاقتدار أبلغ وأعم لأنه يقتضي الإطلاق لما في زيادة المبني من دلالة على زيادة المعنى.

فالمقتدر (سبحانه) هو المتناهي في الاقتدار المتحكم في جميع الآثار، المسيطر بقدرته البالغة على خلقه، المتمكن بسلطانه من ملكه، يقدر على أشياء لا يقدر عليها غيره.

يقول الراغب الأصفهاني: «القدرة إذا وصف بها الإنسان فاسم لهيئة له بها يتمكن من فعل شيء ما، وإذا وصف بها الله تعالى فهي نفى العجز عنه ومحال أن يوصف غير الله بالقدرة المطلقة... بل حقه أن يقال قادر على كذا... لأنه لا أحد غير الله يوصف بالقدرة من وجه إلا ويصح أن يوصف بالعجز من وجه، والله تعالى هو الذي ينتفي عنه العجز من كل وجه.

والقدير هو الفاعل لما يشاء على قدر ما تقتضي الحكمة لا زائداً عليه ولا ناقصاً عنه، ولذلك لا يصح أن يوصف به إلا الله تعالى، ﴿إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١).

والمقتدر يقاربة نحو ﴿عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ (٢). لكن قد يوصف به البشر وإذا استعمل في الله تعالى فمعناه القدير، وإذا استعمل في البشر فمعناه المتكلف والمكتسب للقدرة... والقدر والتقدير تبين كمية الشيء يقال قدرته وقدرته، وقدرة بالتشديد أعطاه القدرة يقال قدرني الله على كذا أي أعطاني القدرة وقواني عليه فتقدير الله الأشياء على وجهين أحدهما: بإعطاء القدرة، والثاني بأن يجعلها على مقدار مخصوص ووجه مخصوص حسبما اقتضت الحكمة (٣).

(١) سورة فصلت، آية: ٣٩. (٢) سورة القمر، آية: ٥٥.

(٣) الراغب الأصفهاني، مرجع سابق، ص ٣٩٤-٣٩٥.

والقوى: ذو القوة والأيد، ويقال لمن أطاق شيئاً وقدر عليه: قد قوى عليه ولمن لم يقدر عليه. قد ضعف عنه، فالله عز وجل قوى قادر على الأشياء كلها لا يعجزه شيء منها^(١).

فالله عز وجل هو القوي أئى صاحب القدرة التامة البالغة الكمال، قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾^(٢) والقوي هو المتناهي في القوة، الذي تتصاغر كل قوة أمام قوته، ويتضائل كل عظيم عند ذكر عظمته، ولا يكون ذلك إلا لله عز وجل. فهو تعالى أعطي الملائكة قوة كبيرة يستطيع الملك بها أن يقتلع الجبال ويقلب المدن ومع ذلك يخشون عذابه ويرتعدون من هيئته.

فالله عز وجل هو القوي الذي له كمال القدرة والعظمة، غالب لا يغلب. قوته فوق كل قوة، لا يلحقه ضعف في ذاته أو في صفاته أو في أفعاله.

والمتين مشتق من المتانة وهي شدة الشيء واستحكامه وصلابته، فالمتين هو الشديد القوي الذي لا يحتاج في إمضاء حكمه إلى جند أو مدد، ولا إلى معين أو عضد، وهو الذي يؤثر في الأشياء ولا تؤثر فيه، لأن قدرته بلغت أقصى الغايات فلا يعجزه شيء في الأرض ولا في السموات ولا يكون ذلك إلا لله عز وجل.

فالقادر والقدير والمقتدر أسماء تشير إلى القدرة المطلقة، والقوى يشير إلى كمال هذه القدرة وتتمامها، والمتين يشير إلى كمال هذه القوة وصلابتها واستحكامها.

فسبحان القادر القدير المقتدر القوى المتين!

وقد وردت هذه الأسماء كثيراً في القرآن الكريم، فقد ورد اسم القادر أكثر من عشر مرات:

(١) الزجاجي، مرجع سابق، ص ١٤٩. (٢) سورة هود، آية: ٦٦.

قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شِيعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نَصَرِفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ (١).

وقال تعالى: ﴿بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾ (٢).

أما اسم الله القدير فقد ورد في أكثر من أربعين موضعاً في القرآن الكريم.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٣).

﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٤).

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ (٥).

أما اسم الله المقتدر فقد ورد أربع مرات في الذكر الحكيم قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ (٦).

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَتْرَكْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ (٧).

أما اسم الله القوي فقد ورد في القرآن الكريم تسع مرات اقترن في سبع منها بالعزیز لقرب معناه لآن العزة فيها قوة وشدة وغلبة وامتناع ليظهر الاسمان معاً شدة قوة الله وغلبته :

قال تعالى: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (٨).

(١) سورة الأنعام/ ٦٥ .

(٢) سورة القيامة/ ٤ .

(٣) سورة البقرة/ ٢٠ .

(٤) سورة المائدة/ ١٢٠ .

(٥) سورة فاطر/ ٤٤ .

(٦) سورة القمر/ ٥٤-٥٥ .

(٧) سورة الكهف/ ٤٥ .

(٨) سورة الحج/ ٤٠ .

﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ (١).

﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ (٢).

أما اسم الله المتين فقد ورد في سورة الذاريات :

قال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ (٣).

وآثار هذه الأسماء من حولنا وفي أنفسنا لا تعد ولا تحصى ، فأثار قدرته وقوته (سبحانه وتعالى) تشمل الوجود كله فكل الكائنات مقهورة لله خاضعة لعظمته منقادته لإرادته فجميع نواصي المخلوقات بيده لا يتحرك منها متحرك ولا يتصرف متصرف إلا بحوله وقوته وإذنه . فما شاء الله كان وما لم يشاء لم يكن ، ولا حول ولا قوة إلا به ، فمن قوته واقتداره أنه خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وأنه خلق الخلق ثم يميتهم ثم يحييهم ثم إليه يرجعون ﴿مَا خَلَقُكُمْ وَلَا بِعَثْكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةً﴾ (٤).

﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ (٥).

ومن آثار قدرته أنك ترى الأرض هامدة ، فإذا أنزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ، ومن آثار قدرته ما أوقعه بالأمم المكذبين والكفار الظالمين من أنواع العقوبات وحلول المثلثات ،

(١) سورة الشورى/ ١٩ . (٢) سورة الأحزاب/ ٢٥ .

(٣) سورة الذاريات/ ٥٨ .

(٤) سورة لقمان/ ٢٨ .

(٥) سورة الروم/ ٢٧ .

وأنه لم يغن عنهم كيدهم ومكرهم ولا جنودهم ولا حصونهم من عذاب الله من شيء لما جاء أمر ربك، وما زادهم غير تنبيذ، وخصوصاً في هذه الأوقات، فإن هذه القوة الهائلة والمخترعات الباهرة التي وصلت إليها مقدرة هذه الأمم هي من إقدار الله لهم وتعليمه لهم ما لم يكونوا يعلمونه، فمن آيات الله أن قواهم وقدراتهم ومخترعاتهم لم تغن عنهم شيئاً في صدم ما أصابهم من النكبات والعقوبات المهلكة، مع بذل جدهم واجتهادهم في توقى ذلك، ولكن أمر الله غالب، وقدرته تنقاد لها عناصر العالم العلوى والسفلى... ومن تمام عزته وقدرته وشمولها أنه كما أنه هو الخالق للعباد فهو خالق أعمالهم وطاعتهم ومعاصيهم، وهى أيضاً أفعالهم فهى تضاف إلى الله خلقاً وتقديراً، وتضاف إليهم فعلاً ومباشرة (أو كسباً واختياراً) على الحقيقة. قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ (١).

ومن آثار قدرته ما ذكره الله في كتابة من نصرة أوليائه، على قلة عددهم وعددهم على أعدائهم الذين فاقوهم بكثرة العدد والعدة، قال تعالى: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ (٢).

ومن آثار قدرته ورحمته ما يحدثه لأهل النار وأهل الجنة من أنواع العقاب وأصناف النعيم المستمر الكثير المتتابع الذي لا ينقطع ولا يتناهى (٣).

(١) سورة الصافات/ ٩٦.

(٢) سورة البقرة/ ٢٤٩.

(٣) عبد الرحمن آل سعدى، الحق الواضح المبين، ص ٤٥، ٤٦.

فسبحان القوى المقتدر! والحياة التي نحيهاها سلسلة من الدورات نراها في داخلنا ومن حولنا يظهر فيها تقدير التقدير .

ولولا الدورات التي تتم - سواء في الأرض أو في السماء - لولاها، لما كانت حياة ولا أحياء، ولا كان هناك من يكتب ويتكلم، ولا من يقرأ أو يسمع فبيئة الأرض تتكون من نوعين أساسيين من المركبات، عضوية، تتألف منها جميع أشكال المادة الحية، وغير عضوية، تتألف منها جميع أشكال المادة غير الحية، فتقوم النباتات الخضراء بتحويل بعض العناصر والمواد غير العضوية إلى مواد عضوية تساعد على النمو، وتتحول إلى غذاء لمختلف الكائنات الحية وتحتاج في ذلك إلى الطاقة الشمسية، ثم تعود المواد العضوية على شكل جثث ونفايات إلى الأرض، حيث تقوم الكائنات المحللة بتحويلها إلى مواد غير عضوية من جديد . وهكذا فالكربون له دورة في الحياة وكذلك الأوكسجين والنيتروجين والماء والأملاح المعدنية .

يقول عبد المحسن صالح : فالإنسان وهو حي يدور والمخلوقات معه تدور ، فإذا طواها الثرى كانت لها بين جنباته دورات مع عناصر الأرض والماء والهواء . . وهذه بدورها لابد أن تدور في مخلوق مرة، ثم تدور في غيره مرة، كما دارت قبل ذلك وتتصرف قدرة التقدير في عجينة الحياة وعناصرها، وتحيلها بطريقة أو بأخرى، وتقلب آلاف الملايين من أطنان مادة الحياة وجزئياتها وذراتها، ثم تشكلها بطريقة سحرية لكي يسير طوفان الحياة . . في الماء وعلى الأرض وفي الهواء، إن الدارسين لهذه الدورات يعلمون مظاهر روعتها، ويدركون مقدار

عمقها فقد وضعت قواعدها منذ ملايين السنين وسارت الأمور في السماوات والأرض وكأنها عجلة ضخمة . . متوازية في سيرها، منتظمة في دورانها، رائعة في مدلولها، وفوق كل هذا فلا خلل فيها ولا فرج (١).

فسبحان القادر المقتدر القدير الذي أودع في الأرض هذه المقادير وهيمن على دوراتها!

وهناك دورات أعظم من هذه الدورات ألا وهي دورات المجرات والنجوم والكواكب وسائر الأفلاك . . فكما يدور كل شيء على الأرض تدور الأرض وهي لا تدور وحدها في الكون بل كل شيء من حولها في الفضاء خلق ليدور، فالأرض بالنسبة للشمس، كالأليكترون بالنسبة لنواة الذرة فكما يدور الأليكترون حول نواته حتى لا ينجذب إليها، كان لابد للأرض أن تدور حول شمسها حتى لا تنجذب إليها وتضيع في أتونها المتوهج . . والقمر يدور حول محوره، ثم يدور حول الأرض . . والكواكب الثمانية تدور كما تدور الأرض تماماً حول نفسها تارة، وحول الشمس تارة أخرى .

والشمس بدورها تدور حول محورها، ثم تصحب كواكبها التسعة وتدور بهم في مجرتها ومجرتنا . شيء ضخم تدور فيها شمسها (نجومها) ثم تدور المجرة حول نفسها كأنها شكل حلزوني أو عجلة ضخمة . . فكل شيء في الكون يدور ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (٢) . فمن الذي يهيمن على هذا الدوران ويجعله في أفلاك محدده وفي أماكن مقدرة . سبحان القوى القدير!

(١) عبد المحسن صالح، دورات الحياة، ص ٣-٤ .

(٢) سورة يس/ ٤٠ .

ثم من الذي أبدع هذا الكون مترامى الأطراف، وقسمه إلى مجرات وسدم وأفلاك. وكل في فلكه يسبح ويدور إن مجرتنا التي نعيش فيها، فيها الآف الملايين من الشمس مثل شمسنا حتي قال العلماء: لو أردنا أن نطلق اسماً على كل نجم من نجوم مجرتنا في ثانية واحدة فقط فإننا سوف نمكث (١٦٠٠) سنة كاملة، لا يغمض لنا فيها طرف ولا يتوقف فيها لسان عن ترديد الأسماء فقط فما بالناس ببلايين المجرات الأخرى. والمسافات التي تفصل بين النجوم مسافات واسعة شاسعة جداً لا تدركها الأبصار ولا العقول ولا حتي الخيال. فمجموعتنا الشمسية بالنسبة لمجرتها كسمكة صغيرة تسبح في محيط واسع. ولو أردنا أن نزرع أقرب نجم إلينا بعد الشمس وركبنا قطاراً سريعاً يسير بسرعة (١٠٠) ميل في الساعة، وسار هذا القطار بنا دون توقف فإننا سنصل إلي هذا النجم بعد (٣٠) مليون سنة ولو اختصرنا المسافة وركبنا طائرة نفاثة فإننا سنصل إليه بعد خمسة ملايين سنة (١).

فسبحان القادر المقتدر المتين!

وتظهر قدرة الخالق (سبحانه وتعالى) في الموجودات الحية من حولنا فهي على كثرتها المهولة المحيرة، في تمام الإجابة، وغاية الإتقان، ومنتهى الإبداع مما يدل على أن الصانع قدير قدرة مطلقة بحيث أن الكثرة المهولة لا تعجزه أو تنقص من قدرته شيئاً. فالخالق (سبحانه وتعالى) قادر تتساوى أمام قدرته المطلقة الكثرة والقلة. الواحد والملايين والمليارات. فسبحان القادر المقتدر الذي خلق كل شيء بقدرته وقدره تقديراً بحكمته. وعندما ننظر إلى مقادير الأشياء، ونجدها تنمو حتى تصل إلى حد معين لا تتجاوزه فمن الذي يأمر النمو

(١) المرجع السابق ص ١٥٩.

بالتوقف عندما يكتمل جسم الكائن الحي ويأخذ أبعاده المقرره ويبلغ أشده؟

ولماذا - مثلاً - لا يستمر نمو الذبابة حتى تصل في حجمها إلى حجم الفيل؟

ولماذا هذه المقادير والأحجام والقوالب المعينة لكل نوع من أنواع الكائنات الحية بحيث لا تستطيع التمرد عليها وتخطيها أو تجاوزها؟ لماذا لا نرى ذبابة في حجم الفيل وفيلاً في حجم الذبابة، وجمالاً في حجم النملة، ونملة في حجم الجمل؟!

فسبحان القدير الذي خلق فسوى والذى قدر فهدي والذى وهب لكل شيء مقداراً منتظماً وصورة بديعة يشفان عن حكمة واضحة .
سبحان القدير الذي فصل كل شيء على قدر ماهيته تفصيلاً دقيقاً متقناً ووزنه بميزان دقيق كامل، ونسقه تنسيقاً بارعاً، وصنعه صنعة فائقة وألبسه أجمل صورة وألطف ثوب وأسهل شكل يعينه على أداء مهمته!
وتظهر قدرة الخالق (سبحانه) في خلق الإنسان من ماء: قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ (١).

فالخلية الآتية من الأب تقطع طريقاً يبلغ طوله مائة ألف ضعف طولها، لكنى تلتقى بخلية الأم، وهى تعبر في طريقها نظاماً معقداً مؤلفاً من قنوات عديدة ملتف بعضها حول بعض وهى تضطر في هذه المسيرة أن تعدو عدواً للالتقاء مع خلية الأم.

وهكذا يتكون في رحم الأم ما نطلق عليه اسم الجنين . . وهذا

الأسلوب هو الذي اختاره الخالق القدير لإظهار قدرته اللانهائية في ترتيب وتنظيم هذه الحادثة . . وحدث هذه الحادثة عن طريق الصدفة بقياس حساب الاحتمالات يعتبر صفرًا، ذلك لأنه يستحيل على خلية أن تخرج من جسد الأب وتنتقل إلى جسد الأم، وتبقى على قيد الحياة، وتنجح في قطع الطريق الموصل إلى رحم الأم كما أن قيام أحد أعضاء الأم بتلقف هذه الخلايا الصغيرة المقذوفة في فراغ البطن، وإرسالها إلى الرحم لا يمكن أن يكون عن طريق الصدفة . . فحقاً وكان ربك قديراً وقد تلتقى الخليتان ولا ينشأ الجنين . . . ﴿وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ (١) .

ويخلق بدون خليتين (أى بدون أب ولا أم) كما خلق آدم (عليه السلام) .

قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٢) .

ويخلق من أب بدون أم كما خلق حواء ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (٣) .

ويخلق من أم بدون أب كما خلق عيسى (عليه السلام) ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٤) .

(١) سورة الشورى/ ٥٠ .

(٢) سورة آل عمران/ ٥٩ .

(٣) سورة النساء/ ١ .

(٤) سورة آل عمران/ ٤٧ .

وتظهر قدرة الخالق (سبحانه وتعالى) في إحياء الموتى بعد أن يصيروا تراباً . .

﴿ قَالَ اللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١) .

وقد كثرت الآيات القرآنية التي تشير إلى ذلك ، ومن ذلك ما قص في سورة البقرة من قصة الرجل الذي مر على قرية فوجدها خاوية على عروشها خربة فنظر إلى أطلالها وتعجب قائلاً : ﴿ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مائةَ عامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مائةَ عامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوها لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٢) .

إنها حادثة فريدة وبديعة فالرجل يموت ويمكث مائة عام وطعامه وشرابه بجواره لم يتغيرا (مع أن الطعام والشراب أسرع الأشياء إلى التغير والفساد) إنها طلاقة القدرة الإلهية ، أما الحمار وهو رفيق رحلته فيموت معه وتتفرق عظامه وتندثر مكوناته .

فقدرة الخالق (سبحانه وتعالى) قبضت الزمان عن الطعام والشراب فلم يمر عليهما سوى لحظة من الزمان ، أما الحمار فمرت عليه مائة عام . .

ثم أراه الله (عز وجل) كيف ينشز العظام ويجمعها ثم يكسوها لحماً . . فلم يملك إلا أن قال من أعماقه ﴿ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ وطلاقة القدرة لا تقف عند حد جمع العظام ثم كسوتها لحماً بل

(١) سورة الشورى/ ٩ .

(٢) سورة البقرة/ ٢٥٩ .

تسوية هذه العظام . . وتمييزها وتمييز بصمات الإنسان في جلد البنان خير دليل على طلاقه هذه القدرة وشمولها . .

﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ لَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ (٣) بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾ (١).

فالبنان إحدى آيات الله التي وضعها وصممها لتشهد على تميز كل إنسان، ومن ثم تصبح دليلاً وشاهداً عليه وتمييز البصمات عند دراستها بأربع صفات رئيسية:

(١) تفرع خط إلى خطين جزئيين أو أكثر.

(٢) انتهاء خط باتجاه الأعلى أو الأسفل.

(٣) وجود جزيره أو نقطه.

(٤) وجود حلقة.

وبدراسة البصمات من هذا المنطلق يمكننا تمييز (١٠٠) صفة لها ولكن يكفي عملياً تطابق واتفاق (١٢) صفة من الأشكال واتساع الزاوية وشكلها والصفات الجزئية للخطوط المكونة للبصمة وتختلف بصمة كل إصبع عن الآخر وتبعاً لنظرية الاحتمالات أصبح من المؤكد استحالة تطابق شخصين في بصماتهما (٢).

فحقاً ﴿بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾.

وما أروع قول الشاعر:

(١) سورة القيامة/ ٣، ٤.

(٢) حامد أحمد حامد، رحلة الإيمان في جسم الإنسان ص ١٠٥.

وأعجب شيء بهن الخطوط فما اتحدت في الورى (بصمتان)
وطبقة إبهامنا ختمنا يميزنا ما توالى الزمان
أناملنا من بديع الفنون يقصر عن وصفهن البيان

وتعقب هذه الحادثة مباشرة سؤال إبراهيم (عليه السلام) ربه أن يريه كيف يحيى الموتى ، ويريه الله ذلك عياناً ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَئِمُتُؤْمِنُ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي قَالَ فَخَذْنَا مِنْهُ الطَّيْرَ فَصَرَّهِنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (١).

فسبحان القادر المقتدر العزيز الحكيم!

فأمام القدرة المطلقة تتساوى جميع الأمور الكبير والصغير والقليل والكثير . .

فهى قدرة أزلية مطلقة لا يلحقها نقص ولا يطرأ عليها عجز .
فأحياء ميت واحد كاحياء جميع الموتى وخلق جميع الناس وبعثهم
كخلق إنسان واحد وبعثه قال تعالى : ﴿مَا خَلَقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةً﴾ (٢).

وأمر الساعة أمام القدرة المطلقة كلمح البصر أو هو أقرب قال
تعالى : ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمَحٍ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٣).

ومن كمال قدرته سبحانه وتعالى جمع الناس في هذا اليوم
فيجدون أعمالهم مسجلة لا تغيب منها صغيرة ولا كبيرة ، فهو يجمع

(١) سورة البقرة / ٢٦٠ . (٢) سورة لقمان / ٢٨ .

(٣) سورة النحل / ٧٧ .

الأولين والآخرين في هذا اليوم العظيم للحساب والجزاء ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ (١).

ودائماً إذ تعلق الأمر بقدرة الله عز وجل ﴿فهو على كل شيء قدير﴾ وقد تكررت هذه الكلمات ﴿والله على كل شيء قدير﴾ ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾ ﴿وهو على كل شيء قدير﴾ في أكثر من خمسة وعشرين موضعاً في القرآن الكريم حتي يطمئن المؤمنون إلى قدرة الله، ولا يركنون إلى أحد سواه، وحتى يعلم الكافرون والمعاندون أنهم غير معجزين.

ومن عرف القادر المقتدر لا يتوكل إلا عليه، ولا يعتصم بأحد سواه ولا يمتنع إلا به، ولا يفوض أموره إلا إليه لأن عنده سبحانه وتعالى تمام الكفاية، وحسن الولاية ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ (٢).

ويعلمنا القرآن الكريم في ثانيا قصة موسى (عليه السلام) مع فرعون أن من توكل على الله، وفوض أمره إليه فقد فاز في الدنيا والآخرة فكل الخلائق أضعف وأقل من أن يحدثوا به أذى أو مكروهاً. فأمام إصرار فرعون واستهتاره، وتبجح وسخريته من دعوة موسى (عليه السلام) وقوله: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ (٣). عند هذه اللحظة يلجأ موسى (عليه السلام) إلى القوى المتين ﴿وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ (٤).

ويخرج رجل مؤمن من آل فرعون - وقع الحق في قلبه، ولكنه يكتنم إيمانه - ليدافع عن موسى، ويحتال لدفع القوم عنه، ويسلك في خطابه لفرعون وملئه مسالك شتى، فيجول معهم جولة كبيرة تبدأ بقوله كما

(١) سورة آل عمران/ ٩.

(٢) سورة الطلاق/ ٣.

(٣) سورة غافر/ ٢٦.

(٤) سورة غافر/ ٢٦.

يحكى القرآن الكريم:

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ ؟ ﴾ ثم يخوفهم: ﴿ يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمَلَكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا ؟ ﴾ . . ﴿ وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ (٣٢) يَوْمَ تَوَلَّوْنَ مَدِيرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ (١) . ولكن فرعون وملاؤه يصرون على التكرار للحق، فيلقى الرجل كلمته الأخيرة مدوية صريحة:

﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ (٣٨) يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ (٣٩) مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِمَّنْ ذَكَرْتُ أَوْ أَتَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ (٤٠) وَيَا قَوْمِ مَا لِيَ أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ (٤١) تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ (٤٢) لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَرَدْنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (٤٣) فَسْتَذَكِّرُونِ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفْوِضْ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ (٢) .

إنه يصدع بكلمة الحق لأنه يفوض أمره إلى القادر القوى البصير بعباده . لقد قال كلمة الحق ومضى لا يالو علي شيء ولا يهاب أحداً فوقاه الله سيئات مكر فرعون وملئه ، ولم يصبه شيء من ضرهم وأذاهم وكيدهم ، بل دارت الدائرة عليهم !

﴿ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَخَاقَ بَالُ فِرْعَوْنَ سُوءَ الْعَذَابِ (٤٥) النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ (٣) .

(١) سورة غافر/ ٣٣ .

(٢) سورة غافر/ ٤٦ .

(٣) سورة غافر/ ٣٨ : ٤٤ .

ثم يأتى التعقيب الأخير بعد ذلك بقليل :

﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (٥١) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ (١).

وهكذا كل من يفوض أمره إلى القادر المقتدر القوى المتين .

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ (٢)، ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا﴾ (٣).

فالضعف أو الذل يأتى من نسيان القوى المتين . ونصر الله عز وجل لأوليائه لا يكون في الدنيا فقط وإنما في الدنيا والآخرة . والنصر قد يكون بعد موت الرسول أو الداعية كما انتقم الله (عز وجل) من قتلة يحيى عليه السلام بعد موته ، ومن هموا بقتل (عيسى عليه السلام) ، ومن قتلة الحسين بن على (رضى الله عنه) .

وقتل الداعية أو سجنه أو إيذاؤه إنما هو في حقيقته نصر وتأيد لهذا الداعية ، لأن صموده ويقينه وصبره أمام قاتليه وجلاديه إنما هو انتصار للمنهج والدعوة التي يدعو إليها كما حدث لعبد الله الغلام عندما قتله الملك ، فقال قومه «أما بالله رب الغلام» (٤) .

وكما يقول سيد قطب : الناس يقصرون معنى النصر على صور معينة معهودة لهم قريبة الرؤية لأعينهم . ولكن صور النصر شتى ، وقد يلتبس بعضها بصور الهزيمة عند النظرة القصيرة . إبراهيم عليه السلام وهو يلقي في النار لا يرجع عن عقيدته ولا عن الدعوة إليها . أكان في موقف نصر أم في موقف هزيمة ؟ ما من شك . في منطق العقيدة . أنه كان

(١) سورة غافر/ ٥٢ . (٢) سورة فاطر/ ٤٤ .

(٣) سورة الكهف/ ٤٥ .

(٤) قصة أصحاب الأخدود أخرجهما مسلم (٣٠٠٥) من حديث صهيب .

في قمة النصر وهو يلقي في النار . كما انتصر مرة أخرى وهو ينجو من النار .

والحسين - رضوان الله عليه - وهو يستشهد في تلك الصورة العظيمة من جانب ، المفجعة من جانب آخر؟ أكانت هذه نصراً أم هزيمة؟ في الصورة الظاهرة وبالمقياس الصغير كانت هزيمة ، فأما في الحقيقة الخالصة وبالمقياس الكبير فقد كانت نصراً .

فما من شهيد في الأرض تهتز له الجوانح بالحب والعطف ، وتهفو له القلوب وتحبش بالغيرة والفداء كالحسين (رضوان الله عليه) يستوى في هذا المتشيعون وغير المتشيعين من المسلمين . وكثير من غير المسلمين . وكم من شهيد ما كان يملك أن ينصر عقيدته ودعوته ولو عاش ألف عام ، كما نصرها باستشهاده ، وما كان يملك أن يودع القلوب من المعاني الكبيرة ، ويحفز الألوف إلى الأعمال الكبيرة بخطبة مثل خطبته الأخيرة التي يكتبها بدمه ، فتبقى حافزاً محرراً للأبناء والأحفاد ، وربما كانت حافزاً محرراً لخطى التاريخ كله مدى أجيال (١) .

فالشهادة في سبيل الله من أعظم أنواع الانتصار ، لأن قتل الداعية ليس موتاً له بل إحياء ، وفضلاً وإكراماً من المولى (عز وجل) قال تعالى : ﴿وَلَا تَحْسِبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (١٦٩) فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴿٢﴾ .

وقال تعالى : ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ (٢٦) بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين ﴿٣﴾ .

(١) سيد قطب ، في ظلال القرآن ، المجلد الخامس ، ص ٣٠٨٦ .

(٢) سورة آل عمران / ١٦٩ - ١٧٠ .

(٣) سورة يس / ٢٦ - ٢٧ .

اللهم مَنْ عَلَيْنَا بِشَهَادَةٍ فِي سَبِيلِكَ يَا قَوِيَّ يَا قَادِرًا يَا مُقْتَدِرًا!

وَالْقَدِيرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خَلْقُ هَذَا الْكَوْنِ مُتَوَازِنًا:

﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقْدَرَهُ تَقْدِيرًا﴾ (١).

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ (٢).

﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ (٣).

﴿وَالْأَرْضُ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾ (٤).

﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ (٥).

وهذا النظام الكونى مقدر وموزون من القدير (سبحانه)، وأى خلل فيه أو اختلال يحدث كوارث يكون وبالها على الإنسان، والخلل يأتى من تدخل الإنسان بممارساته الخاطئة وغير الواعية.

قال تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ (٦).

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ (٧).

وعلى الإنسان أن يراعى هذا التوازن الدقيق، فيتصرف بحكمة واعتدال حتى لا يحدث خللاً في ميزان الكون وباله عليه.

والإنسان لا يستطيع أن يعيش بمعزل عن البيئة المحيطة به، كيف ومنها غذاؤه وماؤه وكافة مقومات حياته! ولذلك فأتى خلل يحدث في البيئة المحيطة به إنما هو خلل في حياته التي يحياها. فمثلاً درجة الحرارة المناسبة هامة جداً لإتمام الحياة على وجه الأرض فارتفاعها أو انخفاضها

(١) سورة الفرقان/ ٢. (٢) سورة الرعد/ ٨.

(٣) سورة الحجر/ ٢١. (٤) سورة الحجر/ ١٩.

(٥) سورة الرحمن/ ٧. (٦) سورة الأعراف/ ٥٦.

(٧) سورة الروم/ ٤١.

عن معدلها يؤثر تأثيراً سلبياً علي حياة جميع الكائنات الحية .

والغلاف الهوائي الذي يحيط بالأرض يحفظ الحياة والأحياء علي وجهها، يقول (بول سوزان) في كتابه (الملاحاة الفلكية) ص ٧٨ : «إن الجو الأرضي حاجز حقيقي هو حقاً قليل الكثافة، ولكنه سميك جداً، فهو يوقف الأشعة ويحرق الشهب إن هذا الحاجز الذي لا نحسه باللمس، ولا نراه بالعين، حتى لكأنه غير (مادى) يحمى حياتنا الدنيوية، ويحافظ عليها، لأنه لا يسمح بالوصول إلى سطح الأرض إلا لكل ما هو مفيد لنا» .

وصدق الله العظيم: ﴿ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾ (١) .

وما مشكلة ثقب الأوزون عنا ببعيدة . وكل هذا من إسراف الإنسان وسوء إستغلاله للبيئة المحيطة به .

والمؤمن بإسم الله التقدير الذي خلق كل شيء فقدره تقديراً يدرك أهمية هذا التقدير فينظر إلى البيئة من حوله ويتعامل معها من منطلق أنها متكاملة متناسقة متوازنة فلا يستهين بمكوناتها، ولا يسرف في استهلاكها .

قال تعالى: ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴾ (١٨) فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهٌ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (١٩) وَشَجَرَةٌ تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَبِغٌ لِّلْأَكْلِينَ (٢٠) وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ (٢) .

(١) سورة الأنبياء / ٣٢ - محفوظاً أى حافظاً .

(٢) سورة المؤمنون / ١٨ - ٢١ .

فكل ما حول الإنسان مخلوق بقدر وحكمة وغاية، فينبغي عليه أن يكون أميناً في تعامله معه مبتعداً عن الإسراف والتبذير وسوء الاستهلاك والاستنزاف.

قال تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (١).
﴿رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٢).

«اللهم بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق، أحيني ما علمت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا علمت الوفاة خيراً لي» (٣).

«اللهم إنا نسألك من خير ما سألك منه نبيك محمد (ﷺ)، ونعوذ بك من شر ما استعاذ منه نبيك محمد (ﷺ)، وأنت المستعان وعليك البلاغ، ولا حول ولا قوة إلا بك» (٤).

«اللهم إنني أعوذ بك من غلبة الدين، وغلبة العدو، وشماتة الأعداء» (٥).



(١) سورة الأعراف/ ٣١.

(٢) سورة التحريم/ ٨.

(٣) رواه النسائي وأحمد وإسناده جيد، وانظر صحيح النسائي ١/ ٢٨٠.

(٤) رواه النسائي، انظر صحيح النسائي ٣/ ١١١٣.

(٥) رواه أبو داود والنسائي وأحمد، وانظر صحيح النسائي ٣/ ١١١٦.

وأوصافها، وهى ناشئة عن إرادته وقدرته (١).

وقد ورد هذان الإسمان في الحديث الصحيح، فقد كان رسول الله (ﷺ) يدعو بين التشهد والتسليم فيقول: «اللهم اغفر لي ما قدمت، وما أخرت وما أسررت، وما أعلنت، وما أسرفت، وما أنت أعلم به مني. أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله إلا أنت» (٢).

فالله عز وجل هو المقدم المؤخر فقد قدم الإنسان وفضله على كثير من خلقه.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ (٣).

وفضل الله الأنبياء، وقدم بعضهم على بعض، ورفع بعضهم فوق بعض درجات.

قال تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضُهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ (٤).

قال ابن كثير (رحمه الله): يخبر تعالى أنه فضل بعض الرسل على بعض كما قال تعالى ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ وقال ههنا ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ﴾ يعنى موسى ومحمد (ﷺ). ﴿ورفع بعضهم درجات﴾ كما ثبت في حديث الإسراء حين رأى النبي (ﷺ) الأنبياء في السموات بحسب تفاوت منازلهم عند الله (عز وجل) (٥).

(١) عبد الرحمن آل سعدى، الحق الواضح المبين، ص ١٠٠.

(٢) رواه مسلم وأبو داود (١٥٠٩) في الصلاة، وإسناده صحيح، وأخرجه الترمذى في الدعوات، وقال: حسن صحيح.

(٣) سورة الإسراء/ ٧٠. (٤) سورة البقرة/ ٢٥٣.

(٥) اسماعيل بن كثير، مرجع سابق، ج ٤، ص ٣٠٤.

فأفضل صفوة الرب تعالى: الأنبياء، وأفضلهم: الرسل، وأفضل الرسل: أولوا العزم وأفضل أولوا العزم: الخليلان (محمد وإبراهيم) عليهما السلام، وعلى سائر الأنبياء والمرسلين (١).

ويبين ابن القيم (رحمه الله) هذا التقديم والتفضيل أوضح بيان: «وإذا تأملت أحوال هذا الخلق، رأيت هذا الاختيار والتخصيص فيه دالاً على ربوبيته تعالى ووحدانيته وكمال حكمته وعلمه وقدرته، وأنه الله الذي لا إله إلا هو، فلا شريك له يخلق كخلقه ويختار كاختياره ويدبر كتدبيره، فهذا الاختيار والتدبير والتخصيص المشهود أثره في هذا العالم من أعظم آيات ربوبيته، وأكبر شواهد وحدانيته، وصفات كماله، وصدق رسله، فتشير منه إلى يسير يكون منبهاً على ما وراءه دالاً على ما سواه:

* فخلق السموات سبعاً، فاختياره العليا منها، فجعلها مستقر المقربين من ملائكته واختصها بالقرب من كرسیه ومن عرشه، وأسكنها من شاء من خلقه فلها مزية وفضل على سائر السموات، ولو لم يكن إلا قربها منه تبارك وتعالى وهذا التفضيل والتخصيص مع تساوى مادة السموات من أبين الأدلة على كمال قدرته وحكمته، وأنه يخلق ما يشاء ويختار.

* ومن هذا تفضيله (سبحانه) جنة الفردوس على سائر الجنان، وتخصيصها بأن جعل عرشه سقفاً (٢).

(١) ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين، ج ٣، ص ٥١٢.

(٢) روى البخارى في كتاب التوحيد، باب وكان عرشه على الماء، قال رسول الله (ﷺ): «إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيله، كل درجتين ما بينهما كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فسلوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن».

* ومن هذا اختياره من الملائكة المصطفين منهم على سائرهم ،
كجبريل وميكائيل وإسرافيل ، وكان النبي (ﷺ) يقول : «اللهم رب
جبريل وميكائيل وإسرافيل ، فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب
والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدني لما اختلف
فيه من الحق بإذنك ، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم» (١) .

فذكر هؤلاء الثلاثة من الملائكة لكمال اختصاصهم ، واصطفائهم
وقربهم من الله .

* وكذلك اختياره (سبحانه) للأنبياء من ولد آدم عليه وعليهم
الصلاة والسلام واختياره الرسل منهم ، وهم ثلاثمائة وخمس
عشرة (٢) .

واختياره أولى العزم منهم ، وهم خمسة قال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ
النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﴾ (٣) .
واختار منهم الخليلين : إبراهيم ومحمداً صلى الله عليهما وعلى
آلهما وسلم .

* ومن هذا اختياره (سبحانه) ولد اسماعيل من أجناس بنى آدم ،
ثم اختار منهم بنى كنانة من خزيمية ، ثم اختار من ولد كنانة قريشاً ، ثم
اختار من قريش بنى هاشم ، ثم اختار من بنى هاشم سيد ولد آدم

(١) رواه مسلم في صحيحه برقم (٧٧٠) في صلاة المسافرين ، باب الدعاء في صلاة الليل
وقيامه .

(٢) أخرج الحاكم في مستدركه ٢/ ٢٦٢ من حديث أبي أمامة أنه سئل رسول الله (ﷺ) عن
عدد الرسل . فقال : ثلاثمائة وخمس عشرة ، وسنده صحيح على شرط مسلم كما قال
الحاكم ، ووافقه الذهبي .

(٣) سورة الأحزاب / ٧ .

محمدًا ﷺ (١).

* وكذلك اختار أصحابه من جملة العالمين، واختار منهم السابقين الأولين، واختار منهم أهل بدر، وأهل بيعة الرضوان، واختار لهم من الدين أكمله، ومن الشرائع أفضلها، ومن الأخلاق أزكاها وأطيبها وأطهرها.

* واختار أمته على سائر الأمم، كما في مسند أحمد وغيره من بهز بن حكيم عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «أنتم موفون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله» (٢).

وظهر أثر هذا الاختيار في أعمالهم وأخلاقهم وتوحيدهم ومنازلهم في الجنة، ومقاماتهم في الموقف، فإنهم أعلى الناس على تل فوقهم يشرفون عليهم. ففي حديث بريدة بن الحصيب الأسلمي قال: قال رسول الله ﷺ: «أهل الجنة عشرون ومائة صف، ثمانون منها من هذه الأمة، وأربعون من سائر الأمم» (٣).

* ومن ذلك اختياره (سبحانه وتعالى) من الأماكن والبلاد خيرها وأشرفها وهي البلد الحرام، فإنه سبحانه وتعالى اختاره لنبيه، وجعله مناسك لعباده، وأوجب عليهم الإتيان إليه من القرب والبعد من كل فج عميق، فلا يدخلونه إلا متواضعين متخشعين. متذللين كاشفي رؤوسهم متجردين عن لباس أهل الدنيا، وجعله حرماً آمناً، لا يسفك

(١) معنى حديث رواه مسلم في صحيحه برقم (٢٢٧٦) في الفضائل: باب فضل نسب النبي ﷺ.

(٢) رواه أحمد وابن ماجه والترمذي في سننه (٣٠٠٤) بلفظ: أنتم تسمون سبعين أمة... وقال: حديث حسن، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه (٢٥٤٩) وحسنه في صفة الجن، وأحمد وابن ماجه من طرف وسنده صحيح، وصححه ابن حبان والحاكم.

فيه دم، ولا تعضد به شجرة، ولا ينفر له صيد، ولا يختلي خللاه^(١)، ولا تلتقط لقطته للتملك بل للتعريف ليس إلا، وجعل قصده مكفراً لما سلف من الذنوب ماحياً للأوزار، حاطاً للخطايا. قال رسول الله (ﷺ): «من أتى هذا البيت، فلم يرفث، ولم يفسق، رجع كيوم ولدته أمه»^(٢).

* ومن هذا تفضيله بعض الأيام والشهور على بعض، فخير الأيام عند الله يوم النحر، وهو يوم الحج الأكبر كما في السنن عنه (ﷺ) أنه قال: «أفضل الأيام عند الله يوم النحر، ثم يوم القر»^(٣). ويوم النحر هو يوم الحج الأكبر، ويوم عرفة مقدمة له بين يديه. وكذلك تفضيل عشر ذي الحجة على غيرها من الأيام، فإنها أفضل الأيام عند الله، وهي الأيام العشر التي أقسم الله بها في كتابه بقوله ﴿وَالْفَجْرِ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾^(٤). وفي الحديث الصحيح قال رسول الله (ﷺ) «ما من أيام العمل الصالح فيها أحب إلى الله من هذه الأيام العشر» قالوا: ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: «ولا الجهاد في سبيل الله، إلا رجل خرج بنفسه وماله، ثم لم يرجع من ذلك بشيء»^(٥).

ومن ذلك تفضيل شهر رمضان على سائر الشهور، وتفضيل عشره الأخير على سائر الليالي، وتفضيل ليلة القدر على ألف شهر. فإن قلت: أي العشرين أفضل؟ عشر ذي الحجة، أو العشر الأخيرة من

(١) يقطع نباته.

(٢) رواه البخاري في الحج: باب فضل الحج المبرور، ومسلم برقم (١٣٥٠) في الحج. باب فضل الحج والعمرة ويوم عرفة ٢٢١/٤.

(٣) أخرجه أحمد بسند صحيح وأبو داود وصححه الحاكم ٢٢١/٤ ووافقه الذهبي، ويوم القر: هو حادي عشر ذي الحجة لأن الناس يقرّون فيه بمنى.

(٤) سورة الفجر/ ١، ٢.

(٥) رواه البخاري في العيدين: باب فضل العمل في أيام التشريق.

رمضان؟ وأي الليلتين أفضل؟ ليلة القدر، أو ليلة الإسراء؟.

قلت: أما السؤال الأول، فالصواب فيه أن يقال: ليالي العشر الأخير من رمضان أفضل، وأيام عشر ذي الحجة أفضل من أيام عشر رمضان وبهذا التفضيل يزول الاشتباه ويدل عليه أن ليالي العشر من رمضان إنما فضلت باعتبار ليلة القدر، وهي من الليالي، وعشر ذي الحجة إنما أفضل باعتبار الأيام، إذ فيها يوم النحر، ويوم عرفة ويوم التروية.

وأما السؤال الثاني: فليلة القدر أفضل فقد ثبت في الصحيحين عن النبي (ﷺ) أنه قال: «من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه»^(١). وقد أخبر سبحانه أنها خير من ألف شهر، وأنه أنزل فيها القرآن^(٢).

وقدم الله (عز وجل) مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة، فقد كتب سبحانه ذلك في اللوح المحفوظ، فما من شيء كان أو يكون إلا وهو مكتوب مقدر قبل أن يكون، فقد علم بعلمه الأزلي الأبدي (سبحانه وتعالى) ما كان وما يكون من صغير أو كبير وظاهر وباطن من أفعاله أو أفعال عباده.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾^(٣).

﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنَ

(١) رواه البخاري في صحيحه في الصوم، ومسلم برقم (٧٥٩) في الصلاة، باب الترغيب في قيام رمضان.

(٢) ابن القيم الجوزية، زاد المعاد، ص ٤٢: ص ٥٨ (بتصرف).

(٣) سورة الحج/ ٧٠.

وَرَقَّةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿١﴾ .

وفي الحديث قال رسول الله (ﷺ): «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة قال: وعرشه على الماء»-(٢).

وقال عبادة بن الصامت (رضي الله عنه) سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: «إن أول ما خلق الله القلم فقال: اكتب قال رب وما أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة»-(٣).

وقد يكون التقديم والتأخير كونياً، فقد خلق (سبحانه وتعالى) السموات والأرض ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ﴾-(٤).

فخلق السموات والأرض ثم أنزل من السماء ماء أنبت به الزرع. فالنبات هو أسبق الكائنات الحية وجوداً على سطح الأرض من قبيل تهديد الدار وإعدادها لسكانها من حيوان وإنسان.

قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ. وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾-(٥).

وتظهر حكمة الحق سبحانه وتعالى في سبق النبات أولاً لأن حياة الإنسان والحيوان تقوم على ما يصنعه النبات لهما من غذاء وما يخرج لهما من أوكسجين. ففي كل خلية نباتية مادة خضراء تسمى (الكلوروفيل) أو ما يطلق عليه اسم اليخضور وهو يوجد في أجسام

(١) سورة الأنعام/ ٥٩.

(٢) رواه مسلم. (٣) رواه أحمد والترمذي، وحسنه.

(٤) سورة إبراهيم/ ٣٢. (٥) سورة الذاريات/ ٤٧، ٤٨.

صغيرة داخل الخلية تسمى البلاستيدات الخضراء، ويقوم اليخضور بعملية التمثيل الضوئي التي يتم فيها فصل الكربون عن الأوكسجين فيلفظ الثاني ليتنفسه الحيوان ويحتفظ بالأول ليصنع منه الغذاء.

ويؤخر الله (عز وجل) العقوبة عن العصاة والظالمين فيفسح لهم الزمان، ويمد لهم في الأعمار، حتى تنقطع حجتهم، فإن تابوا ورجعوا وأنابوا فهو (سبحانه وتعالى) غفور رحيم. وإن أصروا واستكبروا فلن يعجزوه.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ. مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ. وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نَجِبْ دَعْوَتَكَ وَتَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَرَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّنْ قَبْلِ مَا لَكُم مِّنْ زَوَالٍ. وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُم كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ﴾ (١).

فالله عز وجل هو المقدم وهو المؤخر، وتقديمه وتأخيريه كله حكمة وخير، ففعل الله (عز وجل) كله خير، والشر لا يدخل في فعله ولا ينسب إليه، وكون بعض مفعولاته شر بالنسبة لبعض الخلق فذلك عدل منه وحكمة. ولا يلزم من إثبات الحكمة في أفعال الله أن نعلم الحكمة في كل فعل، إذ قد تخفى الحكمة في بعض الأفعال، فيجب التسليم له تعالى والاعتقاد الجازم بأن الله حكمة في ذلك الفعل، قصرت عقولنا عن إدراكها.

«وإذا تقرر هذا فالرضى بالقضاء الكوني القدري، الجاري على خلاف مراد العبد ومحبه - مما لا يلائمه ولا يدخل تحت اختياره - مستحب، وهو من مقامات أهل الإيمان وفي وجوبه قولان.

وهذا كالمرض والفقر، وأذى الخلق له، والحر والبرد، والآلام ونحو ذلك. أما الرضا بالقضاء الكوني القدري، الموافق لمحبة العبد وإرادته ورضاه - من الصحة والعافية والغنى - فهو أمر لازم بمقتضى الطبيعة، لأنه ملائم للعبد محبوب له. فليس في الرضى به عبودية، بل العبودية في مقابله بالشكر، والاعتراف بالمنة، ووضع النعمة مواضعها التي يحب الله أن توضع فيها، وأن لا يعصى المنعم بها، وأن يرى التقصير في جميع ذلك»^(١).

فالله عز وجل يقدم ويؤخر ويضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها اللائقة بها، فلا يضع الشيء في غير موضعه، ولا ينزله غير منزلته التي يقتضيها كمال علمه وحكمته وخبرته. فهو أعلم حيث يجعل رسالته، وأعلم بمن يصلح لقبولها، ويشكره على انتهائها إليه ووصولها. وأعلم بمن لا يصلح لذلك ولا يستأهله، وأحكم من أن يمنعها أهلها وأن يضعها عند غير أهلها.

فهو (سبحانه وتعالى) يعلم عواقب الأمور ويعلم المصلحة أين تكون. وهو (سبحانه) الأول قبل كل شيء، والآخر بعد كل شيء، والمظهر لكل شيء. هو الذي يخلق ما يشاء ويختار، وليس لأحد معه اختيار ولا يشرك في حكمه أحداً تفرد بالاختيار والتدبير وليس لأحد معه قليل ولا كثير.

(١) ابن القيم الجوزية، مدارج السالكين، ج ٢ ص ١٣٩.

ونعمة الله عز وجل في تقديم أمة محمد (ﷺ) من أجل النعم وأعلامها . فقد اصطفى الله عز وجل لها ديناً قوياً ، وشريعة كاملة ، لا يدرك الوصف حسناتها فهي أكمل وأجل الشرائع . فهي من أعظم نعم الله (عز وجل) على عباده . وقد امتن الله عز وجل على عباده بأن هداهم لها .

قال تعالى : ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (١) .

«اللهم اغفر لي ما قدمت، وما أخرت، وما أسررت، وما أعلنت، وما أسرفت وما أنت أعلم به مني، أنت المقدم، وأنت المؤخر لا إله إلا أنت» (٢) .

* * *

(١) سورة آل عمران/ ١٦٤ .

(٢) رواه مسلم، وأبو داود في الصلاة وإسناده صحيح ، والترمذي في الدعوات ، وقال : حديث حسن صحيح .

الفتاح الحكم الديان

٤٥ ٤٤ ٤٣

قال الزجاجي : الفتح والفتاح : الحاكم (ربنا افتح بيننا) أي : احكم بيننا، وأصله من فتح الباب بعد إغلاقه، كأن الحاكم إذا حكم بينهم فقد فتح الباب إلى الحق وبينه (١).

وقال الراغب : «الفتح إزالة الإغلاق والإشكال وذلك ضربان أحدهما : يدرك بالبصر كفتح الباب ونحوه. ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ﴾ (٢) والثاني يدرك بالبصيرة كفتح الهم وهو إزالة الغم، وذلك على ضروب، أحدها : في الأمور الدنيوية كغم يفرج وفقير يزال بإعطاء المال ونحوه، كقوله تعالى : ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ (٣) والثاني فتح المستغلق من العلوم، نحو قولك فلان فتح من العلم باباً مغلقاً وفتح القضية فتاحاً فصل الأمر فيها وإزالة الإغلاق عنها» (٤).

قال ابن القيم (رحمه الله) :

وكذلك الفتح من أسمائه	والفتح في أوصافه أمران
فتح بحكم وهو شرع إلها	والفتح بالأقدار فتح ثان
والرب فتاح بدين كليهما	عدلاً وإحساناً من الرحمن

فالفتاح هو الحكم المحسن الجواد، وفتحته تعالى قسمان : أحدهما فتحه بحكمه الديني وحكمه الجزائي، والثاني الفتح بحكمه القدري

(١) الزجاجي، مرجع سابق، ص ١٨٩.

(٢) الراغب الأصفهاني، مرجع سابق، ص ٣٧٠.

(٣) سورة يوسف، آية : ٦٥.

(٤) سورة الأعراف، آية : ٩٦.

ففتححه بحكمه الديني هو شرعه على السنة رسله جميع ما يحتاجه المكلفون ، ويستقيمون به على الصراط المستقيم . وأما فتحه بجزائه فهو فتحه بين أنبيائه ومخالفهم وبين أوليائه وأعدائه بإكرام الأنبياء وأتباعهم ونجاتهم ، وبإهانة أعدائهم وعقوباتهم . وكذلك فتحه يوم القيامة وحكمه بين الخلائق حين يوفي كل عامل ما عمله . وأما فتحه القدري فهو ما يقدره على عباده من خير وشر ونفع وضرر وعطاء ومنع ، قال تعالى : ﴿ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (١) .

فالرب تعالى هو الفتاح العليم الذي يفتح لعباده الطائعين خزائن جوده وكرمه ، ويفتح على أعدائه ضد ذلك ، وذلك بفضلله وعدله (٢) .

وقد ورد اسم الفتاح في القرآن الكريم مرة واحدة . قال تعالى : ﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبَّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴾ (٣) .

أما الحكم : فهو الذي يحكم بين عباده في الدنيا والآخرة بعدله وقسطه فلا يظلم مثقال ذرة ، ولا يحمل أحداً وزراً أحد ، ولا يجازي العبد بأكثر من ذنبه ويؤدي الحقوق إلى أهلها . فلا يدع صاحب حق إلا أوصل إليه حقه (٤) . فهو سبحانه الحكم بالعدل في وصفه وفي فعله وفي قوله وفي حكمه بالقسط ، وهذا معنى قوله : ﴿ إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (٥) .

ومادة حكم أصلها منع منعاً لإصلاح . والحكم بالشيء أن تقضي

(١) سورة فاطر / ٢ .

(٢) عبد الرحمن آل سعدي ، الحق الواضح المبين ، ص ٨٤ ، ص ٨٥ .

(٣) سورة سبا / ٢٦ .

(٤) عبد الرحمن السعدي ، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، ج ٥ ، ص ٦٢٧ .

(٥) سورة هود / ٥٦ .

بأن كذا أو ليس كذا سواء ألزمت ذلك غيرك أو لم تلزمه، قال تعالى ﴿وَإِذَا حُكِّمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ . والحكم أعم من الحكمة فكل حكمة حكم وليس كل حكم حكمة (١).

والله (عز وجل) هو الحكم الذي سلم له الحكم، ورد إليه فيه الأمر قال تعالى ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾ وقال تعالى: ﴿لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وقال سبحانه: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حُكْمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾ .

وهو سبحانه الحكم الحاكم الذي لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (٢).

وحكمه كله خير ورحمة وعدل وحكمة قال تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (٣).

وقد ورد اسم الحكم في حديث رسول الله (ﷺ) «إن الله هو الحكم وإليه الحكم» (٤).

أما اسم «الديان» فقد ورد في حديث رسول الله (ﷺ) «يحشر الناس يوم القيامة عراة. ثم يناديهم بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب أنا الملك أنا الديان» (٥).

والديان: القهار والحاكم القاضي، وهو فعال من دان الناس أي قهرهم على الطاعة يقال دنتهم فدانوا أي قهرتهم فأطاعوا والديان المقتص المجازي: «إن الله ليدين للجماة من ذات القرن» أي يقتص

(١) الراغب الأصفهاني، مرجع سابق، ص ١٢٦، ص ١٢٧.

(٢) سورة الرعد/ ٤١. (٣) سورة المائدة/ ٥٠.

(٤) رواه أبو داود ٢٨٩/٤ والنسائي ٢٢٦/٨ وإسناده جيد، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود برقم (٤١٤٥).

(٥) أخرجه أحمد والحاكم، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي وابن أبي عاصم في السنة، وصححه الألباني في تخريجه لكتاب السنة لابن أبي عاصم.

ويجزى والدين الجزاء . فالله عز وجل هو الديان الذي يجازي العباد بأعمالهم وينصف المظلوم من الظالم ويقضي بين الخلائق بالحق (١) .

والله (عز وجل) فتح على عباده بإرسال الرسل إليهم ، وتعريفهم شريعته لحاجة البشر الماسة إليها . فحاجة الناس إلى الشريعة ضرورية أكثر من حاجتهم إلى أي شيء آخر ، فهم في حاجة إليها أكثر من حاجتهم إلى الطعام والشراب والتنفس . فهذه إن عذمت كان من ورائها موت البدن . أما إذا فقدت الشريعة ففي فقدانها فساد الروح والقلب جملة ، وهلاك الأبد . أي شقاء الدارين الدنيا والآخرة .

ويتوالى الرسل يدعون أقوامهم إلى توحيد الله وعبادته وحده ، والكافرون يستعجلون العذاب ويطلبون الحكم : ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (٢) .

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا هُودًا قَالُوا يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ (٣) .

ويستعجل قومه الفتح والحكم بينهم وبينه :

﴿قَالُوا أَجِئْنَا لِنُعْبُدَ اللَّهَ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٤) . ويأتي الفتح والحكم من الله عز وجل :

﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَّعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (٥) .

(١) ابن الأثير ، (النهاية في غريب الحديث والأثر) ج٢ ، ص ١٤٩ .

(٢) سورة الأعراف / ٥٩ . (٣) سورة الأعراف / ٦٥ .

(٤) سورة الأعراف / ٧٠ . (٥) سورة الأعراف / ٧٢ .

﴿وَالِىَ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ﴾ (١). ويستعجل قومه العذاب فيأتي الحكم والفتح من الفتح الحكم:

﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ. فَأَخَذْتَهُمُ الرُّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ (٢).

﴿وَلَوْ طَأَّ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ. إِنْكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ. وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ. فَأَجْبَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ. وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ (٣).

﴿وَالِىَ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٤).

فجاء الرد منهم: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾ (٥).

فجاء الحكم والنهاية: ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الرُّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ (٦).

ويطلب الكافرون من الله (عز وجل) أن يفتح بينهم وبين المؤمنين في غزوة بدر. فقبيل المعركة دعوا الله (عز وجل) أن يجعل الدائرة على

(١) سورة الأعراف/ ٧٣. (٢) سورة الأعراف/ ٧٨.

(٣) سورة الأعراف/ ٨٠ : ٨٤. (٤) سورة الأعراف/ ٨٥.

(٥) سورة الأعراف/ ٨٨. (٦) سورة الأعراف/ ٩١.

أضل الفريقين فهم الذين طلبوا الفتح والفصل من الله فدارت الدائرة عليهم: قال تعالى: ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِي عَنْكُمْ فِتْنَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١).

قال ابن كثير (رحمه الله): يقول تعالى للكفار ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا﴾ أي تستنصروا وتستفتحوا الله وتستحكموه أن يفصل بينكم وبين أعدائكم المؤمنين فقد جاءكم ما سألتكم كما قال محمد بن إسحق عن الزهري وعن عبد الله بن ثعلبة أن أبا جهل قال يوم بدر: اللهم أينما كان أقطع للرحم وأتانا بما لا يعرف فأحنه الغداة. وكان إستفتاحاً منه فنزلت ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾ إلى آخر الآية:

وروى الإمام أحمد أيضاً من هذا الطريق أن أبا جهل قال حين التقى القوم اللهم اقطعنا للرحم وأتانا بما لا نعرف فأحنه الغداة فكان المستفتح، وأخرجه النسائي والحاكم في مستدركه، وقال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. وقال السدي: كان المشركون حين خرجوا من مكة إلى بدر أخذوا بأستار الكعبة فاستنصروا الله وقالوا: اللهم انصر أعلى الجندين وأكرم الفئتين وخير القبيلتين فقال الله ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾ يقول قد نصرت ما قلتكم وهو محمد ﷺ (٢).

فالكافرون عندما تضيق صدورهم بالحق يستعجلون النهاية وهذا من عمى بصيرتهم و حماقتهم:

﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ اثْنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٣). وهذا دعاء عنيد يعبر عن كفر جامع يؤثر

(١) سورة الأنفال/ ١٩.

(٢) إسماعيل بن كثير، مرجع سابق، ج٢، ص ٢٩٦.

(٣) سورة الأنفال/ ٣٢.

الهلاك على الإذعان للحق الواضح المبين! فهي نفوس فاسدة تؤثر الهلاك والعذاب. وبمثل هذا العناد كان الكافرون يواجهون دعوة الرسل ويستعجلون الفتح والحكم ولا يتعظ اللاحقون بالسابقين ويظنون هكذا - إلا من رحم الله - حتى يفتح الله (عز وجل) وتنتصر دعوة الحق ويحكم الله بين الموحدين والكافرين.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادُ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ ﴿١﴾ ثُمَّ يَسْفِرُ طَعْيَانَهُمْ عَنْ وَجْهِهِمْ مُسْتَعِينًا بِالْقُوَّةِ الْمَادِيَةِ الْغَلِيظَةِ ﴿٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴿٣﴾﴾. فالكفر لا يسالم الإيمان حتى ولو سالمه الإيمان فهو يستخدم كل سلاح غاشم للقضاء على الحق. حينئذ يفتح الله (عز وجل) بين الفريقين: ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ . وَلَنَسْكُنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدَ . وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ . مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ . يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿٣﴾﴾.

فبعد الفتح لا يكون إلا النصر للموحدين والخيبة والهلاك لكل جبار عنيد.

ثم يأتي الفتح الأكبر يوم القيامة حيث تجتمع الخلائق كلها في صعيد واحد فيحكم الله بينهم بالعدل فيجزي كل عامل بعمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر قال تعالى: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبَّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ

(١) سورة إبراهيم/ ٩.

(٢) سورة إبراهيم/ ١٣. (٣) سورة إبراهيم/ ١٣ : ١٧.

الْعَلِيمُ ﴿١﴾.

فا عز وجل هو الفتح العليم أي الحاكم العادل العالم بحقائق الأمور، الديان الذي يجازي كل فريق بعمله :

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفِقُونَ . فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ . وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴾ (٢).

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا . وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا . وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا . يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا . بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا . يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالُهُمْ . فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ (٣).

عن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال : قرأ رسول الله (ﷺ) : «يومئذ تحدث أخبارها . فقال : أتدرون ما أخبارها؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد أو أمة بما عمل على ظهرها ، أن تقول : عمل كذا وكذا ، يوم كذا وكذا . قال : فهذه أخبارها» (٤).

فالحكم الديان يجعل الأرض تشهد ، والألسنة ، والأرجل ، والجلود ، لتتم الحجة وينقطع العذر :

﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . يَوْمَئِذٍ يُوقِيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴾ (٥) . ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ . حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . وَقَالُوا لَاجُلُودِهِمْ لَمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقْنَا اللَّهَ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تَرْجَعُونَ . وَمَا كُنْتُمْ

(١) سورة سبأ (٢٦) . (٢) سورة الروم / ١٤ : ١٦ .

(٣) سورة الزلزلة . (٤) رواه أحمد والترمذي وصححه .

(٥) سورة النور / ٢٤ ، ٢٥ .

تَسْتَرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ . وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١﴾ .

وحتى يتحقق العدل الإلهي المطلق فالأعمال مدونة بدقة ،
والحساب دقيق :

﴿ وَوَضَعَ الْكِتَابَ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ (٢) .

﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ (٣) .

ثم تكون العاقبة والنهاية :

﴿ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . وَمَنْ خَفَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴾ (٤) .

وأمام الحكم الفتح الديان يخيب الظالم ، ولا يجد الظالمون حميماً
ولا شفيعاً :

﴿ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴾ (٥) .

﴿ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ (٦) .

فالحقوق تؤدي لأصحابها لأن الملك حكم عدل ليس عنده ظلم ولا
هضم :

(١) سورة فصلت / ١٩ ، ٢٣ . (٢) سورة الكهف / ٤٩ .

(٣) سورة الأنبياء / ٤٧ . (٤) سورة المؤمنون / ١٠٢ ، ١٠٣ .

(٥) سورة طه / ١١١ . (٦) سورة غافر / ١٨ .

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ (١).

وعن أبي هريرة (رضي الله عنه) أن رسول الله (ﷺ) قال: «لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء» (٢).

ولذلك أوصى رسول الله (ﷺ) بالتحلل من الحقوق، وردها لأصحابها قبل يوم القيامة، عن أبي هريرة (رضي الله عنه) عن النبي (ﷺ) قال: «من كانت عنده مظلمة لأخيه من عرضه أو من شيء، فليتحلله من اليوم قبل أن لا يكون دينار ولا درهم: إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه» (٣).

وعن أبي هريرة (رضي الله عنه)، أن رسول الله (ﷺ) قال «أتدرون ما المفلس» قالوا: المفلس فيما من لا درهم له ولا متاع فقال: «إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطي هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فئت حسناته قبل أن يقضي ما عليه، أخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح في النار» (٤).

ومن فتح الله (عز وجل) ما يقدره لعباده من خير وشر ونفع وضر.
قال تعالى: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٥).

(١) سورة طه/ ١١٢.

(٢) رواه مسلم، وقال السيوطي: رواه أحمد والبخاري في الأدب المفرد والترمذي.

(٣) رواه البخاري وقال الحافظ بن حجر: وهذا الحديث قد أخرجه مسلم معناه من وجه آخر، وهو أوضح سياقاً من هذا.

(٤) سورة فاطر/ ٢.

(٥) رواه مسلم (٢٥٨١).

فالله عز وجل هو الفتح الذي يفتح أبواب الرحمة لعباده، وهذه الرحمة لا يحصيها العد، ويعجز الإنسان عن تسجيلها وعدّها، فهي في ذاته وفي تكوينه، وفي كل شيء من حوله سخره الله له. ولا تتمثل رحمة الله (عز وجل) في العطاء فقط بل قد يكون في المنع عين العطاء والرحمة وإذا صاحبت رحمة الله (عز وجل) المحنة صارت نعمةً وفيضاً ومنحةً أما إذا تخلت رحمة الله عن النعمة فإنها تصير محنةً وبلاءً وشقاءً.

يقول سيد قطب (رحمه الله): «وما من نعمة - يمسك الله معها رحمته - حتى تنقلب هي بذاتها نقمة، وما من محنة - تحفها رحمة الله - حتى تكون هي بذاتها نعمة ينال الإنسان على الشوك - مع رحمة الله - فإذا هو مهّاد. وينال على الحرير - وقد أمسكت عنه - فإذا هو شوك القتاد. ويعالج أعسر الأمور - برحمة الله - فإذا هي هواة ويسر، ويعالج أيسر الأمور - وقد تخلت عنه رحمة الله - فإذا هي مشقة وعسر ويخوض بها المخاوف والأخطار فإذا هي أمن وسلام، ويعبر بدونها المناهج والمسالك فإذا هي مهلكة وبوار»^(١).

فرحمة الله (عز وجل) هي الخير كلّ، وهي الفيض كلّ، وهي الطمأنينة والسعادة والراحة والهناء. لا يضر معها الضيق ولا الشدة ولا العناء. فقد وجدها إبراهيم - عليه السلام - في النار، ووجدها يوسف - عليه السلام - في الجب، كما وجدها في السجن ووجدها يونس - عليه السلام - في بطن الحوت، ووجدها موسى - عليه السلام - في اليم وهو

(١) سيد قطب، مرجع سابق، ج ٥، ص ٢٩٢٢.

في المهد كما وجدها في قصر فرعون وهو عدو له متربص به يبحث عنه، ووجدها أصحاب الكهف في الكهف حين افتقدوها في القصور والدور ﴿ فَأَوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ ﴾ ووجدها رسول الله (ﷺ) وصاحبه في الغار والكافرون عند بابه يتعقبون الآثار... ووجدها كل من آوى إلى الله (عز وجل) دون سواه قاصداً بابه دون كل الأبواب (١).

فسبحان من يفتح أبواب رحمته فتغمر الوجود، وتفيض على كل موجود!

وهناك وعد من الفتح (سبحانه وتعالى) بفتح بركات السماء والأرض للمؤمنين المتقين. فإذا تحقق الإيمان والتقوى فتحت البركات وصارت الحياة كلها أمن ورخاء ورفعة وثناء.

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (٢).

وهناك فتح من نوع آخر، إنه فتح استدارج للكافرين والمجرمين. لقد أرسل الله (عز وجل) إليهم رسله لدعوتهم وتوبيخهم، فأخذهم بالبأساء والضراء، بالشدة والعناء لعلهم يتوجهون إلى الله (عز وجل) ويتضرعون.

ولكن هذه الشدة لم تردهم إلا عناداً واستكباراً ففتح الله عليهم

(١) المرجع السابق، ص ٢٩٢٣.

(٢) سورة الأعراف/ ٩٦.

أبواب الرخاء، وغمرهم بالخيرات والأرزاق، بلا كد ولا عناء. وفي غمرة فرحهم واستبشارهم بهذا السيل المتدفق من الخير. أخذهم على غرة، وكان الاستئصال بعد الاستدراج، وتلك سنة ماضية لا تتبدل ولا تتغير ولا تتخلف.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ . فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِم أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ . فَقَطَّعَ دَابِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١).

فالحمد لله رب العالمين على هدايته للمؤمنين، واستئصاله للظالمين المشركين فنعمة تطهير الأرض من الكافرين والجاحدين نعمة كبرى ورحمة لا تعدلها رحمة، رحمة بكل المخلوقات التي تسبح الله (عز وجل)، وتوحده.

﴿وَأَن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ (٢).

ورحمة بالمؤمنين خاصة فطالما تطاول عليهم المشركون وساموهم سوء العذاب.

وشريعة الحكم الفتاح أتم الشرائع وأكملها، وحكمه أحسن الأحكام وأعدلها. فهي شريعة بلغت الغاية القصوى في درجات الحسن والكمال وكلها رحمة وعدل وإحسان.

(٢) سورة الإسراء/ ٤٤.

(١) سورة الأنعام/ ٤٢ : ٤٥.

قال ابن القيم (رحمه الله): «وإذا تأملت الشريعة التي بعث الله بها رسوله حق التأمل وجدتها من أولها إلى آخرها شاهدة بذلك^(١) ناطقة به، ووجدت الحكمة والمصلحة والعدل والرحمة بادياً على صفحاتها منادياً عليها، يدعو العقول والألباب إليها، وذلك لأن الذي شرعها علم ما في خلافها من المفسد والقبيح، والظلم والسفة، الذي يتعالى عن إرادته وشرعه، وأنه لا يصلح العباد إلا عليها، ولا سعادة لهم بدونها ألبتة. وجميع مسائل الشريعة آيات بينات، ودلالات واضحة، وشواهد ناطقات بأن الذي شرعها له الحكمة البالغة، والعلم المحيط، والرحمة والعناية بعباده، وإرادة الصلاح لهم، وسوقهم بها إلى كمالهم وعواقبهم الحميدة»^(٢).

فترك شريعة الحكم (سبحانه) والاحتكام إلى شرائع البشر إنما هو إنحراف عن منهج الإسلام وانزلاق إلى هاوية الجاهلية. فالؤمنون هم الذين يحكمون بما أنزل الله لا يخرمون منه حرفاً واحداً ولا يبدلون منه شيئاً. والكافرون الظالمون الفاسقون هم الذين لا يحكمون بما أنزل الله ويحتكمون إلى شرائع جاهلية من وضع البشر لا تقارن بحكم الله (عز وجل) وشريعته التي جاءت وكلها رحمة وعدل وإحسان.

﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾^(٣).

يقول سيد قطب - رحمه الله - تعقيباً على هذه الآية: «ومن الذي يجرؤ على ادعاء أنه يشرع للناس، ويحكم فيهم، خيراً مما يشرع الله لهم ويحكم فيهم؟ وأية حجة يملك أن يسوقها بين يدي هذا الإدعاء

(١) أي بالحكمة والمصلحة والعدل والرحمة.

(٢) ابن القيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ص ٤٠٩، ٤١٠.

(٣) سورة المائدة/ ٥٠.

العريض؟ أيستطيع أن يقول: إنه أعلم بالناس من خالق الناس؟ أيستطيع أن يقول: إنه أرحم بالناس من رب الناس؟ أيستطيع أن يقول: إنه أعرف بمصالح الناس من إله الناس؟ أيستطيع أن يقول: إن الله - سبحانه - وهو يشرع شريعته الأخيرة، ويرسل رسوله الأخير، ويجعله خاتم النبيين، ويجعل رسالته خاتمة الرسالات، ويجعل شريعته شريعة الأبد... كان - سبحانه - يجهل أن أحوالاً ستطرأ، وأن حاجات ستتجدد، وأن ملابسات ستقع، فلم يحسب حسابها في شريعته لأنها كانت خافية عليه، حتى انكشفت للناس في آخر الزمان؟! ما الذي يستطيع أن يقوله من ينحي شريعة الله عن حكم الحياة، ويستبدل بها شريعة الجاهلية، وحكم الجاهلية، ويجعل هواه هو أو هوئى شعب من الشعوب، أو هوئى جيل من أجيال البشر فوق حكم الله، وفوق شريعة الله؟

ما الذي يستطيع أن يقوله... وبخاصة إذا كان يدعي أنه من المسلمين؟! الظروف؟ الملابس؟ عدم رغبة الناس؟ الخوف من الأعداء؟ قصور شريعة الله عن استيعاب الحاجات الطارئة، والأوضاع المتجددة، والأحوال المتقلبة؟ ألم يكن هذا كله في علم الله وهو يأمر المسلمين أن يقيموا بينهم شريعته، وأن يسيروا على منهجه، وألا يفتنوا عن بعض ما أنزله؟ يستطيع غير المسلم أن يقول ما يشاء... ولكن المسلم أو من يدعون الإسلام ما الذي يقولونه من هذا كله، ثم يقولون على شيء من الإسلام، أو يبقى لهم شيء من الإسلام؟^(١).

ثم ماذا يقول هؤلاء عندما يعترف بفضل الشريعة الإسلامية غير المسلمين؟^(٢).

(١) سيد قطب، مرجع سابق، ص ٩٠٥.

(٢) زكريا هاشم إبراهيم، آراء فلاسفة وعابرة الغرب في الإسلام، ص ٣٢، ص ٣٤.

يقول «إدوار لمبير» الذي كان ناظراً لمدرسة الحقوق الخديوية في القاهرة (١٩٠٦): «إن في الشريعة الإسلامية كنزاً لا يفنى ومنبعاً لا ينضب، وأنه خير ما يلجأ إليه المصريون في العصر الحاضر في البحوث العلمية حتى يعيدوا مصر وبلاد العرب هذا المجد العلمي».

ويقول «استيلانا» في بعض مؤلفاته: «إن في الفقه الإسلامي ما يكفي المسلمين في تشريعهم المدني إن لم نقل فيه ما يكفي الإنسانية كلها»:

ويقول «هولكم» أستاذ الفلسفة بجامعة هارفارد: «الشريعة الإسلامية تحتوي على جميع المبادئ اللازمة للنهوض».

ويقول «جيبستون» من أكبر علماء التاريخ في العصر الحديث: «وجاءت الشريعة الإسلامية عامة في أحكامها يخضع لها أعظم ملك وأقل صعلوك، فهي شريعة حيكت بأحكم منوال شرعي، وليس لها مثيل في العالم» أليس في شهادة كل هؤلاء وغيرهم ما يدل على فضل الشريعة الإسلامية وعظمتها؟!

فتحكيم شريعة الله (عز وجل) شرط في ثبوت عقد الإسلام، ولا يتحقق أصل الرضا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد (ﷺ) نبياً ورسولاً إلا بالانقياد لشريعة الله والإقرار بجميع ما أنزل تصديقاً وانقياداً. وقد انعقد على ذلك إجماع المسلمين جيلاً بعد جيل:

يقول الحافظ ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر﴾.

«هذا أمر من الله (عز وجل) بأن كل شيء تنازع فيه الناس من أصول الدين وفروعه أن يرد التنازع في ذلك إلى الكتاب والسنة كما قال تعالى: ﴿وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله﴾ فما حكم به الكتاب

والسنة وشهدا له بالصحة فهو الحق ، وماذا بعد الحق إلا الضلال ، ولهذا قال ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ فدلّ على أن من لم يتحاكم في محل النزاع إلى الكتاب والسنة ولا يرجع إليهما في ذلك فليس مؤمناً بالله ولا باليوم الآخر^(١) .

ويقول في البداية والنهاية : «فمن ترك الشرع المحكم المنزل على محمد بن عبد الله خاتم الأنبياء وتحاكم إلى غيره من الشرائع المنسوخة كفر ، فكيف بمن تحاكم إلى الياسق^(٢) وقدمها عليه؟ من فعل ذلك فقد كفر بإجماع المسلمين^(٣) .

ويقول أبو بكر الجصاص في أحكام القرآن في تفسير قوله تعالى : ﴿فَلَا وَرَيْكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يَحْكُمَوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيَسْلَمُوا تَسْلِيمًا﴾ وفي هذه الآية دلالة على أن من رد شيئاً من أوامر الله تعالى أو أوامر رسوله (ﷺ) فهو خارج عن الإسلام ، سواء رده من جهة الشك فيه أو من جهة ترك القبول والامتناع عن التسليم وذلك يوجب صحة ما ذهب إليه الصحابة في حكمهم بارتداد من امتنع عن أداء الزكاة وقتلهم وسبي ذراريهم لأن الله تعالى حكم بأن من لم يسلم للنبي قضاءه وحكمه فليس من أهل الإيمان^(٤) .

ويقول ابن القيم (رحمه الله) : «والصحيح أن الحكم بغير ما أنزل

(١) إسماعيل بن كثير ، مرجع سابق ، ج ٢ ، ص ٦٧ .

(٢) الياسق : كتاب يحوي مجموعة من الأحكام جمعه حنكيز خان للتتار من شرائع شتى من اليهودية والنصرانية والإسلامية وغيرها .

(٣) إسماعيل بن كثير ، البداية والنهاية ، ج ٣ ، ص ١١٩ .

(٤) أبو بكر الجصاص ، أحكام القرآن ، ج ٣ ، ص ١٨١ .

الله يتناول الكافرين ، الأصغر والأكبر بحسب حال الحاكم فإنه إن اعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله في هذه الواقعة وعدل عنه عصياناً ، مع اعترافه بأنه مستحق للعقوبة ، فهذا كفر أصغر وإن اعتقد أنه غير واجب ، وأنه مخير فيه مع تيقنه أنه حكم الله فهذا كفر أكبر وإن جهله وأخطأه فهذا مخطيء له حكم المخطئين» (١) .

ويقول الشيخ محمد حامد الفقي «من اتخذ من كلام الفرنجة قوانين يتحاكم إليها في الدماء والفروج والأموال ، ويقدمها على ما علم وتبين له من كتاب الله وسنة رسوله (ﷺ) فهو بلا شك كافر مرتد إذا أصر عليها ولم يرجع إلى الحكم بما أنزل الله . ولا ينفعه بأي اسم تسمى به ولا أي عمل من ظواهر أعمال الصلاة والصيام والحج ونحوها» (٢) .

ويقول الشيخ يوسف القرضاوي : «إن العلماني الذي يرفض مبدأ تحكيم الشريعة من الأساس ، ليس له من الإسلام إلا اسمه ، وهو مرتد عن الإسلام بيقين ، يجب أن يستتاب وتزاح عنه الشبهة ، وتقام عليه الحجة ، وإلا حكم القضاء عليه بالردة ، وجرد من انتمائه للإسلام» (٣) .

﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ (٤) .

«اللهم اجعلنا من المتقين الذين تفتح لهم بركات من السماء والأرض يارب العالمين» «اللهم افتح لي أبواب رحمتك» «اللهم إني أسألك فواتح الخير، وخواتمه وجوامعه، وأوله، وآخره، وظاهره وباطنه، والدرجات العلى من الجنة آمين» (٥) .

(١) ابن القيم الجوزية ، مدارج السالكين ، ج١ ، ص ٣٦٥ .

(٢) راجع تعليقه على هامش فتح المجيد ، ص ٤٠٦ .

(٣) يوسف القرضاوي ، الإسلام والعلمانية وجهاً لوجه ، ص ٧٣ ، ص ٧٤ .

(٤) سورة الأعراف / ٨٩ .

(٥) من حديث أخرجه الحاكم عن أم سلمة مرفوعاً ، ووافقه الذهبي ١ / ٥٢٠ .

«اللهم إني عبدك، ابن عبدك، ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيَّ حكمك، عدلٌ فيَّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي»^(١).

* * *

(١) رواه أحمد ١/ ٣٩١، وصححه الألباني انظر تخريج الكلم الطيب ص ٧٣.

المخالق الخلاق البارئ المصور

٤٦ ٤٧ ٤٨ ٤٩

المخالق: اسم الفاعل من خلق يخلق وهو الخلاق، والخلاق: فعال للمبالغة، والخلق الفعل. وأفعال الله (عزّ وجلّ) مقدره علي مقدار ما قدرها عليه، وأصله من قول العرب: خلق فلان الأديم إذا قدره للقطع للإصلاح^(١).

أو هو الذي أوجد الأشياء جميعها بعد أن لم تكن موجودة، وأصل الخلق التقدير فالخالق (سبحانه) هو الذي قدر الأشياء، ثم أوجدها وفق هذا التقدير. ولذلك قيل: إنّ الخالق (سبحانه) قدر الأشياء وهي في طوايا العدم، وكمّلها بمحض الجود والكرم، وأظهرها وفق إرادته ومشيئته وحكمته.

والخلق في كلام العرب ابتداع الشيء على مثال لم يسبق إليه، وكل شيء خلقه الله فهو مبتدئه على غير مثال سبق إليه، قال تعالى: ﴿ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ﴾^(٢). وقد يقصد بالخلق التقدير، كما في قوله تعالى: ﴿ فَبَارِكْ اللَّهُ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴾^(٣).

لأن الآية تقتضي كثرة الخالقين، وثبت بالدلائل العقلية والسمعية أن لا موجد إلا الله تعالى، فوجب حمل الخلق في هذه الآية على التقدير وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾^(٤).

(١) الزجاجي، مرجع سابق، ص ١٦٦. (٢) سورة لقمان آية: ١١.

(٣) سورة المؤمنون آية: ١٤. (٤) سورة آل عمران آية: ٥٩.

ومعلوم أن المراد من قوله كن فيكون: الإيجاد والابداع، وقوله «خلق من تراب» مقدم عليه، والشيء المقدم على الإيجاد ليس إلا التقدير، فثبت أن المراد بقوله «خلق من تراب» هو أنه قدره منه.

وقوله لعيسى (عليه السلام)، وإذ تخلق من الطين...^(١)، المراد التصوير والتقدير.

قال الراغب الأصفهاني: الخلق أصله التقدير المستقيم ويستعمل في إبداع الشيء من غير أصل ولا احتذاء قال: «خلق السموات والأرض» ويستعمل في إيجاد الشيء من الشيء نحو: «خلقكم من نفس واحدة». خلق الإنسان من نطفة... وليس الخلق الذي هو الإبداع إلا لله تعالى ولهذا قال في الفصل بينه تعالى وبين غيره: (أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون) أما الذي يكون بالاستحالة فقد جعله الله تعالى لغيره في بعض الأحوال كعيسى حيث قال: «إذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني»^(٢).

والخلق صيغة مبالغة أي تكثير. والله عز وجل خلاق: أي كثير الخلق. قال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾^(٣).

أما الباري فقليل في تفسيره: إنه هو الموجد والمبدع يقال: برأ الله الخلق يبرؤهم أوجدهم.

وعلى هذا يكون الخالق هو المقدر للأشياء، والبارئ هو الموجد والمخترع لها طبقاً لهذا التقدير.

(١) سورة المائدة: ١١٠.

(٢) الراغب الأصفهاني، مرجع سابق، ص ١٥٧.

(٣) سورة يس آية: ٨١.

وقد نقل الحافظ بن حجر العسقلاني في كتابه «فتح الباري» عن الطيبي تفرقة بين هذه الأسماء الثلاثة: الخالق، الباري، المصور فذكر: أن الخالق «من الخلق، وأصله التقدير المستقيم، ويطلق على الإبداع وهو إيجاد الشيء على غير مثال كقوله تعالى: ﴿خلق الإنسان من نطفه﴾ «والباريء» من البرء، وأصله خلوص الشيء عن غيره إما على سبيل التقصي منه، وإما على سبيل الإنشاء، فالأول مثل قولهم: برأ فلان من مرضه، والمديون من دينه، ومنه استبرأت الجارية.

والثاني مثل قولهم: برأ الله النسمة. . . وقيل الباريء الخالق خلقاً بريئاً من التفاوت والتنافر المخلين بالنظام أي أنه يخلق خلقاً محكماً منتظماً لا خلل فيه ولا تنافر ولا تفاوت.

«والمصور» مبدع صور المخترعات، ومرتبها بحسب مقتضى الحكمه: فالله (عز وجل) خالق كل شيء بمعنى أنه موجد ومقدره من أصل ومن غير أصل، وبارئه أي مخرجه ومنفذه بحسب ما اقتضت الحكمه من غير تفاوت ولا اختلال، ومصوره في صورة يترتب عليها خواصه، ويتم بها كماله. وعلى هذا فالتقدير يقع أولاً، ثم الإحداث على الوجه المقدر ثانياً، ثم التصوير بالتسوية ثالثاً: قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ. الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ. فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ (١).

والخلاصة: الخلق هو التصميم والتقدير على مثال وعلى غير مثال. ولا يخلق على غير مثال إلا الله سبحانه وتعالى.
والبرء: التنفيذ والإخراج بدقه وحكمه وإتقان.

(١) سورة الإنفطار آية (٦-٨)، انظر فتح الباري، ص ٣٩١.

والتصوير: إعطاء الملامح والسمات التي تميز كل مخلوق عن غيره .

والمثال الذي يوضح ذلك - والله المثل الأعلى - عندما يريد الإنسان أن يبني بناءً فإنه يبحث أولاً عن مهندس يصمم له البناء ثم من يقدّر ما يحتاجه هذا البناء من أسمنت وحديد وخشب وكذا وكذا . ثم من ينفذ هذا البناء وفق التصميم ، وبالمقادير المعينة ، ثم أخيراً من يزين هذا البناء ويعطيه ملامحه النهائية فيتميز بها عن غيره من الأبنية .

وإذا كان هذا البناء يحتاج إلى عدة أشخاص لإخراجه إلى الوجود ، والفراغ منه ، فالله عز وجل ليس كذلك ؛ لأنه وحده سبحانه هو الخالق البارئ المصور ليس له شريك ولا معين ، كما أنه سبحانه يخلق على غير مثال . أما في البناء السابق ، فقد كان على مثال رآه المهندس فصمم مثله أو شبهه ، أو صمم من عدة أمثله . والبناء السابق لم يخلق من عدم ، وإنما تحول موجود إلى موجود آخر تحول الإسمنت والحديد والخشب . . . إلخ إلى بناء متكامل ، أما الخالق سبحانه وتعالى فيخلق من موجود ومن لا موجود أي من عدم .

قال الشاعر :

خلق الأشياء بقدرته وبنور الحكمة صورها
وبراها وفق مشيئة وبغير مثال قدرها

وقال :

يا خالق النطفة الأولى وبارئها بلا مثال: تعالى الخالق البارئ
مصور كل شيء وفق حكمته فإلاء والطين غير النور والنار

وجاء في القرآن الكريم «بديع السموات والأرض» فما معنى البديع؟

البديع هو: المبدع من أبدع الشيء اختراعه على غير مثال سابق .
والله (عز وجل) مبدع الأشياء على غير مثال تقدم .

فالإبداع في حق الله تعالى هو إيجاد الشيء بغير آله ولا مادة، ولا زمان، ولا مكان . وليس ذلك إلا لله تعالى .

فالبديع (سبحانه) هو الخالق خلقاً في غاية الحسن والإحكام بلا إله ولا مادة ولا زمان ولا مكان^(١)، وعلى غير مثال .

قال تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾^(٢) .

وقيل: البديع هو الذي لا نظير له في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، ولا في مصنوعاته، فهو الذي أظهر عجائب صنعه، وأبدع غرائب حكمه، وهو الذي خلق الأكوان على غير مثال سابق .

قال الشاعر:

يا خالق الأرض بدعاً والسموات	لا شيء مثلك في وصف ولا ذات
وليس بعدك شيء في النهايات	وليس قبلك شيء، كي نسميه
بلا مثال شبيه في البدايات	والكون مبتدع، إذا أنت موجد
على الحقيقة في ماض وفي آت	بقدره ما لها حـدد، تنظمه

وقد ورد اسم الخلاق مرتين في القرآن الكريم، أما اسم الخالق فقد ورد كثيراً في القرآن الكريم .

(٢) سورة البقرة آية: ١١٧ .

(١) الأصفهاني، مرجع سابق، ص ٣٨ .

قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ (١).

﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ (٢).

﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ (٣).

﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ (٤).

وقد ذكر اسم الباري في القرآن الكريم ثلاث مرات ، في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (٥).

وقوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ (٦).

أما المصور فقد ورد مرة واحدة في الآية السابقة .

ووردت مادة (صور) كثيراً في القرآن الكريم ، كقوله تعالى: ﴿وَصُورَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ (٧). وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ (٨).

وأثار هذه الأسماء في الحياة لا تعد ولا تحصى فكل الموجودات المشاهدة وغير المشاهدة إنما هي من خلقه سبحانه وتصويره وإبداعه .

قال تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصَرُونَ . وَمَا لَا تُبْصَرُونَ﴾ (٩).

(١) سورة الحجر آية : ٨٦ . (٢) سورة يس آية : ٨١ .

(٣) سورة الزمر آية : ٦٢ . (٤) سورة الحشر آية : ٢٤ .

(٥) سورة البقرة آية : ٥٤ . (٦) سورة الحشر آية : ٢٤ .

(٧) سورة غافر آية ٦٤ . (٨) سورة الأعراف آية : ١١ .

(٩) سورة الحاقة آية : (٣٨-٣٩).

فالسّموات والأرض أثر من آثار هذه الأسماء في خلقها وفي دقة تصميمها وإبداعها .

قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ . . ﴾ (١) .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ ﴾ (٢) .

وتتجلى في هذا الخلق الدقة والنظام :

﴿ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَافُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ﴾ (٣) .

﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴾ (٤) .

وإذا تأملنا المخلوقات من حولنا نجد أن الخالق (سبحانه وتعالى) قد خلق النبات قبل أن يخلق الحيوان ؛ لأن الحيوان يعتمد على النبات في غذائه ، قال تعالى : ﴿ وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا . أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴾ (٥) .

ويشغل الحيوان مساحات شاسعة في الأرض فهو يعيش على الشرى وتحت ، وتحت الماء في قاع المحيطات والبحار .

والنوع الإنساني واحد يتكون من ذكر وأنثى ، أما الحيوان فأنواعه تبلغ الملايين .

وأحجام الجنس البشري لا تتفاوت كثيراً ، أما في النبات والحيوان فتتفاوت الأحجام ما بين خلية واحدة إلى شجرة باسقه ، وحيوت ضخمة ، وديناصور عملاق .

(١) سورة الأنعام آية : ٧٣ .

(٢) سورة الشورى آية : ٢٩ .

(٣) سورة الملك آية : ٣ .

(٤) سورة السجدة آية : ٧ .

(٥) سورة النازعات آية (٣٠-٣١) .

فهناك حيوان يتكون من خلية واحدة مثل الأميبا، وهذه الخلية الواحدة لها حياتها العجيبة التي تُظهر إعجاز الخلق وإبداع الخالق، فهذه الخلية الواحدة ليس لها فم لالتهام الطعام وليس لها معدة لهضمه، ومع ذلك فهي تأكل وتهضم فكيف؟!

جعل الخالق (سبحانه) لهذه الخلية قدرة على التهام الطعام بأي جزء من جسدها، أما حبيبات الطعام التي لا يمكن هضمها فإن جسدها يلفظها! .

وتتنفس الأميبا على الرغم من أن جسدها ليس فيه أجهزة تنفس ظاهرة، فليس لديها رئات ولا خياشيم. . ومع ذلك فهي تولج إلى جسدها خلال أي جزء من سطحها أو كسجيناً من الهواء المختلط بالماء وتخرج حمض الكربونيك.

وتحس الأميبا وتشعر، وإذا صادفت في تجوالها حبة رمل غير صالحة للطعام، فإنها ترتد ببطء وتنساب بحيث تترك حبة الرمل جانباً! فسبحان الخالق البديع!

والإنسان مهما ارتقى فلن يستطيع أن يخلق كائناً حياً كالأميبا والذبابة مثلاً، وقد تحدى الخالق (سبحانه) كل مخلوقاته بذلك: قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضَرْبٌ مِّثْلُ فَاستَمْعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَا يَسْتَفِيدُوا مِنْهُ ضَعْفَ الطَّالِبِ وَالْمُطْلُوبِ . مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (١).

فالإنسان مهما صنع من آلات، وأبدع من منجزات لا يستطيع أن يدنو بصنعيته من صنعه خالقه؛ لأنه هو نفسه من صنع خالقه.

فصنعه المخلوق عندما ينفذ وقودها (غذاؤها) يسعى صاحبها ليمدها بالوقود. أما صنعة الخالق (سبحانه) فتسعى بنفسها للحصول على غذائها، فالنبات يشق الصخر باحثاً عن الماء والغذاء، والحيوان والإنسان يقطعان الأميال للحصول على الماء والطعام..

وإذا ما عطبت صنعة الإنسان أسرع إلى إصلاحها أما صنعة الخالق فلو حدث فيها عطب أو خلل فإنه يصلح نفسه بنفسه، فمثلاً عندما يصاب الإنسان أو الحيوان بجرح في جسده فإن الإنسان يطهر مكان الجرح فقط خشيه تسممه، ثم نراه بعد فترة وقد التئم، وبنى الجسم أنسجة جديدة عوضاً عن المفقودة.

وصنعه المخلوق لا تنتج مثلها، فلم نسمع مرة أن إنساناً آلياً أنتج إنساناً آلياً آخر، أو أن حاسوباً ولد حاسوباً صغيراً.

أما صنعه الخالق (سبحانه) فتنتج مثلها، فعند تلقيح النباتات أو التقاء الذكر والأنثى في عالمي الإنسان والحيوان نجد أن هذه الأنواع تنتج مثلها بمشيئة الله تعالى.

فالإنسان أو الحيوان أو النبات قد نشأ في البداية من خلية واحدة ملقحة، والتلقيح والإخصاب يعنى خلط الأشرطة الوراثية بين خليتين جنسيتين للذكر والأنثى.

ويبلغ وزن الخلية الملقحة التي خلق منها الإنسان واحد علي مليار من الجرام، والعجيب أن أصل الضفدعة أي البويضة التي نشأت منها أكبر من الخلية التي نشأ منها الإنسان بمائة مليون مرة!

ومن إبداع الخالق (سبحانه) أن جعل خلق الإنسان من الزوجين (الذكر والأنثى) من التقاء حيوان منوي الأب مع بويضة الأم، ليجمع الولد أفضل الصفات الموجودة في هذين الزوجين

ويبدأ تكوين الجنين بالتقاء الزوجين، فتقطع الخلية القادمة من الأب (الحيوان المنوي) مسافة تبلغ (مائة ألف طولها) وهذا مثل أن يقطع إنسان طوله (١٥٠ سم) مسافة (١٥٠ كيلوا متر عدواً دون توقف!).

والطريق الذي يسلكه الحيوان المنوي ليس سهلاً ميسوراً بل معقداً، فهو يتألف من قنوات عديدة يلتف بعضها حول بعض، والحيوان المنوي يخترق هذه التعاريج، ويعدو عدواً للالتقاء مع خلية الأم (البويضة). ولا يفضل طريقه، لأن هناك توجيهاً إلهياً ولولا هذا التوجيه الإلهي ما استطاعت خلية حيه الخروج من جسد والدخول في جسد آخر لتلتقي مع خلية أخرى!

والخلية القادمة من الأب تحمل نصف بطاقة فيها نصف العمليات الوراثية، وتحمل خلية الأم النصف الثاني الآخر فإذا كانت خلية الأب تحمل وراثته القلب والكبد نجد خلية الأم لا تحمل هذه المورثات فالخليتان تكمل إحداهما الأخرى.

فمن الذي يجعل هذا اللقاء بين متكاملين وليس بين مكررين؟! إنه توجيه الخالق (سبحانه) فكان الحيوانات المنوية وهي داخله ترفع كروتاً مكتوباً عليها إن في من المورثات كذا وكذا فلا تلتقى البويضة إلا مع من يكملها.

وفي الجاسوسيه، وفي التخطيط العقلي للإنسان، عندما يودع إنسان إنساناً آخر أمانة، يقول له احتفظ بهذه الأمانة، وخذ نصف هذه الورقة ولا تعط الأمانة إلا لمن يأتيك بالنصف الآخر من الورقة ويذهب إليه رجل بالنصف الآخر من الورقة فإذا وجده يكمل النصف الأول أعطاه الأمانة. فكذلك البويضة لا تلتقى إلا مع الحيوان المنوي الذي يكملها^(١).

(١) خلق نور باقي، الإنسان ومعجزة الحياة، ترجمة أورخان محمد علي، ص ٤٩:

ثم تبدأ الخلايا في الانقسام، وبشكل دقيق رائع، وفي ترتيب هندسى بديع، وتعرف الخلية مكانها بدقه، وموضعها في الجسد، بالتحديد فالمعدة تتشكل مع عضلاتها، وغشائها المخاطى، والعين تتشكل مع رموشها وحاجبها وأنسجتها الداخليه، فلا تجد مثلاً عيناً خرجت في المعدة، ولا قلباً تكون في الرأس ولا أذناً نبتت في الذراع!

فمن الذي خلق وأبدع؟

وعندما ينظر الإنسان في فيه يجد ثلاثة أنواع من الأسنان: القواطع والأنياب والأضراس. والأخيره علي نوعين: أضراس أماميه، وأخري خلفيه. ولكل قاطع وناب جذر واحد، أما الضرس الامامى فله جذران، وللضرس الخلفي ثلاثة جذور. وهناك ملائمة بين التركيب الخارجى لهذه الأسنان وتأديتها لوظيفتها.

فتنتهي القواطع بحد شبيه بحد السكين ليسهل عملها في تقطيع الأغذية كالحبز والخضار، أما الأنياب فتنتهي علي شكل إزميل لأن عملها يقتضى ذلك وهو تمزيق اللحوم، أما الأضراس الامامية والخلفية فتنتهي بسطوح ذات نتوءات لأن عملها طحن الطعام وتعدد جذور الأضراس يعطيها ثباتاً في تأديه وظيفتها.

ولو تأمل الإنسان في عظامه لوجد إعجازاً ليس له حد، فقد خلقها الخالق (سبحانه) لكن تعطى جسم الإنسان شكله وقوامه، فهى تشبه الأعمدة التي يقوم عليها البناء. ولولا تلك العظام لأصبح الإنسان قطعة من اللحم المتراكم! وفصل الخالق سبحانه وتعالى هذه العظام تفصيلاً، ولو لم تكن كذلك لما تمكن الإنسان أن يقوم من مكانه، ولعجز عن تحريك إصبع من أصابعه، ولأصبح كقطعة من حديد. لكن الخالق (سبحانه) فصل هذه العظام بمفاصل قد أعدت بإبداع وإتقان:

«فكل عظمة تنتهي بنهاية تناسب، وتوافق تركيب العظمه المتصله

بها.

* وشكل الخالق (سبحانه) المفاصل تشكيلاً يلائم الحركة المطلوبه فمفصل الورك مفصل دائري ليتمكن الفخذ من الحركة في عدة اتجاهات أما مفصل الركبة فقد شكل بحيث يسمح للساق بالحركة في اتجاهين فقط إلى الأمام وإلى الخلف .

* وإذا تأملت مفاصل العظم وجدتها ملساء بخلاف سائر العظام الخشنة ، وذلك لتسهيل الحركة على المفصل ، ومنع احتكاك العظم وتآكله .

* وهناك سائل لزج يقوم بتسهيل حركة العظام في المفاصل ، وهو يقوم مقام الشحم في مفاصل الآلات المعدنية ، وإذا كان الشحم لا يمنع نهائياً تآكل المعادن واحتكاكها ، فإن هذا السائل يمنع أى احتكاك أو تآكل في العظام المتحركة !

والقوة المحركة لهذه العظام هى العضلات اللحمية المربوطة بالعظام والكاسية لها . وكل عظم قد زوده خالقه بما يناسبه من العضلات اللحمية .

يقول الدكتور «إكرس» وهو خبير فني في جامعة رايس ، وقد تعاون مع جراحين آخرين في صنع قلب اصطناعي : إن جسمنا هو الكمال ذاته ، وهو غاية ما تصل إليه التقنيه ، ومهما يكن نوع الآله التي يمكن أن تصنع ومهما بلغت من التعقيد والكمال فإننا نجد في تركيب جسمنا ما هو أفضل منها ، ونظرة واحدة نلقيها علي تكون الطفل في رحم أمه تقنعنا بأعجوبة المراحل التي يمر بها كما تقنعنا بأنه لا بد لهذه الصنعه المركبه العجيبيه من صانع ماهر ، وكلما تعمق الإنسان في تشريح جسمه وأدرك دقائقه ازداد إيماناً بوجود الخالق ، إن عمليه الأكل والبلع والهضم وتحويل الطعام إلى دم وسكر وأحماض ، والاحتفاظ بالنافع

منه وطرح الفضلات . . كل أولئك يدعو بلسان الواقع إلى الإقرار بوجود الخالق (١)!

وفى الأرض بلايين البلايين من الأحياء التي تنطق بأثار الخالق الباريء المصور البديع (سبحانه)، يقول (لستر زمرمان) أخصائي التربة: أما التربة المنتجة الخصيبة فهي تربة حية يعيش بها عدد لا يحصى من الكائنات الدقيقة من حيوان ونبات، وقد تصل نسبة الكائنات الحية التي تعيش بهذه التربة إلى ما يقرب من ٢٠٪ من المادة العضوية التي بها، وقد يصل عدد الكائنات الحية إلى بضعة بلايين في الجرام الواحد من التربة (١).

هذه البلايين من الأحياء تنقسم إلى آلاف من الأنواع كل نوع له خصائصه ومزاياه وشكله وصورته وطرق تغذيته وطرق حياته، وكل فرد من أفراد هذه الأنواع فيه خصائص جنسه وكل تعقيدات الحياة!

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ (٢).

فمن الذي خلق هذه الكائنات وشكلها وأبدعها؟!

يقول أحد العلماء: «العالم الذي نعيش فيه مليء بالآلات الكثيرة العجيبة المعقدة التي اخترعها العلماء، لم تكن معروفه من قبل، فعندنا الطائرات التي بلغت من دقة الصنع مبلغاً باهراً بحيث يستطيع قائدتها في طرفة عين أن يعرف أين هو، وبأيه سرعه ينطلق، وفي أى اتجاه يسير، بالإضافة إلى مخترعات أخرى كالراديو والتلفزيون، والآلات الحاسبه التي تقوم بعمليات الجمع والطرح والضرب والقسمه في لمح

(١) سعيد حوى، الله (جل جلاله) ص ٥٩.

(٢) سورة الانعام آية ٣٨.

البصر دون أن تخطيء» وإذا دقق الإنسان النظر في هذه المخترعات جميعها لم يجد آله أعجب ولا أدق صنعا من جسم الإنسان فليس في الآلات التي ابتدعها العقل آلة تستطيع أن ترى وتسمع، وتحس، وتتذوق وتبكي، وتضحك وترضى وتغضب. (١).

فحقاً ﴿هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه﴾.

والتفكر في بديع صنع الله عز وجل فريضة إسلامية، حث القرآن الكريم عليها، وأمر بها. ومدح من يتفكرون في المخلوقات من حولهم:

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (٢).

وقال تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ (٢١) وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (٣).

وقال تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ﴾ (٤).

وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خَلَقَتْ﴾ (٥).

فالله سبحانه وتعالى قد خلقنا في أرض محدوده تظلمها سماء مرفوعة، وحفظ الحياة عليها بربطها بكواكب وأقمار ونجوم لكل منها مدار ومسار، وأحكم لها جميعاً الميزان، فالشمس تمنح النور أو تشع الطاقة التي تبعث الحياة في الأرض وما عليها، وأحكم سبحانه

(١) عن ابن خليفه عليوى، مرجع سابق، ص ٣٧٢.

(٢) سورة آل عمران (١٩٠-١٩١). (٣) سورة الذاريات (٢٠-٢١).

(٤) سورة الطارق آية ٦. (٥) سورة الغاشية آية ١٧.

الطبقات العليا بحزام واق من الإشعاعات الزائدة فلا يصل منها إلى الأرض إلا ما تحتاج ولا ينفذ إلا ما ينفع . . والقمر ينير، والنجوم تهدي وتلألأ . . والجميع في عوان كامل متكامل . والليل والنهار يتعاقبان بميقات مرسوم ونظام دقيق يتلاءم مع ظروف الحياة علي الأرض ويوفر للإنسان وسائر الكائنات أنسب أسباب النمو والارتقاء . . والأرض - بالماء- تخرج كل شيء حي، والماء يتبخر والسحب تتجمع، والمطر يتساقط، والأنهار تجري والعيون تتفجر، والرياح تصرف، وتتهيا الظروف فتخرج الأرض لكل مكان رزقاً، وتنتج من كل تربة فضلاً . وهذه العملية متجددة تجدد الليل والنهار ! .

ويصحبنا العلامة ابن القيم - رحمه الله - في رحلة تأمل فيها خلق الإنسان، وكيف أبدع الخالق (سبحانه وتعالى) أعضاء الإنسان، فيقول: القرآن الكريم يدعو العبد إلى الفكر والنظر في مبدأ الخلق ووسطه وآخره إذ نفسه وخلقها من الدلائل علي خالقه وناظره وأقرب شيء إلى الإنسان نفسه وفيه من العجائب الداله على عظمة الله ما تقتضي الأعمار في الوقوف علي بعضه . انظر إلى النطفة بعين البصيره وهي قطره من ماء مهين ضعيف مستقذر لو مرت بها ساعة من الزمان فسدت وأنتنت كيف استخرجها رب الأرباب العليم التقدير من بين الصلب والترائب منقادة لقدرته مطيعة لمشيئة مذلة الانقياد علي ضيق طرقها، واختلاف مسارها إلى أن ساقها إلى مستقرها ومجمعها؟ وكيف جمع سبحانه بين الذكر والأنثى وألقى بينهم المحبه، وكيف قادهما بسلسله الشهوة والمحبة إلى الاجتماع الذي هو سبب تخليق الولد وتكوينه . . ثم يتحدث عن العظام فيقول: ثم انظر الحكمة البالغة في تركيب العظام قواماً للبدن، وعماداً له، وكيف قدرها ربها وخالقها بتقادير مختلفه، وأشكال متباينه، فمنها الصغير، والكبير،

والطويل، والقصير والمنحنى، والمستدير، والدقيق، والعريض،
والمصمت والمجوف، وكيف ركب بعضها في بعض . ؟ وكيف اختلفت
أشكالها باختلاف منافعها ؟ .

وتأمل كيفيه خلق الرأس، وكثرة ما فيه من العظام مختلفة الأشكال
والمقادير والمنافع، وكيف ركبه سبحانه وتعالى على البدن وجعل فيه
الحواس وآلات الإدراك كلها من السمع والبصر والشم والذوق . .
وجعل حاسة البصر في مقدمته ليكون كالطليعه والحرس الكاشف
للبدن؟!، وانظر كيف حسن شكل العينين وهيتهما ومقدارهما ثم
جملهما بالأجفان غطاءً لهما . وسترًا وحفظاً وزينة فهما يتلقيان عن
العين الأذى والقذى والغبار ويقيانها من البرد والحر المؤذيان . ثم غرس
في أطراف الأجفان الرموش جمالاً وزينة ولمنافع أخرى . .

ثم اقتضت حكمة الخالق البارئ المصور أن جعل ماء الأذن مرآة في
غاية المراة فلا يجاوزه الحيوان ولا يقطعه داخلاً إلى باطن الأذن . .
وجعل ماء العينين ملحاً ليحفظهما فإنهما شحمة قابلة للفساد فكانت
ملوحة مائهما صيانة لهما، وحفظاً وجعل ماء الفم عذباً حلواً ليدرك
به طعوم الأشياء على ما هي عليه . .

ونصب (سبحانه) قصبه الأنف في الوجه فأحسن شكله وهيته
ووضعه، وفتح فيه المنخرين وحجز بينهما بحاجز وأودع فيهما حاسة
الشم التي تدرك بها أنواع الروائح، وليستنشق به الهواء . . وجعل
أعلاه أدق من أسفله لأن أسفله إذا كان واسعاً اجتمعت فيه الفضلات
فخرجت بسهولة . .

ثم يقول . . وتأمل كيف خلق اليدين اللتين هما آلة العبد وسلاحه
ورأس مال معيشتة فطولهما بحيث يصلان إلى ما شاء من بدنه،

وعرض الكف ليتمكن من القبض والبسط، وقسم فيه الأصابع الخمسة، وقسم كل أصبع بثلاث أنامل الإبهام بائنتين ووضع الأصابع الأربعة في جانب والإبهام في جانب لتدور الإبهام علي الجميع فجاءت علي أحسن وضع، صلحت به للقبض والبسط ومباشرة الأعمال، ولو اجتمع الأولون والآخرون على أن يستنبطوا بدقيق أفكارهم وضعا آخر للأصابع سوى ما وضعت عليه لم يجدوا إليه سبيلاً. . وركب الأظفار علي رؤوسها زينه لها وعماداً ووقاية، وليلتقط الأشياء الدقيقة التي لا ينالها جسم الأصابع. . فتبارك الله أحسن الخالقين^(١).

ويلفتنا القرآن الكريم إلى دراسة الإبل للوقوف على بديع صنع الله (عز وجل) فيها: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾^(٢).

وفي خلق وتركيب الجمل إعجاز يفوق التصور، فهو حيوان قادر علي المعيشة في الصحراء بما فيها من لهيب وقلة ماء، ولذلك يسمى سفينة الصحراء وقد زوده الخالق (سبحانه) بما يلائم حياته وبيئته، فالأرجل طويلة نسبياً حتي تساعد علي سرعة الحركة لاتساع المسافات في الصحراء وتنتهي هذه الأرجل بالخف وهو عبارة عن وساده لينه مسطحة تمكنه من السير علي رمال الصحراء الناعمة وأحجارها وصخورها القائمة. وبدونها لا يستطيع السير لمسافات طويلة.

وقد زوده الخالق (سبحانه) بمخازن لتخزين الغذاء والماء، فله سنام، وفي بعض أنواعه سنامان، وهذا السنام مخزن لحفظ كميات من الدهن، يواجه بها ما قد يتعرض له من فقدان للغذاء لمدة طويلة ولا يوجد هذا المخزن في أى حيوان آخر.

(١) ابن القيم الجوزية. مفتاح دار السعادة، ص ٢٣٧: ص ٢٤٢ (بتصرف).

(٢) سورة الغاشية آية ١٧.

وعنق الجمل طويل حتى يستطيع تناول ما على الأشجار، وشفته العليا مشقوقة حتى يستطيع أن يتحاشى الأشواك إذا ما أكل نباتاً به أشواك. ويستعمل هذه الشفة المشقوقة أيضاً عند هبوب العواصف فيقفل بها فتحتى أنفه، فلا تدخلهما ذرات الرمال.

وإذا ما دخلت ذرة فإن بالأنف شعراً كثيفاً يمنعها. ويوجد بإذنه أيضاً شعر كثيف لهذا الغرض، والعينان لهما أيضاً طبقتان من الأهداب تمنعان دخول أية مواد غريبة قد تحملها الأعاصير إلى العينين.

وفى جسم الجمل تركيبات لم يصل العلماء إلى سرّها حتى الآن بيد أنهم عرفوا عملها وأثرها وهذه التركيبات تعمل على خفض درجة حرارة الجمل، فكلما اشتد الحر وارتفعت درجة الحرارة برد داخل الجمل. فلا يعرق ولا يبول فيفقد الماء. كما يتجنب الجمل فقدان الماء عن طريق التنفس بالمحافظة على كمية بخار الماء الموجود بهواء الزفير بفضل الأغشية المخاطية الأنفية، والمتصفه بقابليتها لامتصاص الماء.

فالجمل أكثر الحيوانات تحملاً لمشاق الصحراء من نقص للماء والغذاء، وارتفاع في درجة الحرارة فهو يستطيع تحمل فقدان المياه من جسمه بدرجة كبيرة تصل إلى (٣٠٪) من وزنه، فإذا كان وزن الجمل (٣٠٠ كيلو جرام) فإنه يتحمل نقصاً من وزنه يصل إلى (٩٠ كيلو جرام) وهذا الفقد لا يؤثر في طبيعة السائل الدموي لديه. وتكفي عشر دقائق لتعويض هذا الماء إذ يستطيع شرب (١٠ لتر) من الماء خلالها وهذه الكمية من الماء تتوزع داخل جسمه، وتصل إلى خلاياه خلال ساعتين من الزمن.

ويقوم وبر الجمل بدور كبير بالنسبة لحياته في الصحراء وتحمل مشاقها، فهو يقلل من التبادل ما بين حرارة الجسم وحراره الوسط

المحيط . كما يعمل علي الحد من كمية الماء المتبخرة عبر غدد التعرق الموجودة على سطح الجلد . وكلما ازدادت كثافة الوبر على جسمه كانت عملية العزل أكبر وأعلى .

أما كيف يحول الجمل الغذاء المدخر إلى دهن ، ثم يرفعها من أمعائه إلى سنامه ، فهذا شيء حير العلماء ، وما زالوا يبحثون فيه .

فسبحان الذي أحسن كل شيء خلقه . .

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَبْصَارِ . الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ . رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ . رَبَّنَا إِنَّنا سَمِعنا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ . رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ (١) .

«اللهم متعني بسمعي وبصري، واجعلهما الوراث مني، وانصرني على من يظلمني ، وخذ منه بثأري» (٢) .

* * *

(١) سورة آل عمران، آية: (١٩٠-١٩٤) .

(٢) أخرجه الترمذي ، والحاكم ، وصححه ووافقه الذهبي ، وانظر صحيح الترمذي

الوهاب-المتان-الرزاق-الرازق-المقيت

٥٠ ٥١ ٥٢ ٥٣ ٥٤

الوهاب (جلّ جلاله) كثير الهبة والعطية، فالله تعالى وهاب يهب لعباده واحداً بعد واحد، يعطيهم، فجاءت الصفه على فعال لكثرة ذلك وتردده.

والهبة العطاء تفضلاً وابتداءً من غير استحقاق ولا مكافأة^(١) أو عوض ولا غرض. فمن يكثر العطاء بهذه الصفه أى بدون عوض ولا عرض يسمى وهاباً.

فالهبه لها ركنان: الأول التملك، والثاني: بغير عوض.

أما التملك فلا يصح إلا من الله، فالعبد لا يملك شيئاً حتى يملكه لغيره، وإنما هو وما مَلِكٌ مِلْكُ اللهِ (عز وجل).

وأما أنه بغير عوض فإن ذلك لا يحدث من العباد لأن العبد عندما يعطى إنما يفعل الفعل إما لتحصيل المدح في العاجل، أو الثواب في الآجل، فثبت بذلك أنه لا واهب إلا الله (سبحانه وتعالى).

فهو الذي يملك ويعطى لأنه مالك الملك فيصح منه التملك، وهو (سبحانه) يعطى بغير عوض، ولا غرض لأنه منزّه عن الزيادة والنقصان فكان فعله منزهاً عن الأعواض والأغراض.

ومن وهب من المخلوقين شيئاً لغيره لا يسمى وهاباً؛ لأن الوهاب من كشرت مواهبه، واتسعت عطاياه. والمخلوقون يهبون مالاً ونوالاً

(١) أبو القاسم الزجاجي، مرجع سابق، ص ١٦.

حالاً دون حال، وشيئاً دون شيء. ولا يستطيعون أن يهبوا كل شيء وفي كل حال. فهم مثلاً لا يستطيعون أن يهبوا شفاءً لسقيم، ولا ولداً لعقيم، ولا هدي لصال، ولا عافية لذئ بلاء. والله سبحانه وتعالى يهب ذلك كله فعطاياه دائمة وأياديه متوالية، ونعمه لا تعد ولا تحصى فكان وحده هو الوهاب (سبحانه وتعالى).

فألله سبحانه وتعالى وهاب يهب العطاء دون عوض، ويمنح الفضل بغير غرض، ويعطي الحاجة بغير سؤال، كثير المن والإفضال، واللفظ والإقبال، لا يقطع نواله عن العبد في حال. عطاؤه دائم، وبذله شامل يعطي بلا وسيلة، وقد ينعم بلا سبب ولا حيلة.

قال ابن القيم رحمه الله :

وكذلك الوهاب من أسمائه فانظر مواهبه مدى الأزمان
أهل السموات العلى والأرض تلك المواهب ليس ينفكان

فقد شمل (سبحانه وتعالى) الكائنات بأسرها ببره وهباته وكرمه، فهو مولئ الجميل، ودائم الإحسان، وواسع المواهب، وجميع النعم الظاهرة والباطنة من مواهبه وبره وإحسانه.

وقد ورد اسم الوهاب ثلاث مرات في القرآن الكريم، مرة في سورة (ال عمران)، ومرتين في سورة (ص).

قال تعالى: ﴿وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ (١).

قال تعالى: ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ﴾ (٢).

(١) سورة آل عمران آية ٨. (٢) سورة ص آية ٩.

قال تعالى على لسان سليمان (عليه السلام): ﴿وَهَبْ لِي مَلَكًا لَا يَبْغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ (١).

أما الفعل فقد ورد كثيراً في القرآن الكريم:

قال تعالى على لسان إبراهيم (عليه السلام): ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ (٢).

وقال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُم لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ (٣).

وقال تعالى: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا﴾ (٤).

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ (٥).

والمنان اسم من أسمائه الحسنى (سبحانه وتعالى)، وهو المعطى ابتداءً.

وفى اللغة: مَنْ عَلَيْهِ أَيْ أَنْعَمَ وَأَحْسَنَ، وَالْمَنُ الْإِنْعَامُ مُطْلَقاً، فالمنان (سبحانه) هو المعطى، من المن بمعنى العطاء لا من المنه، وكثيراً ما يرد في كلام العرب بمعنى الإحسان بدون مقابل، وعلي هذا فهو يقترب في معناه من الوهاب. بيد أن المنان يختص بالنعمة الثقيلة العظيمة، والوهاب أشمل.

ولذلك جاء المن من الله تعالى علي عباده المؤمنين في القرآن الكريم ببعث الرسول إليهم وهدايتهم وتمكينهم في الأرض، ووقايتهم من العذاب.

(١) سورة ص آية ٣٥. (٢) سورة إبراهيم آية ٣٩.

(٣) سورة مريم آية ٥٠. (٤) سورة الشورى آية ٤٩.

(٥) سورة الفرقان آية ٧٤.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ (١).

وقال تعالى: ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ (٢).

وقال تعالى: ﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَّانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾ (٣).

فألله عز وجل هو المنان الذي يهب النعم العظيمة، ومن أعظم هذه النعم بل أصل كل النعم إرسال الرسول ﷺ لينقذ من الضلال ويعصم من الهلاك. ثم الهداية للإيمان، وهى من أعظم النعم وأجلها.

وقد يقع لفظ المنان على الإنسان الذي يعطى شيئاً ثم يمنّ به على من أعطاهم، وهذا المنّ مذموم؛ لأن المنّة تفسد الصنيعه.

ويفرق الأصفهاني بين نوعين من المنّ، فيقول: «المنّة: النعمة الثقيلة، وهى على نوعين:

النوع الأول: أن تكون هذه المنّة بالفعل، فيقال: منّ على فلان إذا أثقله بالنعمة، وعلى ذلك قوله: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٤). وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ﴾ (٥). ، وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ (٦). وهذا كله على الحقيقة لا يكون إلا من الله تعالى فهو الذي منّ على عباده بهذه النعم العظيمة.

النوع الثانى: أن يكون المنّ بالقول، وذلك مستقبح فيما بين الناس، ولقبح ذلك قيل: المنه تهدم الصنيعه. قال تعالى: ﴿يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ

(١) سورة آل عمران آية ١٦٤.

(٢) سورة الحجرات آية ١٧.

(٣) سورة الطور آية ٢٧.

(٤) سورة آل عمران آية ١٦٤.

(٥) سورة الصافات آية ١١٤.

(٦) سورة إبراهيم آية ١١.

أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمْنُوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١﴾

فالمنة من الله عليهم بالفعل وهو هدايتهم للإسلام، والمنه منهم بالقول المذموم (٢).

وقد ذم الله عز وجل في كتابه هذا المنّ، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَّبَعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٣).

وقد ذم الرسول ﷺ المنّ بالعطية فقال عليه الصلاة والسلام، ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم» فقرأها رسول الله ﷺ ثلاث مرات قال أبو ذر: خابوا وخسروا! من هم يا رسول الله قال: «المسل، والمنان، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب» (٤).

وقد ورد اسم الله (المنان) في حديث رسول الله . عن أنس بن مالك «رضى الله عنه» قال: سمع النبي الله رجلاً يقول: «اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك المنان يا بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا حي يا قيوم إني أسألك الجنة وأعوذ بك من النار. فقال النبي صلى الله عليه وسلم لقد سألك الله باسمه الأعظم الذي إذا سئل به أعطى وإذا دعي به أجاب» (٥).

(١) سورة الحجرات آية ١٧.

(٢) الأصفهاني، مرجع سابق، ص ٤٧٤.

(٣) سورة البقرة آية ٢٦٢.

(٤) أخرجه مسلم (٢٦٠).

(٥) رواه أصحاب السنن وابن حبان وأحمد والحاكم، وانظر صحيح النسائي

٢٧٩/١ وصحيح ابن ماجه ٣٢٩/٢.

والرزاق والرازق اسمان من أسماء الله الحسنى ، وهما مشتقان من مادة الرزق ، والرزق هو كل ما ينتفع به .

والرزق رزقان : رزق الأجسام بالأطعمة ونحوها ، ورزق الأرواح بالعلوم والمعارف وهو أشرف الرزقين لأن ثمرته باقية وبه حياة الأبد ، ورزق الأبدان إلى مدة قريبة الأمد .

وكذلك الرزاق من أسمائه	والرزق من أفعاله نوعان
رزق على يد عبده ورسوله	نوعان أيضاً ذان معروفان
رزق القلوب العلم والإيمان والـ	رزق المعد لهذه الأبدان
هذا هو الرزق الحلال وربنا	رزاقه والفضل للمنان
والثاني سوق القوت للأعضاء في	تلك الجارى سوقه بوزان
هذا يكون من الحلال كما يكو	ن من الحرام كلاهما رزقان
والرب رزاقه بهذا الاعتبار	أر وليس بالإطلاق دون بيان

قال ابن القيم :

فرزق الله لعباده نوعان : عام وخاص

١- الرزق العام : هو ما يوصله لجميع المخلوقات مما تحتاجه في معاشها وقيامها ، فسهل لها الأرزاق ، ودبرها في أجسامها ، وساق إلى كل عضو صغير وكبير ما يحتاجه من القوت ، وهذا عام للبر والفاجر والمسلم والكافر ، بل للآدميين والجن والحيوانات كلها .

وعام أيضاً من وجه آخر في حق المكلفين ، فإنه قد يكون من الحلال الذي لا تبعة علي العبد فيه ، وقد يكون من الحرام ويسمى رزقاً ونعمة بهذا الاعتبار ، ويقال «رزق الله» سواء ارتزق من حلال أم من حرام وهو مطلق رزق .

٢- الرزق الخاص : وهو الرزق النافع المستمر نفعه في الدنيا والآخرة ، وهو الذي على يد الرسول ﷺ ، وهو أيضاً قسمان :

(أ) رزق القلوب بالعلم والإيمان وحقائق ذلك ، فإن القلوب مفتقرة غاية الافتقار إلى أن تكون عالمة بالحق مريدة له ، متعبدة لله . وبذلك يحصل غناها ويزول فقرها .

فالرزق الخاص هو ما خص به المؤمنون ، ويشمل الأمرين السابقين . وينبغي للعبد إذا دعا ربه في حصول الرزق أن يستحضر بقلبه هذين الأمرين ، فمعنى «اللهم ارزقني» أى ما يصلح به قلبى من العلم والهدى والمعرفة والإيمان الثابت والعمل الصالح والخلق الحسن ، وما يصلح به بدنى من الرزق الحلال الهنى الذى لا صعوبة فيه ، ولا تبعه تعثره (١) .

قال الشاعر :

يا خالق الرزق للعباد وللو حش وللطير أنت رزاق
فكل شئ إليك متجه وكل قلب إليك مشتاق
وأعظم الرزق نور معرفة له وراء الضلوع إشراق

وقد ورد اسم «الرازق» مرة واحدة في القرآن الكريم في سورة الذاريات . وفى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ (٢) .

أما «الرازق» فقد ورد في حديث رسول الله ﷺ : «إن الله هو المسعر، والقابض، الباسط، الرازق...» (١) .

(١) عبد الرحمن آل سعدى ، الحق الواضح المبين ، ص (٨٥-٨٦) .

(٢) سورة الذاريات آية ٥٨ .

(٣) أخرجه أبو داود والترمذى وابن ماجه وأحمد ، وهو حديث صحيح الإسناد انظر صحيح الترمذى ٣٢/٢ وصحيح ابن ماجه ١٥/٢ .

وورد خير الرازقين خمس مرات في القرآن الكريم مثل قوله تعالى: ﴿وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ (١).

والمقيت اسم من أسماء الله الحسنی، وقيل في معناه: إنه هو الحفيظ، وقال ابن عباس (رضي الله عنهما) المقيت: المقتدر، وقيل هو الذي يعطي أقوات الخلائق، فهو الذي خلق الخلق وساق إليهم الأقوات، وأوصل إليهم الضرورات والكماليات.

واشتقاقه من القوت، والقوت ما يمسك الرمح، وجمعه أقوات.

قال تعالى: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ (٢).

وقاته يقيته قوتاً أطعمه قوته، وأقاته يقيته جعل له ما يقوته وفي الحديث الشريف «كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يقوت» (٣)، وقيل: من يقيت. قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتاً﴾ (٤)، وقيل: مقتدراً، وقيل: حافظاً، وقيل: شاهداً، وحقيقته قائماً عليه يحفظه ويقيته (٥).

ويبدو أن هناك فرقاً بين اسم المقيت واسم الرزاق، فالمقيت أخص من الرزاق؛ لأنه يختص بالقوت أما الرزاق فيتناول القوت وغير القوت.

فالمقيت (سبحانه) يقدر حاجة الخلائق بعلمه، ثم يسوقها إليهم بقدرته، ليقيتهم بها ويحفظهم.

(١) سورة المائدة آية ١١٤.

(٢) سورة فصلت آية ١٠.

(٣) رواه مسلم وغيره.

(٤) سورة النساء آية ٨٥.

(٥) الراغب الأصفهاني، مرجع سابق، ص ١٤.

ويلاحظ أن هناك - أيضاً - فروقاً بين أسماء الوهاب والمنان والرزاق .

فعلي الرغم من أن الهبة والمن والرزق عطاء من قبل الوهاب الرزاق . سبحانه) إلا أن الهبة أكثر ما تأتي في النص القرآني تأتي في إعطاء الولد وهبته من قبل الله (عز وجل) للناس ، فالوهاب سبحانه وتعالى وهب لإبراهيم (عليه السلام) إسماعيل واسحق ويعقوب (عليهم السلام) ، وهب لداود سليمان (عليهما السلام) وهب لزكريا يحيى (عليهما السلام) وهب لمريم عيسى (عليه السلام) ، ويهب لكل الناس الإناث والذكور ويجعل من يشاء عقيماً .

قال تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ ﴾ (١) .

وقال تعالى علي لسان إبراهيم : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ﴾ (٢) .

وقال تعالى عن زكريا : ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَاهُ لَهُ زَوْجَهُ ﴾ (٣) .

وقال تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لِداوود سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ (٤) .

قال تعالى ﴿ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴾ (٥) .

وقال تعالى : ﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴾ (٦) .

ومن دعاء المؤمنين في القرآن الكريم : ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ (٧) .

(٢) سورة إبراهيم آية ٣٩ .

(٤) سورة ص آية ٣٠ .

(٦) سورة الشورى آية ٤٩ .

(١) سورة الأنعام آية ٨٤

(٣) سورة الأنبياء آية ٩٠ .

(٥) سورة مريم آية ١٩ .

(٧) سورة الفرقان آية ٧٤ .

أما المنُّ فأكثر ما يأتي في القرآن الكريم في بعث الرسل والهداية والإيمان والتمكين في الأرض، والانتقاز من العذاب :

قال الله تعالى : لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴿١﴾ .

﴿ أَهْوَلَاءِ مِّنَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِّنْ بَيْنَا ﴾ (٢) .

﴿ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ ﴾ (٣) .

﴿ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا ﴾ (٤) .

﴿ لَوْلَا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ﴾ (٥) .

﴿ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴾ (٦) .

أما الرزق فيأتي كثيراً في الأموال والطعام والشراب .

قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ (٧) .

وقال تعالى : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ﴾ (٨) .

وقال تعالى : ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ ﴾ (٩) .

(١) سورة آل عمران آية ١٦٤ .

(٢) سورة الأنعام آية ٥٣ .

(٣) سورة الحجرات آية ١٧ .

(٤) سورة يوسف آية ٩٠ .

(٥) سورة القصص آية ٨٢ .

(٦) سورة الطور آية ٢٧ .

(٧) سورة القرة آية ٣ .

(٨) سورة الحج آية ٣٤ .

(٩) سورة البقرة آية ٦٠ .

وقال تعالى على لسان إبراهيم (عليه السلام): ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ (١).

وأهل الجنة يرزقون فيها بغير حساب:

قال تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (٢).

والله تعالى أعلم.

وآثار هذه الأسماء في الكون والحياة لا تعد ولا تحصى، بل لولاها ما كانت الحياة. فبقاء نوع الإنسان أثر من آثار الوهاب (سبحانه) وتعالى فهو الذي يهب الأولاد ولا واهب سواه، وإرسال الرسل وهداية البشر من وعطاء من قبل المنان (سبحانه وتعالى)، وحياة الإنسان وسائر الكائنات في هذا الوجود أثر من آثار الرزاق سبحانه وتعالى فهو الذي يمد هذه الكائنات بأرزاقها ليحفظ حياتها.

قال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ (٣).

ونعيش الآن لحظات مع هبة من هبات الوهاب (سبحانه وتعالى) وهي هبة الولد لنذكر من خلالها أنه لا واهب حقاً إلا الله (سبحانه وتعالى)، وأن الإنس والجن لو اجتمعوا علي أن يخلقوا ولداً ويهبوه ما استطاعوا، فسبحان من يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور!

إن هذا الولد الذي يفرح به والده، ويؤثرانه على كل ما عده من متاع الدنيا وزينتها... من الذي أبدعه وصوره جنيناً، وغذاه وناماه صغيراً وحفظه ورعاه كبيراً؟!

(١) سورة البقرة آية ١٢٦.

(٢) سورة غافر آية ٤٠.

(٣) سورة هود آية ٦.

تعالى أيها الوالد لتري كيف أعد لك الوهاب هذه الهبة إن خلقه ليكون هبة لوالديه ليس عملاً ميسوراً، بل هو عملية معقدة، وإن كانت يسيره أمام طلاقة القدرة الإلهية.

لقد تشكل قلبه من اجتماع خليتين ضعيفتين هما الحيوان المنوي والبويضة كما أسلفنا من قبل - لقد جاء الحيوان المنوي من دفعة منى كانت تحوى ما يقرب من (٥٠٠) مليون حيوان منوي، ومن هذا الشعب المنوي أو إن شئت فقل القوات المنوية الزاحفة بدأ السباق! ولكن إلى أين؟ إلى الالتحام بالبويضة التي تنطلق من مصنع خاص هو المبيض الذي يحوى (٣٠٠) ألف بويضة (تقريباً)، ويبدأ زحف الحيوانات المنوية في صورة هجوم كاسح أشبه بمهاجمة قلعة حصينة، فيسقط العديد من الحيوانات المنوية صرعى تذويب وإضعاف الغلاف الخارجى، ويكون نصيب نطفة واحدة هو الدخول بعد أن مهد لها الطريق بتضحيات نطف كثيرة.

والسؤال المثير هنا: كيف يقبل جسم المرأة جسماً أجنبياً عنه ولا يقاومه؟ مع أن جسم الإنسان له خاصية معروفه وهي رفض الجسم الأجنبى أيا كان؟

فهو لا يقبل أى شئ من المحيط الخارجى إلا بعد أن يحوله إلى مستقلبات تشبه بناء الجسم وترفده بالغذاء والقوة، حتى الطعام الذي يتناوله الإنسان لو حقن داخلوريد لكان معناه قتل الإنسان فوراً، ولذا فإن دخول الطعام عبر الجهاز الهضمي يعنى الآلاف من عمليات التحويل حتى يصل إلى الشكل الذي يرضى عنه الجسم وعند ذلك يسمح له بالدخول. وهذه الخاصية هي التي دفعت العلماء لخفض مقاومة الجسم وترويضه ليقبل الجسم الغريب كما هو الحال في عمليات زرع الأعضاء مثل القلب والكلى والرئة. فهلا انطبقت هذه القاعده

علي الحيوان المنوي لأنه جسم غريب؟

ألست معي أيها القارئ إن هذا الأمر يثير الدهشة؟

والذي يجعل الإنسان يهتف بلسانه وقلبه : سبحان الخالق الوهاب
أن الطب يجيبنا عن هذا السؤال إجابة مذهشة فيقول : إن النقيض هو
الذي يحدث ! فنقول كيف ذلك ؟

فيقول : إن القدرة الإلهية تمهد لهذا اللقاء التاريخي الحاسم ،
فتجعل جسم الأنثى يستعد كلياً وتتبدل أخلاطه ويتغير مزاجه ليستقبل
هذا الجسم الغريب في حفاوة وترحاب فيفرش له الورود ، ويعد له
سلماً للصعود ، ويصنع له زرابي مبشوته لراحته ، وغارق مصفوفه
لاتكائه !

فالطرق التناسلية عند المرأة تتغير بما يوافق حياة الحيوان المنوي
وأعجب ما فيها تشكل سلم خصوصي للحيوان المنوي حتي يتسلقه !!

وهذا المفرز الاحيني اللصوق (الصادر) من عنق الرحم حيث
ينسدل إلى أعلى المهبل ، وهذا في يوم الإباضة ، ويبقى لمدة ٢٤ ساعة
فقط ، وهكذا يعدل حموضة المهبل القاتلة للنطف عاده ، كما تهينء
البيئة الصالحة لحياة النطفة وهي البيئة القلوية في المسالك التناسلية
العلوية . حيث يصبح الحيوان المنوي قادراً على الإلقاح ، لأنه وجد أن
قدرة الحيوان المنوي علي اللقاح لا تتم إلا بعد استقراره ولو لمدة ساعات
قليلة في المسالك التناسلية عند المرأة ، وكأنه بهذا الاستقرار يغير من
طاقته بحيث يصبح أكثر نشاطاً وحيوية ، بالإضافة إلى الحبل الذي
يصعد عليه حتي يصل إلى الرحم حيث الأمان والاطمئنان علي حياته
ثم ليتابع رحلته حيث يحصل اللقاء الحاسم في تخلق الإنسان في محطة
البوق ، وعند منطقة محدده وهي الثلث الوحشئ النهائي من البوق .

وماذا لو لم يحدث هذا اللقاء؟

إن الرحم يبكى دماً لا دمعاً إذا لم يحدث هذا اللقاء، ويكون ذلك في صورة الدم الطمثي الذي هو تعبير عن عدم حدوث اللقاء.

فقل لى بربك أيها القارئ الكريم هل تستطيع البشريه بما أوتيت من علم وتقدم أن تخلق هاتين الخليتين (الحيوان المنوي والبويضة) ثم تجمع بينهما في عرس ولقاء كهذا؟!

فسبحان الذي قدر فهدى!

وبعد أن يحدث هذا اللقاء بين البويضة والحيوان المنوي تبدأ مراحل متسلسله ولكنها واحده، ففي المرحلة الأولى يبدأ انقسام رهيب سريع يصل إلى خمسين انقساماً أو يزيد في الخلية الأولى، ريثما تصل إلى الرحم لتعشش فيه. ثم تبدأ بعدها المرحلة الثانية وهي عملية التخصص، فتخصص الخلايا وتشكل الأعضاء، هكذا يتخلق الإنسان وتشكل أعضاؤه وأجهزته في ورشة عمل من أدق ما تكون، فهذه المجموعه تخلق العين، وتلك الأحشاء، وثالثه للأطراف... ثم نرى رعايه القدرة الإلهيه تجمع الخلايا مع بعضها لتكوين الأنسجة، وتجمع لأجهزة لتكوين الأعضاء، وتجمع الأعضاء لتكوين الأجهزة، وتجمع الأجهزة لتكوين الإنسان السوي، وأى خلل بسيط في العمل معناه تشوه مرعب، ولنتصور لو أن طائفة من الخلايا أخطأت فوضعت الفم في موضع الشرج!! أو العينين في الصدر أو الدماغ في البطن!

ثم تأتى المرحلة الثالثة، وهى زيادة الوزن وإعطاء الرونق الأخير لإنسان حتي يخرج للحياة في أجمل صوره ﴿وصوركم فأحسن صوركم﴾.

فيصل وزنه إلى (٣٢٥٠) غراج تقريباً بعد أن كان وزنه ١ / مليار من

الغرام، أى أنه يزداد ما بين مرحلة النطفه إلى مرحلة التخلق الإنسانى الأخير (٣٠٠٠) مليار مرة.

ثم يصدر القرار الإلهى بنزول هذه الهبة الربانية إلى الحياه، فينطلق هرمون مستعجل من الغده النخامية إلى الرحم الذى يحوى الجنين يخبر الرحم بأن هذا الولد أصبح صالحاً للحياة مع الناس، وهكذا تبدأ التقلصات الخفيفه في البدء ثم تشتد متقاربة، وتبدأ الأم تشعر بالآم المخاض، والجنين لا يقف مكتوف الأيدى، وإنما يلقي برأسه على المخرج، ويدفع ويدفع بكل ما وهبه الخالق من قوة ونشاط حتى يخرج رأسه، ثم كتفه الأيمن لأن الله جلّت قدرته يحب التيامن، ثم كتفه الأيسر، ثم يدق برأسه أول باب من الدنيا وما إن يخلص من أمه حتى يملأ البيت بكاءً إنه بدأ يشعر بثقل الحياة الدنيا ومشاقها!

ينزل حياة جديدة، ويبدأ في تكوين مشاعره وبناء نفسه، ومعرفته فيستخدم أجهزته التي منحتها له القدرة الإلهية وهو جنين. وتسير حياته كالنهر فهو هو لم يتغير، وهو هو في كل لحظة. عملية الهدم والبناء مستمرة في أعضائه، فتموت مليارات الخلايا، وتتجدد مليارات غيرها، كل شيء في جسده يتجدد ويتغير إلا منطقته واحده في الجسم هي الجهاز العصبى، والمركزى، لأن موتها وتجدها معناه فقدان الذاكره، والتعلم من جديد مع كل تجديد للخلايا، وهذه رحمة من الله عز وجل بالإنسان^(١).

أرأيت أيها القارئ الكريم كم من نعمة عليك في هبه الولد لك من قبل الوهاب (سبحانه وتعالى)!

ألا تساوى هذه الهبه العظيمه حمد الوهاب وشكره؟!

(١) خالص جلى، مرجع سابق، ص ٥٠ : ٦٤ (بتصرف)

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ (١).

وهب - لى - على الكبر - إسماعيل وإسحاق - حقاً إنه سميع الدعاء وهو وحده المستحق للحمد والثناء .

أما إذا أردت أيها القارئ أن تعرف أثراً من آثار المنان (سبحانه وتعالى) فاستمع إلى قصص من يدخلون في دين الله أفواجا كل يوم بل كل ساعة، ينتقلون من الظلام إلى النور، ومن الشقاء إلى السعادة، ومن التيه والضياع إلى الهدى واليقين. فمن الذي يهديهم ويشرح صدورهم للإسلام.

﴿اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ (٢).

إن هذا مما يثير غيظ الكافرين، فيشيرون إلى هؤلاء المهتدين: ﴿أَهَؤُلَاءِ مَنِ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِّنْ بَيِّنَاتٍ﴾ (٣).

ولندع خالد بن الوليد (رضي الله عنه) يقص علينا كيف منّ الله عليه بالإسلام بعد أن كان من أشد المناوئين لله ورسوله، قال خالد: «لما أراد الله بى ما أراد من الخير قذف في قلبى حب الإسلام، وحضرنى رشدئى وقلت: قد شهدت هذه المواطن كلها على محمد، فليس موطن أشبهه إلا انصرفت وأنا في نفسى أنى موضع في غير شئ، وأن محمداً سيظهر، ودافعته قريش بالراح يوم الحديبية فقلت أين المذهب؟

(١) سورة إبراهيم آية ٣٩.

(٢) سورة الحجرات آية ١٧.

(٣) سورة الأنعام آية ٥٣.

وقلت أخرج إلى هرقل ، ثم قلت : أخرج من ديني إلى نصرانية أو يهودية فأقيم مع عجم تابعاً لها مع عيب ذلك على ودخل رسول الله ﷺ مكة عام القضية فتغيبت فكتب إلى أخى : «لم أر أعجب من ذهاب رأيك عن الإسلام وعقلك ومثل الإسلام يجهله أحد؟!! وقد سألتني رسول الله ﷺ عنك فقال : أين خالد؟! فقلت : يأتي الله به . فقال : ما مثل خالد يجهل الإسلام؟!! فاستدرك يا أخى ما فاتك»

فلما أتاني كتابه نشطت للخروج وزادني رغبة في الإسلام ، وسررتني مقاله النبي ﷺ فأرئى في المنام كأنني في بلاد ضيقه جذبته فخرجت إلى بلد أخضر واسع فقلت : إن هذه الرؤيا . . فأجمعت الخروج إلى رسول الله ﷺ ، وطلبت من أصحاب فلقيت عثمان بن طلحة فذكرت له الذي أريد فأسرع الإجابة وخرجنا جميعاً فأدجنا سحراً ، فلما كنا بالهده إذا عمرو بن العاص فقال : مرحباً بالقوم . فقلنا : وبك . فقال : أين مسيركم؟ فأخبرناه وأخبرنا أنه يريد النبي ﷺ فاصطحبنا حتى قدمنا المدينة على رسول الله ﷺ أول يوم من صفر سنة ثمان ، فسلمت على رسول الله ﷺ ، بالنبوه فرد على السلام بوجه طلق فأسلمت . . وبايعت رسول الله ﷺ . . فوالله ما كان رسول الله ﷺ من يوم أسلمت يعدل بي أحداً من أصحابه فيما يحزبه (١) .

وفي كل يوم بل في كل ساعه يمن الله عز وجل على من يشاء من عباده فيهديه للدين الحق . وقد أجرى بحث ميداني عن من يدخلون الإسلام حديثاً في منطقة الرياض ، قام به طلاب كليته العلوم

(١) أبو الفرج الجوزي ، صفه الصفوه ، ح ١ ص (٦٥١-٦٥٢) .

الإجتماعيه بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية تبين منه أن عدد المسلمين حديثاً بمنطقة الرياض في الفترة من ١٤٠٦ إلى ١٤١٠ هـ قد بلغ حسب إحصاءات الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد (٢٦٤٥) مسلماً حديثاً من حوالي ٣٩ دولة . وأشار البحث إلى أن ما يقرب من نصفهم (٤٦٪) دخلوا الإسلام منذ أقل من سنه من تاريخ إجراء البحث عام ١٤١٠ هـ^(١).

وفي الفلبين أشارت التقارير إلى تدفق المئات يومياً للدخول في الإسلام، وآخر دفعة (دخلت الإسلام) تألفت من (٨٤٧) فرداً من القبائل اللادينية في محافظة أجوسان، وأن اثني عشر زعيماً من هذه القبائل حضروا إلى قاعدة أبي بكر الصديق، وهي مركز القيادة العامة لجهة مورو لطلب الدخول في الدين الإسلامي.

ودخل في الإسلام سبعة آلاف شخص في الكويت عن طريق جمعية التعريف بالإسلام الكويتية^(٢).

وفي أعالي الحبشه يواصل القساوسة ومعلمو اللاهوت في العاصمة الأثيوبية أديس أبابا إشهار إسلامهم وسط موجة من الذعر تسود الكنيسة الأثيوبية للمرة الأولى وفي أقل من شهرين تقدم اثنان من شباب القساوسة إلى مكتب رابطه العالم الإسلامي في أديس أبابا ليعلنا عن إسلامهما عن قناعة تامة .

وفي أول رد فعل للكنيسة الأثيوبية قامت بتوزيع منشور سري بين أعضائها أشارت فيه إلى أن سكان العاصمة يبلغون ٥, ٢ مليون نسمة

(١) جريدة المسلمون عدد ٢٨٢ - ١٢ ذي الحجة ١٤١٠ هـ.

(٢) جريدة الأمة الإسلامية عدد ٥٢ - ١٥ شوال ١٤١٢ هـ.

وأنه ٧, ٦٪ منهم هم الذين يحضرون (صلوات الأحد) وتساءلت بانزعاج أين الـ ٩٣٪ الآخرون؟ (١).

ففي كل يوم يمن المنان على من يشاء من عباده فيشرح صدره للإسلام.

وآثار الرزاق لا تعد ولا تحصى على كل الخلائق فلولاها ما دامت لهم حياة، وهل تحيا الكائنات بدون أقوات وأرزاق؟

والآن أيها القاريء أمامك بغض الثمار اليانعة التي أعددتها لالتهامها (رطب - برتقال - عنب - الخ) فتعالى معي لنقوم برحلة نرى فيها كيف أبدعت القدرة الإلهية لنا هذه الثمار، وكم من الجنود والعمال قد سخروا لتجهيز هذه الأرزاق.

كيف تنبت هذه الأشجار؟ وكيف تحمل الثمار؟ ومتى يقطفها الإنسان؟ وكيف تتحول في جسده إلى غذاء للمليارات الخلايا؟

أول جندي نلتقي به في رحلتنا هو المطر الذي ينزل من السماء، ونسأل المطر كيف تتكون؟ فيجبنا إنه بخار من المحيطات والبحار تبخر بفعل الطاقة الشمسية، واستهلك في هذه العملية حوالي ثلث الطاقة الشمسية الواصلة إلى الأرض، ولولا إتساع رقعة الماء فوق الأرض ما تبخرت بكمية تكفي الكائنات على وجه الأرض، ثم تحملني الرياح وتصعد بي إلى طبقات الجو العليا، فإذا التقيت بأجسام باردة كجبل مرتفع أو رياح باردة في الطبقات العليا تركت حرارتي ورجعت مائعاً على شكل قطرات صغيرة جداً، حجم كل قطرة جزء من ألف من المليمتر تقريباً. وبسبب حجمي الصغير لا أستطيع السقوط على سطح

(١) جريدة الأمة الإسلامية عدد ٩٦٢٥ - ١٠ جمادي الآخرة ١٤١٣ هـ.

الأرض وهذا هو التلقيح الأول بالنسبة لي ، ومتى تسقط على سطح الأرض ؟ انتظر قليلاً . . . تأتيني الرياح بعد ذلك بأتربة وأملاح ودخان وهباءات وغيرها ، فأتكثف على هذه الشوائب ، ويزداد حجمي فيتألف من قطراتي المتناهية في الصغر قطرات أكبر تسمى المطر . . .

وهذا هو التلقيح الثاني . وتكون هذه القطرات مشحونة كهربائياً إما سالبة وإما موجبة . ثم تحملني الرياح في شكل سحب إلى أن التقي إما بسحاب آخر أو جبل ، أو أي مرتفع ذي كهرباء مضادة ، فتتصل الكهرباء السالبة بالكهرباء الموجبة ، فيكون تلقيح من نوع آخر ، وهو التلقيح الثالث ، وينشأ عنه البرق ثم الرعد . فأصبح محايداً لا كهرباء فيّ ، فتتضخم قطراتي بسرعة ، وتسقط على الأرض في شكل مطر ، وإذا كانت البرودة شديدة في شكل ثلج . فسبحان خالقي وخالقكم القائل : ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴾ (١) .

أرأيت أيها القاريء الكريم أن الماء منذ تبخره حتى يتكثف ويعود مطراً يحتاج إلى تلقيح ثلاث مرات ، والرياح هي التي تحمله وتنقله ليمر بهذه الأطوار ، وبدون هذه العملية تصبح الحياة على سطح الأرض مستحيلة ، وهذه العملية متواصلة منذ ملايين السنين . وسماها الرزاق رزقاً .

قال تعالى : ﴿ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ (٢) .

نسيت أن أقول لك إن هناك شيئاً ضرورياً لتزول المطر وهو أن

(١) سورة الحجر آية : ٢٢ . (٢) سورة الجاثية آية : ٥ .

جاذبية الأرض له أقوى من سرعة انطلاق جزيئاته، ولو زادت سرعة انطلاق جزيئاته عن فعل الجاذبية الأرضية لذهب الماء، ولهرب من الأرض إلى الكون الفسيح.

قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ (١).

وماذا بعد أن ينزل المطر على الأرض؟

عندما ينزل المطر من السماء على الأرض يدفع في مسامها الضيقة في التربة الطينية، والواسعة في التربة الرملية. فيدفع الهواء أمامه من هذه المسام ليحل محله فتتمدد التربة بالماء ويزيد حجمها لأن جزيئات الطين تتحرك بقوة دفع الماء لها.

قال تعالى: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ (٢).

وعندما يدخل الماء في الأرض يهبط إلى عمق تكون فيه التربة مشبعة باستمرار (مستوى أو منسوب الماء الأرضي)، وهو يكون بعيداً عن متناول جذر كثير من النبات، وإذا ما استجاب جميع الماء لشدة الجاذبية فسرعان ما يختفي الماء كله، وتموت النباتات...

فكيف يتم إنقاذ هذا الموقف؟

جعل الرزاق (سبحانه) الجاذبية الشعرية منقذة لهذا الموقف، وذلك بأن جعل كل طبقة رقيقة من الماء تعلق بكل حبة من حبيبات التربة تبطل بالماء، وكذلك يعلق الماء بين الحبيبات فتتمكن الجذور من الحصول عليه.

(١) سورة المؤمنون آية: ١٨. (٢) سورة الحج آية: ٥.

وقد تسحب الخاصية الشعرية الماء من مستوى الماء الأرضي فيرتفع داخل الفتحات الدقيقة الموجودة بين حبيبات التربة بنفس الطريقة التي يرتفع بها في أنبوبة رقيقة كالشعر .

لاحظ أن الرزاق (سبحانه) حفظ الماء حتى الآن مرتين مرة من الانفلات في الكون الفسيح خارج جاذبية الأرض ، وأخرى من التسرب في باطن الأرض . .

وماذا عن النبات وثماره؟

نبدأ أولاً بالحديث عن الحب والنوى من أين جاءت هذه البذور؟ لقد خلقها الرزاق (سبحانه وتعالى) وأودع فيها سر حياة كل نبتة ، وجعل في كل حبة وفي كل نواة غذاءً مدخراً تعتمد عليه النبتة حتى يستطيع عودها وتضرب في الأرض بجذورها فتأخذ غذاءها . ويشبه هذا النطفة الأولى التي يخلق منها الإنسان ، فهذه النطفة قبل أن تعلق برحم الأم تتغذى من خلية البويضه التي جعلها الله (عز وجل) أكبر خلية حية في الإنسان .

توضع الحبة في الأرض ، ويصب عليها الماء ، فتنفلق الحبة ويتجه الجذر إلى أسفل ، وينمو الساق إلى أعلى أي أن الجذر يتجه عكس الساق .

يقول العلماء إن الجذر يتجه إلى أسفل بفعل الجاذبية الأرضية ، والساق إلى أعلى نحو الشمس .

بيد أن علماء الفضاء تمكنوا في رحلات الفضاء من إنبات بعض البذور في مناطق إنعدام الوزن (خارج الجاذبيه) فوجدوا أن الجذر والساق يمتد كلاهما على نقيض صاحبه !

فسبحان الذي قدر فهدي .

وتسعى الجذور وتجد في باطن الأرض متفادية العوائق والصخور
فإن لم تستطع أن تتفادها أزاحتها عن طريقها، وإلا صبت عليها
أحماضاً لتذيبها!

وعلى الجذور شعيرات جذرية كثيرة العدد فارعة الطول، تتشابك
وتتغلغل في التربة، وتنتشر طولاً وعرضاً وعمقاً، وهذه الشعيرات
والجذور تمتص المعادن والماء من الأرض.

والآن قل لنا كيف يصنع النبات الغذاء؟

في الخلية النباتية مادة خضراء تسمى (الكلوروفيل) أو ما يطلق عليه
اسم اليخضور. وهو يوجد في أجسام صغيرة داخل الخلية تسمى
البلاستيدات الخضراء، ويقوم اليخضور بعملية التمثيل الضوئي التي
يتم فيها فصل الكربون عن الأوكسجين فيلفظ الثاني ليتنفسه الإنسان
والحيوان، ويحتفظ بالأول ليصنع منه الغذاء وقد توصل العلماء إلى أن
«الخلية الخضراء الواحدة تقوم ببناء عشرين مركباً عضوياً في دقيقة
واحدة إذ عُرِضَت للشمس، وتلك المركبات مختلفة الأنواع منها
السكريه، والأحماض الأمينية التي عجز العلم الحديث عن تحضيرها
صناعياً بنفس الصفة أو الصورة».

فمن الذي يدفع تلك الخلايا للقيام بتلك المهمة الصعبة؟!

فهل هناك مصنعٌ على ظهر الأرض يستطيع أن يصنع مثلما تصنع
الخلية الخضراء؟!

أنه بدون هذه المادة الخضراء لا تقوم حياة على الأرض، فهذا
اليخضور يحول التراب والهواء والأملاح إلى برتقال وتفاح وعنب
وقمح وأرز وآلاف الأصناف والأنواع من المحاصيل والثمار! فما
أعجبه من ساحر!

وقد شاء الرزاق (سبحانه) فكرمنا بأن جعلنا لا نأكل التراب والأزوت والأملاح، وإنما صمم لها مصنعاً في الورقة الخضراء في النبات ليحول لنا هذه المواد إلى طعام شهوي وفاكهة نضيجة!

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ (١) حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٢).

وعندما تنضج الثمرة يتغير لونها، وكأنها تقول للإنسان صرت طازجة فخذني لتأكلني!

يقول سيد قطب - رحمه الله - «إن إنبات حبة واحدة يحتاج إلى القوة المهيمنة على هذا الكون كله لتسخر أجرامه وظواهره في إنبات هذه الحبة وإمدادها بعوامل الحياة من تربة وماء وأشعة وهواء . . . وإن أقل «رزق» يرزقه الإنسان في هذا الكون يقتضي تحريك أجرام هذا الكون وفق ناموس يوفر مئات الآلاف من الموافقات المتواكبة المتناسقة التي لولاها لم يكن لهذا الكائن ابتداء وجود ولم تكن له بعد وجوده حياة وامتداد» (٣).

وهناك رزق آخر في النبات يجب على الإنسان أن ينتفع به إلا وهو الجمال، فالألوان المتناسقة في الزهور والثمار فيها إبداع وجمال، فتتسبك الألوان، وتداخل الخطوط، وتنظيم الأوراق يبدو معجزة باهرة.

ومن أروع ما في الكون من جمال خضرة النبات، فاللون الأخضر

(١) أي من الخضرا واليخضور. (٢) سورة الأنعام آية ٩٩.

(٣) سيد قطب، في ظلال القرآن، المجلد الرابع، ص ٢١٠٧.

يجلب السرور إلى النفس، ويثير فيها البهجة، ويظهر جمال الحياة.
وقد جاء في الأثر: ثلاث يذهبن الحزن: الماء، والخضرة، والوجه الحسن.

قال تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ دَاثَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدُلُونَ﴾ (١).

أرأيت أيها القاريء معي كم من الجنود قد سخرُوا لك من أجل طعامك وشرابك؟

الرياح - المطر - الأملاح - الشمس - السحاب - الجبال - جاذبية الأرض - التربة - الجاذبية الشعرية - الحب والنوى - الجذور - اليخضور . . .

كل هؤلاء الجنود وغيرهم مما لا يعلمهم إلا خالقهم، من الذي سخرهم ليعدوا لك رزقك؟

استمع إلى الرزاق: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ . أَنَا صَبَّيْنَا الْمَاءَ صَبًّا . ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا . فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا . وَعَبًّا وَقُضْبًا . وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا . وَحَدَائِقَ غُلْبًا . وَفَاكِهَةً وَأَبًّا . مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ (٢).

وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ . وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لِّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ . رِزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ (٣).

فمن السماء أرزاق، ومن سطح الأرض أرزاق وفي جوفها أرزاق، ومن سطح الماء أرزاق وفي أعماقه أرزاق. ومن أشعة الشمس أرزاق

(١) سورة النمل آية: ٦٠. (٢) سورة عبس آية (٢٤-٣٠).

(٣) سورة ق آية (٩-١١).

ومن ضوء القمر أرزاق . حتى عفن الأرض كشف فيه عن دواء وترياق^(١) .

والآن كيف يوزع الرزاقُ المقيت هذه الأرزاق داخل جسم الإنسان؟
عندما نتناول الطعام ، يدخل تجويف الفم ، فتقوم الأسنان بتقطيعه وتمزيقه وطحنه فيفتفت إلى أجزاء صغيرة بتأثير الفكين والأسنان واللسان ويمتزج باللعاب الذي يرطب ، ويسهل انزلاق جزيئات الغذاء في القناة الهضمية . كما يساعد اللسان في عملية مزج الطعام باللعاب .
ثم يقوم اللسان بعدئذ بدفع البلعة الغذائية إلى مؤخرة التجويف الفمي أى إلى البلعوم الذي هو ملتقى لطريقي الهضم والتنفس ، ثم يمر الغذاء إلى المريء ويمنع من دخوله القصبة الهوائية بواسطة جندي إلهي هو لسان المزمار . . . ففي دخوله الموت العاجل . . .

ومن المريء يمرّ الغذاء في المعدة التي توجد أسفل الحجاب الحاجز على يسار التجويف البطني من الجسم ، وتبطن جدار المعدة عضلات قوية تنقبض بقوة فتمزق الغذاء بالعصارة المعدية . حيث يصبح الغذاء شبه سائل .

وهل يصبح جاهزاً ليمتصه الجسم عند هذا الحد؟

لا لأن هناك ماكينات في انتظار الطعام لأداء وظيفتها تجاهه !

ثم يمرّ الغذاء إلى الأمعاء الدقيقة وطولها ستة أمتار ، وتصب في بدايتها إفرازات الكبد والبنكرياس ، وفي هذه الماكينة (الأمعاء الدقيقة) يتم هضم المواد الغذائية نهائياً وتحويلها إلى جزيئات صغيرة يسهل على جدران الأمعاء الدقيقة امتصاصها ودفعها في الدم .

(١) سيد قطب، مرجع سابق، ص ١٧٨١ .

أما المواد الغذائية غير المهضومة فتتمر إلى الأمعاء الغليظة ، ويبلغ طولها حوالي ١٧٠ سم ، حيث تطرد من فتحة الشرج على شكل براز .

والسؤال : كيف يتحرك الغذاء في القناة الهضمية ؟ وكيف يتم تنظيم مروره من ماكينة إلى أخرى ؟

يتحرك الغذاء في القناة الهضمية عن طريق انقباضات متتالية للعضلات الموجودة في جدار هذه القناة ، ويطلق على هذه السلسلة المتتالية من الحركات اسم الحركة الدودية .

أما تنظيم مرور الغذاء من المريء إلى المعدة ومن المعدة إلى الأمعاء الدقيقة ، فيتم بواسطة عضلات حلقة تعمل عمل الصمامات . عندما يفتح الصمام تتحرك جزيئات الغذاء من منطقة إلى أخرى . كما توجد عضلة حلقة أخرى عند فتحة الشرج تضبط مرور فضلات الغذاء إلى الخارج وقت الإرادة .

كيف يتم توصيل الطعام من الأمعاء الدقيقة إلى خلايا الجسم ؟

يطن جدار الأمعاء الدقيقة من الداخل زوائد صغيرة تدعى بالخملات وتمر الجزيئات الغذائية الصغيرة من خلال الخملات إلى الدم . ويوجد في الملمتر الواحد حوالي ٢٠ - ٤٠ خملة ، والمساحة الإجمالية لجميع الخملات هي حوالي ٣٠٠ م^٢ . وتحتوي كل خملة على شعيرات دموية وأوعية لمفاوية . فتمر السكاكر البسيطة ، والأحماض الأمينية والجلسرين والأملاح المعدنية والفيتامينات في الشعيرات الدموية . وتقوم الأوعية اللمفاوية بطرح الأحماض الدهنية إلى مجرى الدم .

يحمل الدم نواتج هضم المواد الغذائية إلى الخلايا حاملاً معه الأكسجين الذي يتحد عند دخوله إلى الدم مع صبغة حمراء توجد في

كريات الدم الحمراء تعرف بالهيموجلوبين مكوناً بذلك مركباً جديداً يعلاف بأكسيهيموجلبين

ويتنقل الدم إلى خلايا وأنسجة الجسم حاملاً معه الغذاء والأكسجين، فيقوم الأكسجين بأكسدة المواد الغذائية وإنتاج الطاقة . . . أو تتحد هذه المواد الغذائية مع بعضها مكونة المواد اللازمة للنمو ولتعويض الأنسجة التالفة . . .

فمن الذي صمم هذه الأجهزة المحكمة لتعضم وتوزع هذه الأرزاق؟

وكلّ خلية من هذه الخلايا مدينة قائمة بذاتها محاطة بأسوار عالية، وهي تطلب ما تحتاجه ويقوم غشاؤها بمهمة الحارس الأمين، فهو يتلقى الأوامر باحتياجات الخلية، ومن ثم لا يسمح بدخول أي مواد غير التي تحتاجها.

وإذا كان جسم الإنسان يتكون من مليارات الخلايا، وكلّ خلية مدينة كاملة بمرافقها من ماء وكهرباء وصحة وغذاء وإداره وحراسه فمعنى هنا أن اللقيمات الي يأكلها الإنسان هي غذاء وقوت للمليارات المدن بداخله.

فمن الذي يوصل هذه الأقوات إلى هذه المليارات؟! إن الإنسان عندما يقذف اللقمة في جوفه لا يدري ما يحدث لها إنه ينام ملء جفونه، وقد يعمل، وقد يركض ويلعب، ولا شأن له بما أكله. فمن الذي يتولى شأن هذا الطعام في جوف الإنسان حتى يوصله إلى طالبه ومستحقه؟!

والإنسان ليس وحده الذي يأكل ويشرب ويقتات في هذا الكون . . . فهناك ملايين الملايين من الأحياء ابتداء من ذوي الخلية

الواحدة في النبات والحيوان وانتهاء بالإنسان - في برها وبحرها وجوها - وكل هذه المخلوقات منكبه كل يوم بل كل ساعة بل كل دقيقة على هذه المائدة الأرضية التي أعدّها الرزاق المقيت وعمرّها بأنواع الطعام الذي لا ينفد ولا ينضب فيتناول كل مخلوق ما يقيته ، ويأكل منها رزقه الذي يناسبه .

قال تعالى : ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ (١) .

وقد أورد ابن خلكان في وفيات الأعيان أن ابن بابشاذ النحوي كان يوماً في سطح جامع مصر وهو يأكل شيئاً وعنده ناس ، فحضرهم قط فرموا له لقمه فأخذها في فمه وغاب عنهم ، ثم عاد إليهم ، فرموا له شيئاً آخر ، ففعل كذلك ، وتردد مراراً . . . وهم يرمون له وهو يأخذ ويغيب به ثم يعود من فوره . . . حتى عجبوا منه . . . فلما استرابوا في الأمر تبعوه ، فوجدوه يرقى إلى حائط في سطح الجامع ثم ينزل إلى موضع خال في بيت خرب وفيه قط آخر أعمى ، وكل ما يأخذه من الطعام يحمله إلى ذلك القط ويضعه بين يديه وهو يأكل (٢) .

فسبحان الرزاق الرزاق!

فنعم الوهاب الرزاق لا تعد ولا تحصى ، فكم من سائل رفع يديه فأعطاه ما سأل ، وأحسن إليه وأكرمه .

فإبراهيم (عليه السلام) سأل ربه : ﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَالْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ (٣) . وسأله : ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (٤) .

(١) سورة هود آية : ٦ .

(٢) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج ٢ ، ص ٥١٦ .

(٣) سورة الشعراء آية : ٨٣ . (٤) سورة الصافات آية : ١٠٠ .

فوهب له الوهاب ما سأل فقد آتاه العلم والنبوة، والحقه بالصالحين. قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (١).

ووهب له من الصالحين قال تعالى: ﴿فَبَشِّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ (٢).
وقال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾ (٣).
ودعا زكريا (عليه السلام) ربه قائلاً: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ (٤).

فاستجاب الله له ووهبه يحيى (عليه السلام) قال تعالى: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَاهُ لَهُ زَوْجَهُ﴾ (٥).

ودعا سليمان (عليه السلام) ربه: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَبْغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ (٦).

فاستجاب الله له ووهبه ما سأل: ﴿فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ . وَالشَّيَاطِينُ كُلُّ بَنَاءٍ وَغَوَاصٍ . وَآخِرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ . هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ . وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحَسَنَ مَّآبٍ﴾ (٧).

ونجد في سورة الأنبياء الصفات التي يستحق بها الإنسان استجابة دعائه في الحال. وجاءت هذه الصفات تعقيباً على إجابة دعاء زكريا (عليه السلام).

قال تعالى: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَاهُ لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ (٨).

* إنهم كانوا يسارعون في الخيرات فهم لا يفعلون الخيرات فقط،

(١) سورة النحل آية: ١٢٢ . (٢) سورة الصافات آية: ١٠١ .

(٣) سورة الأنبياء آية: ٧٢ . (٤) سورة آل عمران آية: ٣٨ .

(٥) سورة الأنبياء آية: ٩٠ . (٦) سورة ص آية: ٣٥ .

(٧) سورة ص آية (٣٦-٤٠) . (٨) سورة الأنبياء آية: ٩٠ .

وإنما يسارعون فيها . فسارع الله في استجابة دعائهم .

* ويدعوننا رغبا ورهبا أي رغبة في رحمتنا ورهبة من عذابنا ، فهم يجمعون في دعائهم بين الرجاء والخوف .

* وكانوا لنا خاشعين ، أي خاضعين غير متكبرين ، والخشوع هو قيام القلب بين يدي الرب بالخضوع والذل .

وبهذه الصفات استحقوا إجابة دعائهم ، وإعطائهم ما طلبوا : فمن أراد أن يكرمه الله مثلهم فليتحل بمثل صفاتهم .

وقد روى ابن أبي حاتم عن عبد الله بن حكيم قال خطبنا أبو بكر الصديق (رضي الله عنه) ثم قال أما بعد فإني أوصيكم بتقوى الله وتشتوا عليه بما هو له أهل ، وتخلطوا الرغبة بالرهبة وتجمعوا الإلحاف بالمسألة ، فإن الله عز وجل أثنى على زكريا وأهل بيته فقال : «إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين» (١) .

وإذا كان الوهاب الرزاق (سبحانه وتعالى) ، قد بين لنا هذه الصفات لتعلق به وننال هبة الوهاب ، فإنه سبحانه قد بين لنا أيضاً أسباب نيل الرزاق ، ومن هذه الأسباب :

١ - السعي والكد في الأرض .

قال تعالى : ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ (٢) .

وقال تعالى : ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ (٣) .

وليس هناك أفضل ولا أشرف من أنبياء الله (عز وجل) ، وكانت لكل منهم حرفة وسعي وكد في الأرض لنيل الرزق .

(١) ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، ح ٣ ، ص ١٩٤ .

(٢) سورة الملك آية : ١٥ . (٣) سورة الجمعة آية : ١٠ .

ويذكر محمد الوصابي أنه «كان لكل واحد من الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام) حرفة يعيش بها فكان آدم حراثاً وحائكاً، وكانت حواء غزاة، وكان إدريس خياطاً وخطاطاً، وكان نوح وزكريا نجارين، وهود وصالح تاجرين، وكان إبراهيم زراعاً وبنّاءً ونجاراً، وكان داود حداداً، وكان سليمان خوّاصاً، وكان موسى وشعيب ومحمد (ﷺ) وسائر الأنبياء عليهم السلام رعاة» (١).

وقد حثّ رسول الله (ﷺ) على العمل والسعي في الأرض فقال: «لأن يأخذ أحدكم أحبله ثم يأتي الجبل، فيأتي بحزمة من حطب على ظهره فيبيعها، فيكف الله بها وجهه، خير له من أن يسأل الناس، أعطوه أو منعوه» (٢).

وقال (ﷺ) «ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان به صدقة» (٣).

والسعي والكد والتماس الأسباب في طلب الرزق لا ينافي التوكل؛ لأن التوكل سبب من الأسباب، بل هو من أقوى الأسباب في حصول المتوكل فيه، فهو كالدعاء الذي جعله الله سبباً في حصول المدعوه.

والتوكل عمل قلبي، أساسه تعلق القلب بالله عز وجل، واعتماده عليه، وثقته به وسكونه إليه. وهو لا يصح إلا مع القيام بالأسباب التي هو واحد منها. وكما قيل: القلب يتوكل والجوارح تعمل.

وهذا سيد المتوكلين محمد (ﷺ) لم يترك شيئاً من الأسباب: فقد

(١) محمد الوصابي، البركة في فضل السعي والحركة، ص ٦.

(٢) رواه البخاري (٢٦٥/٣) ومسلم والنسائي.

(٣) رواه البخاري (٢/٥) ومسلم (١٥٥٢).

استأجر دليلاً مشركاً يده على طريق الهجرة، وكان يدّخر لأهله قوت سنه، وكان إذا سافر في جهاد أو حج أو عمرة حمل الزاد والمزاد، وهكذا أكان أصحابه، وهم أكمل المتوكلين بعده (١).

وبذلك تنقطع حجة الكسالى والمتواكلين.

٢- الاستغفار والتوبة :

قال تعالى: ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا . يُرْسِلَ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا . وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴾ (٢).

وقال تعالى على لسان هود (عليه السلام): ﴿ يَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ ﴾ (٣).

وقد جاء في الأثر: أن رجلاً شكاً إلى الحسن البصري الجذب فقال له: استغفر الله، وشكاً إليه آخر الفقر، فقال له: استغفر الله، وشكاً إليه ثالث: جفاف بستانه فقال له: استغفر الله، وشكاً إليه رابع: عدم الولد، فقال له: استغفر الله. ثم تلا الآية: ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا . يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا . . . ﴾ (٤).

والمعاصي تحجب النعم، وتضييق الأرزاق، وتوجب لعنه دواب الأرض وهوامها:

قال أبو هريرة (رضي الله عنه): «إن الحباري لتموت في وكرها من ظلم ظالم وقال مجاهد: إن البهائم تلعن عصاة بني آدم إذا اشتدت السنة، وأمسك المطر، وتقول هذا بشؤم معصية بني آدم».

(١) ابن القيم، مدارج السالكين، ج ٢، ص ١٣٥.

(٢) سورة نوح آية (١٠-١٢).

(٣) سورة هود آية: ٥٢.

(٤) سورة نوح آية: ١٠.

وقال عكرمة: دواب الأرض وهوامها حتى الخنافس والعقارب يقولن «منعنا القطر بذنوب بني آدم» (١).

وقال أنس بن مالك: «إن الضب في جحرة يموت هزلاً بذنب ابن آدم» (٢).

٣ - شكر الرزاق:

وشكر الرزاق سبحانه مبني على خمس قواعد: الخضوع له، وحبه، واعترافه بنعمته، وثنائه عليه بها، وأن لا يستعملها فيما يكره.

فيبدأ الشكر بالخضوع للرزاق (سبحانه) ومحبه لتوالي أياديه ونعمه وعطاياه. ثم الاعتراف بالنعمة والثناء على المنعم، والثناء على المنعم نوعان: عام، وخاص: فالعام: وصفه بالجود والكرم، والبر والإحسان، وسعة العطاء، ونحو ذلك. والخاص: التحدث بنعمته، والإخبار بوصولها إليه من جهته. كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ (٣).

فالتحدث بنعمة الله (عز وجل) شكر. وفي الأثر: «من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله». والتحدث بنعمة الله شكر. وتركه كفر، والجماعة رحمة. والفرقة عذاب.

وبعد الاعتراف بالنعمه والثناء على المنعم يأتي استعمال النعمة في طاعة المنعم لا في معاصيه. فيستعين بالنعمة على طاعة المنعم ومرضاته، وهذا من تمام حقيقة الشكر، وقد كتبت عائشة (رضي الله عنها) إلى معاوية (رضي الله عنه): «إن أقل ما يجب للمنعم على من

(١) ابن القيم الجوزية، الجواب الكافي، ص ١٦.

(٢) ابن قتيبة، تأويل مشكل الحديث، ص ٢٣٣.

(٣) سورة الضحى آية: ١١.

أنعم عليه : أن لا يجعل ما أنعم عليه سبيلاً إلى معصيته» (١).

وقد أمر الرزاق (سبحانه وتعالى) بشكره على نعمه، وجعل شكر النعم سبباً في زيادتها، وكفرها إيداناً بتحولها وزوالها، قال تعالى : ﴿فَأَوَّكُم وَأَيْدُكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٢).

وقال تعالى : ﴿كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ (٣).

وقال تعالى : ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ (٤).

فشكر النعمة يزيدها، وكفر النعمة أي سترها وجحدها يحققها ويذهبها وفي الآخرة عذاب شديد.

وكثير من الناس ينسبون النعم التي عندهم إلى العلم والخبرة والكد الشخصي والسعي الدءوب ! وهذا كله كفر بنعمة الله، فالعلم والخبرة والكد كلها أيضاً من نعم الله عز وجل. فالنعم أولاً وآخرها هو الله عز وجل.

ويتساءل البعض : من الناس من لا يشكر النعم، ومع ذلك فهي باقية، وهم يظنون أن العذاب الشديد في الآية يقتصر على محق النعمة فقط وذهابها. ولا يدرون أن العذاب الشديد قد يكون في نزع البركة من النعمة، وتحولها إلى نقمة على صاحبها فيشقى بها، ويتمنى لو لم تأت. وقد يكون العذاب الشديد انتقام أجل في الدنيا أو في الآخرة. ولكنه واقع واقع لأنه وعد من صادق. فكفر النعمة لا يمضي بلا جزاء.

(١) ابن القيم، مدارج السالكين، ح ٢، ص ٢٥٣ : ٢٤٤.

(٢) سورة الأنفال آية : ٢٦. (٣) سورة سبأ آية : ١٥.

(٣) سورة إبراهيم آية : ٧.

فشكر النعم يحفظها ويزيدها، وكفرها يضيعها ويزيلها.

٤ - الإنفاق من هذا الرزق:

وهذا فرع من فروع الشكر على النعم؛ لأن الإنفاق منها شكر لها.

وقد حثنا الرزاق (سبحانه وتعالى) على الإنفاق من الأرزاق في كثير من الآيات القرآنية، قال تعالى: ﴿أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةَ وَلَا شَفَاعَةَ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (١).

وقال تعالى: ﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴾ (٢).

وقد وعد (سبحانه وتعالى) أن يخلف ما ينفق.

قال تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ (٣).

وبين أن البذل والإنفاق في سبيله يعود على صاحبه عاجلاً أم آجلاً.

قال تعالى: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ (٤).

وبين رسول الله (ﷺ) أن النفقة لا تنقص المال.

عن أبي هريرة (رضي الله عنه) أن رسول الله (ﷺ)، قال: «ما نقصت صدقة من مال، وما زاد عبد بعفو إلا عزاً، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله عز وجل» (٥).

(١) سورة البقرة آية: ٢٥٤.

(٢) سورة إبراهيم آية: ٣١.

(٣) سورة سبأ آية: ٣٩.

(٤) سورة البقرة آية: ٢٧٢.

(٥) رواه مسلم (٢٥٨٨).

والنفوس السخية، والأكف الندية يضاعف لها في رزقها ويغفر لها.

قال تعالى: ﴿إِنْ تَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يَضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ (١).

والرزاق (سبحانه وتعالى) في عون المتصدق ييسر له الأسباب، ويسوق له السحاب:

عن أبي هريرة (رضي الله عنه) عن النبي (ﷺ) قال: بينما رجل يمشي بفلاة من الأرض فسمع صوتاً في سحابة اسق حديقته فلان، فتنحي ذلك السحاب فأفرغ ماءه في حرة، فإذا شرجة من تلك الشراج قد استوعبت ذلك الماء كله، فتبع الماء، فإذا رجل قائم في حديقته يحول الماء بمسحاته، فقال له: يا عبد الله ما اسمك؟ قال: فلان للاسم الذي سمع في السحابة، فقال له: يا عبد الله لم تسألني عن اسمي؟ فقال: إني سمعت صوتاً في السحاب الذي هذا ماؤه يقول: اسق حديقة فلان لاسمك، فما تصنع فيها؟ فقال: أما إذا قلت هذا، فإني أنظر إلى ما يخرج منها، فأصدق بثلاث، وأكل أنا وعيالي ثلثاً، وأرد فيها ثلثه» (٢).

٥ - تحري الرزق الحلال والبعد عن الحرام:

فالرزق كما سبق منه حلال ومنه حرام. والمؤمن يتحرى ولا يأكل إلا من الرزق الحلال.

بتلعتها دفعة يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله إن

(١) سورة التغابن آية: ١٧.

(٢) رواه مسلم في كتاب الزهد والرفائق باب الصدقة في المساكين.

كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١﴾ .

والأكل من الحلال سبب لتقبل الدعاء والعبادة، كما أن الأكل من الحرام يمنع قبول الدعاء والعبادة .

عن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال : قال رسول الله (ﷺ) «أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال : «يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم» وقال : «يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم» ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر، يمد يديه إلى السماء يارب، يارب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وقلبه حرام، وغذي بالحرام فأنى يستجاب لذلك» (٢) .

فالإنفاق الذي هو سبب غناء المال والبركة في الرزق لا يقبل إذا كان من حرام : فالله طيب لا يقبل إلا طيباً» وقد ضرب لنا رسول الله (ﷺ) المثل الأعلى في الورع وترك الشبهات، فقد وجد تمرة في الطريق، فقال : «لولا أنني أخاف أن تكون من الصدقة لأكلتها» (٣) .

وهذا أبو بكر الصديق (رضي الله عنه) يستقي ما في بطنه خوفاً من الحرام :

عن عائشة (رضي الله عنها) قالت كان لأبي بكر الصديق (رضي الله عنه) غلام يخرج له الخراج وكان أبو بكر يأكل من خراجها، فجاء يوماً بشيء، فأكل منه أبو بكر، فقال له الغلام : تدري ما هذا؟ فقال أبو بكر : وما هو؟ قال : كنت تكهنت لإنسان في الجاهلية، وما أحسن

(١) سورة البقرة آية : ١٧٢ .

(٢) رواه مسلم (١٠١٥)، وغيره .

(٣) متفق عليه (البخاري ٦٣/٥، مسلم برقم (١٧٠١) .

الكهانة إلا أنني خدعته، فلقيني، فأعطاني لذلك هذا الذي أكلت منه، فأدخل أبو بكر يده فقاء كل شيء في بطنه» (١).

﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْحَقِّنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ ب م .

﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ (٣).

﴿ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ (٤).

﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ (٥).

اللهم أغثنا بحلالك عن حرامك، وبفضلك عمن سواك .

اللهم اغفر لي ذنبي، ووسع لي داري، وبارك لي في رزقي (٦).

اللهم اجعل أوسع رزقك عليّ عند كبر سني، وانقطاع عمري (٧).

اللهم اجعلنا ممن يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب .

اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك، وتحول عافيتك، وفجاءة نقمتك، وجميع سخطك (٨).

* * *

(١) رواه البخاري (١١٧/٧). (٢) سورة الشعراء آية : ٨٣ .

(٣) سورة آل عمران آية : ٨ . (٤) سورة الفرقان آية : ٧٤ .

(٥) سورة آل عمران آية : ٣٨ .

(٦) رواه أحمد ٦٣/٤ وانظر صحيح الجامع ١/٣٩٩ .

(٧) رواه الحاكم ١/٥٤٢ وانظر سلسله الأحاديث الصحيحه برقم ١٥٣٩ .

(٨) أخرجه مسلم ٤/٢٠٩٧ .

الفهرس

الموضوع	الصفحة
١ - مقدمه الأستاذ الدكتور عبد الرحمن المحمود .	٧
٢ - مقدمه المؤلف .	١٣
٣ - القواعد المثلى لمعرفة أسماء الله الحسنى .	١٩
أولاً: أسماء الله كلها حسنى .	٢١
ثانياً: الفرق بين أسماء الله الحسنى وصفاته العلا .	٢٣
ثالثاً: الفرق بين أسماء الله الحسنى والإخبار عنه .	٢٤
رابعاً: نصوص أسماء الله الحسنى محكمه .	٢٦
خامساً: أسماء الله الحسنى ليست محصورة بعدد .	٢٧
سادساً: لم يثبت حديث صحيح في تعيين الأسماء الحسنى .	٢٩
سابعاً: تفاضل أسماء الله الحسنى .	٣٥
ثامناً: الاسم الأعظم .	٣٧
تاسعاً: معنى إحصاء أسماء الله الحسنى .	٤٢
عاشراً: أركان الإيمان بأسماء الله الحسنى .	٤٦
حادي عشر: دلالات أسماء الله الحسنى .	٥٤
ثاني عشر: معنى الإلحاد في أسماء الله الحسنى .	٥٥
ثالث عشر: ضوابط عد أسماء الله الحسنى من الكتاب والسنة .	٦٠
في رحاب أسماء الله الحسنى .	٦٩

الله (جل جلاله)

(٩)

- * خصائص هذا الاسم . ٧٢
- * وجود الله عز وجل بين الفطرة والدليل . ٧٣

الصفحة

الموضوع

- ٨٧ * حدود العقل البشري
- ٧٩ * الحب والتعظيم لا يكون إلا لله .
- ٨٢ * الاعتزاز لا يكون إلا بالله .
- ٨٣ * عبودية غير الله سفه .
- ٨٤ * الإكثار من ذكر الله .
- ٨٥ * دعاء .

الإله الحق

٣ ٢

- ٨٦ * معنى الإله .
- ٨٧ * ورد هذا الاسم في القرآن الكريم .
- ٨٨ * معنى الحق .
- ٨٩ * ورود هذا الاسم في القرآن الكريم .
- ٩٠ * جميع المخلوقات مفتقرة إلى الإله الحق .
- ٩١ * لا ملجأ للعبد إلا إليه (سبحانه وتعالى) .
- ٩٢ * الله هو الإله الحق وكل ما يأتي منه حق .
- ٩٣ * إخلاص العبودية لله الحق .
- ٩٤ * أصل عباده الإله الحق محبته .
- ٩٤ * كيف تتحقق هذه المحبة ؟ .
- ٩٥ * أصح القلوب وأسلمها .
- ٩٦ * كمال التوحيد وقوامه ثلاثة أشياء .
- ٩٧ * دعاء .

الصفحة

الموضوع

الواحد الأحد الوتر

٦ ٥ ٤

- ٩٨ * معنى الواحد .
- ٩٨ * وروده في القرآن الكريم .
- ٩٩ * معنى الأحد .
- ١٠٠ * وروده في القرآن الكريم .
- ١٠١ * الفرق بين معنى الواحد والأحد .
- ١٠٢ * معنى الوتر .
- ١٠٢ * وروده في الحديث الصحيح .
- ١٠٣ * أدلة القرآن الكريم لإثبات التوحيد .
- ١٠٣ * الدليل الإقراري .
- ١٠٣ * الدليل العقلي .
- ١٠٣ * التفكير في المخلوقات .
- ١٠٤ * الأدلة الكونية على التوحيد .
- ١٠٤ * وحدة الشكل .
- ١١٠٤ * وحدة الحركة .
- ١٠٥ * وحدة البناء .
- ١٠٥ * وحدة أسس الحياة .
- ١٠٦ * ترابط المخلوقات .
- ١٠٨ * التعاون والتأزر .
- ١٠٩ * التشابه والتمايز .
- ١٠٩ * التوحيد أساس دعوة الرسل .

الصفحة

الموضوع

- * نوعا التوحيد . ١١٠
- * توحيد الربوبية . ١١٠
- * توحيد الألوهية . ١١١
- * أركان توحيد الألوهية . ١١١
- ١- الإخلاص في العبودية . ١١١
- ٢- الحكم لا يكون إلا لله . ١١٤
- ٣- الكفر بالطواغيت . ١١٤
- ٤- اتقاء الشرك بنوعيه (الأكبر والأصغر) . ١١٥
- * أمور تقدر في التوحيد . ١١٩
- * سوء الظن بآء . ١١٩
- * الاستهزاء بشيء فيه ذكر الله . ١٢٠
- * نسبة النعم إلى غير الله . ١٢١
- * دعاء . ١٢٢

الحى القيوم

٨ ٧

- * معنى الحى . ١٢٣
- * أنواع الحياة . ١٢٣
- * ورود اسم الحى في القرآن الكريم . ١٢٥
- * معنى القيوم . ١٢٥
- * ورود الاسم في القرآن الكريم . ١٢٦
- * ظهور الحياة في المادة الصماء من آثار المحيى (سبحانه) . ١٢٧
- * تحدي الخلق في خلق ذبابة . ١٢٨

الصفحة

الموضوع

- * أدلة القرآن على إحياء الموتى . ١٢٨
- * الإعادة أهون من البدء . ١٢٩
- * طلاقة قدرة الله (عز وجل) . ١٣٠
- * إخراج الأشياء من أضدادها . ١٣٠
- * تطور خلق الإنسان . ١٣٠
- * النوم واليقظة . ١٣١
- * إحياء الأرض الموات . ١٣٢
- * نماذج مشاهده . ١٣٣
- * وما أمر الساعة إلا كلمح البصر . ١٣٥
- * من آثار القيوم . ١٣٦
- * قيام الموجودات وتعاقبها . ١٣٧
- * سفينة الأرض في عباب الكون . ١٣٨
- * إمساك السموات والأرض . ١٣٨
- * الإخلاص للحي القيوم . ١٤٠
- * التوكل على الحي القيوم . ١٤٢
- * الدعاء بالحي القيوم . ١٤٣
- * دعاء . ١٤٥

السبح القدوس

١٠ ٩

- * معنى السبوح . ١٤٦
- * ورود هذا الاسم في الحديث الصحيح . ١٤٦
- * معنى القدوس . ١٤٦

الصفحة

الموضوع

- * وروده في القرآن الكريم . ١٤٧
- * الله منزّه عن النقائص في أسمائه وصفاته وأقواله وأفعاله . ١٤٧
- * وهو منزّه أيضا عن النقص والقصور في صنّعه . ١٤٧
- * ليس في الكون عبث أو قصور . ١٤٨
- * إتقان صنّعه جسم الإنسان . ١٤٩
- * تنزيه الله عز وجل من أصل الإيمان . ١٥١
- * وصف الله بكل كمال مع الإجلال والتعظيم . ١٥١
- * تطهير القلب من الأدراّن . ١٥١
- * الشرك والتنزيه لا يجتمعان . ١٥١
- * سوء الظن والتنزيه لا يجتمعان . ١٥٢
- * ذكر السبوح القدوس في الركوع والسجود . ١٥٣
- * دعاء . ١٥٣

السلام الطيب

١٢ ١١

- * معنى السلام . ١٥٤
- * ورود الاسم في القرآن الكريم . ١٥٤
- * الله هو السلام الحق بكل اعتبار . ١٥٥
- * السلامة والإسلام من السلام . ١٥٦
- * من آثار السلام سلامة المؤمنين . ١٥٧
- * ومن آثار السلام النجوم والمجرات تسبح بلا اصطدام . ١٥٩
- * ومن آثار السلام تعاون أجهزة الإنسان . ١٥٩
- * معنى الطيب . ١٦٠

الصفحة

الموضوع

- * ورود الاسم في الحديث الصحيح . ١٦٠
- * الله عز وجل طيب لا يقبل إلا طيباً . ١٦١
- * تنزيه السلام الطيب . ١٦٢
- * القلب السليم وإفشاء السلام . ١٦٣
- * المؤمن طيب لا يختار إلا الطيب . ١٦٤
- * دعاء . ١٦٥

السيد الصمد

١٤ ١٣

- * معنى السيد . ١٦٦
- * ورود هذا الاسم في الحديث الصحيح . ١٦٦
- * معنى الصمد . ١٦٦
- * ورود هذا الاسم في القرآن الكريم . ١٦٨
- * الاستعانة لا تكون إلا بالصمد . ١٦٩
- * لا يُدعى ولا يُرجى إلا الصمد . ١٦٩
- * نعم السيد الصمد الله في الدنيا والآخرة . ١٧١
- * الصالحون لا يسألون غير السيد الصمد . ١٧٢
- * سؤال الخلق لا يباح إلا للضرورة . ١٧٣
- * الجنة لمن ترك السؤال . ١٧٤
- * دعاء الأحد الصمد . ١٧٦

العظيم

١٥

- * معنى العظيم . ١٧٧

الصفحة

الموضوع

- ١٧٨ * التعظيم نوعان .
- ١٧٩ * ورود هذا الاسم في القرآن الكريم .
- ١٧٩ * عظمة الله ليس لها حدود .
- ١٧٩ * من عظمتته ارتباط أجزاء الكون وترابطه .
- ١٨١ * تعظيم الله (عز وجل) حق على العباد، ومن تعظيمه :
- ١٨١ * تعظيم حرمانه .
- ١٨١ * تعظيم أسمائه وصفاته .
- ١٨٢ * عدم الإقسام عليه .
- ١٨٢ * عدم ذكره في موضع مهين .
- ١٨٢ * ترك الاستشفاع به على خلقه .
- ١٨٣ * عدم الحلف بغيره .
- ١٨٣ * تعظيم القرآن الكريم .
- ١٨٤ * ترك التسمي بأسماء فيها مشاركة له .
- ١٨٤ * إجلاله وتعظيمه في القلب .
- ١٨٥ * دعاء .

الجميل

١٦

- ١٨٦ * معنى الجميل .
- ١٨٦ * ورود هنا الاسم في الحديث الصحيح
- ١٨٦ * الله سبحانه جميل ذاتاً وأسماء وصفات وأفعالاً .
- ١٨٨ * الله نور السموات والأرض .
- ١٨٩ * من آثار الجمال في الكون والحياة .

الصفحة

الموضوع

- ١٨٩ * الجمال ينتظم كل مظاهر الكون .
- ١٩٠ * في الجماد جمال .
- ١٩٠ * في النبات جمال يثير الوجدان .
- ١٩١ * إبداع ورقة الشجرة وجمالها .
- ١٩٣ * جمال الأنعام .
- ١٩٤ * وفي خلق الإنسان وتصويره جمال .
- ١٩٥ * وأجمل ما خلق الجميل سبحانه الجنة ونعيمها .
- ١٩٧ * الله جميل ويحب الجمال .
- ١٩٨ * الرسول (ﷺ) يلبس أحسن الحلل .
- ١٩٨ * إحسان الشكل وجمال الهيئه من تعاليم الإسلام .
- ١٩٩ * النظافة والجمال من الإيمان .
- ١٩٩ * الطهارة عند الصلاة من الجمال .
- ٢٠٠ * دعاء .

الغني الواسع المجيد

١٩ ١٨ ١٧

- ٢٠١ * معنى الغني .
- ٢٠٣ * ورود الاسم في القرآن الكريم .
- ٢٠٤ * معنى الواسع .
- ٢٠٦ * ورود الاسم في القرآن الكريم .
- ٢٠٧ * معنى المجيد .
- ٢٠٨ * وروده في القرآن الكريم .
- ٢٠٨ * من آثار الغني الواسع المجيد .

الصفحة

الموضوع

- ٢٠٨ * الكون وما فيه من مخلوقات .
- ٢٠٩ * افتقار جميع المخلوقات .
- ٢٠٩ * الاستغناء لا يكون إلا بالله (عز وجل) .
- ٢١٠ * الخلق دائمو الافتقار إلى الله (عز وجل) .
- ٢١٢ * أحسن ما يتوسل به العبد الافتقار .
- ٢١٣ * المؤمن لا يسأل إلا الغني الواسع .
- ٢١٦ * دعاء .

العلي الأعلى المتعالي

٢٠ ٢١ ٢٢

- ٢١٧ * معنى العلي والأعلى .
- ٢١٧ * علو الله عز وجل ثابت .
- ٢١٨ * بالكتاب والسنة .
- ٢١٩ * بالعقل والفطرة .
- ٢١٩ * بالإجماع .
- ٢١٩ * علو الله (عز وجل) لا يخالف معيته .
- ٢٢١ * الفرق بين العلو والاستواء .
- ٢٢٢ * ورود العلي والأعلى والمتعالي في القرآن الكريم .
- ٢٢٣ * الفرق بين العلي والمتعالي .
- ٢٢٤ * سبح اسم ربك الأعلى الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى .
- ٢٢٤ * تضاعف المسلم أمام آثار العلي الأعلى .
- ٢٢٥ * التواضع وترك التكبر والتجبر .
- ٢٢٥ * مصير المتكبرين .

الصفحة

الموضوع

- ٢٢٥ * مرض التكبر موطنه النفوس الخربة .
- ٢٢٦ * المثل الأعلى في التواضع (محمد ﷺ) .
- ٢٢٧ * من تواضع السلف الصالح .
- ٢٢٨ * دعاء .

الكبير المتكبر

٢٤ ٢٣

- ٢٢٩ * معنى الكبير .
- ٢٢٩ * وروده في القرآن الكريم .
- ٢٣٠ * معنى المتكبر .
- ٢٣٠ * تكبر الحق محمود وتكبر الخلق مذموم .
- ٢٣١ * ورود الاسم في القرآن الكريم .
- ٢٣١ * من آثار الكبير المتكبر :
- ٢٣١ * إذلال المتكبرين .
- ٢٣٢ * هلاك المستكبرين .
- ٢٣٣ * المؤمن يتواضع ولا يتكبر .
- ٢٣٥ * التكبر مرض عضال .
- ٢٣٦ * تكبر الإنسان آتٍ من جهله .
- ٢٣٧ * دعاء .

العزیز

٢٥

- ٢٣٩ * العزة لها ثلاثة معانٍ .
- ٢٤٠ * العزیز لا يأتي في القرآن إلا مقترنا لماذا؟ .

الصفحة

الموضوع

- * من آثار العزيز سبحانه . ٢٤٢
- * هلال الجاحدين ونصر المؤمنين . ٢٤٢
- * الزلازل والبراكين تذكير من القوي العزيز . ٢٤٤
- * العزيز يعز من لجأ إليه واعتصم به . ٢٤٥
- * العزة لله جميعا . ٢٤٦
- * المؤمن لا يذل إلا للعزيز . ٢٤٧
- * دعاء . ٢٤٩

الأول الآخر الظاهر الباطن الوارث

٣٠ ٢٩ ٢٨ ٢٧ ٢٦

- * ورود الأول والآخر والظاهر والباطن في القرآن الكريم والحديث الصحيح . ٢٥٠
- * تفسير الرسول (ﷺ) للأول والآخر والظاهر والباطن . ٢٥٠
- * سبب العطف في هذه الأسماء . ٢٥١
- * معنى الوارث . ٢٥٢
- * وروده في القرآن الكريم . ٢٥٢
- * كل المخلوقات لها بدايه ولها نهاية . ٢٥٣
- * سبحانه الظاهر بعلوه وغلبته وقدرته . ٢٥٥
- * سبحانه الباطن يعلم السر وأخفى . ٢٥٥
- * سبحانه الوارث لكل شيء . ٢٥٥
- * ابن القيم وكيفية التعبد بهذه الأسماء . ٢٥٦
- * الفرار إلى الله والإعراض عما سواه . ٢٥٩
- * دعاء . ٢٥٩

الصفحة

الموضوع

الملك المليك

٣٢ ٣١

- ٢٦١ * معنى الملك .
- ٢٦١ * ورود الملك والمليك في القرآن الكريم .
- ٢٦١ * الفرق بين معني المليك والمالك .
- ٢٦٢ * الفرق بين ملكية الحق و ملكية الخلق .
- ٢٦٣ * كل المخلوقات مفتقرة إلى الملك الحق .
- ٢٦٥ * لا يُسأل إلا الملك الحق .
- ٢٦٥ * الحكم للملك الحق .
- ٢٦٧ * لا يسمى ملك الملوك إلا الله .
- ٢٦٩ * دعاء .

الجبار القاهر القهار

٣٥ ٣٤ ٣٣

- ٢٧٠ * الجبار له ثلاثة معان .
- ٢٧٢ * ورود هذا الاسم في القرآن الكريم .
- ٢٧٣ * جبروت الحق محمود وجبروت الخلق مذموم .
- ٢٧٣ * معنى القاهر القهار .
- ٢٧٤ * ورود الاسمين في القرآن الكريم .
- ٢٧٥ * من آثار الجبار .
- ٢٧٧ * جبر القلب الكسير .
- ٢٧٧ * إصلاح الجسد الضعيف .
- ٢٧٨ * من آثار القهار في عالم الإنسان .

الصفحة

الموضوع

- ٢٨١ * المؤمن يتضرع للجبار القهار .
 ٢٨٢ * جزاء المتجبرين .
 ٢٨٣ * المؤمن لا يخاف إلا من الجبار القهار .
 ٢٨٤ * دعاء .

القادر القدير المقتدر القوي المتين

٣٦ ٣٧ ٣٨ ٣٩ ٤٠

- ٢٨٢ * معنى القادر .
 ٢٨٥ * معنى القدير .
 ٢٨٦ * معنى المقتدر والفرق بينه وبين القادر والقدير .
 ٢٨٦ * طلاقة قدرة الله عز وجل .
 ٢٨٧ * معنى القوي .
 ٢٨٧ * معنى المتين .
 ٢٨٧ * الفرق بين معاني القادر والمقتدر والقوي والمتين .
 ٢٨٨ * وزود هذه الأسماء في القرآن الكريم .
 ٢٨٩ * من آثار هذه الأسماء .
 ٢٨٩ * خلق السموات والأرض وما بينهما .
 ٢٩٠ * إهلاك المكذبين ونصر المؤمنين .
 ٢٩١ * دورات الحياة .
 ٢٩٢ * دورات المجرات والنجوم .
 ٢٩٣ * كون فسيح مترامي الأطراف .
 ٢٩٣ * خلق كل شيء فقدره تقديراً .
 ٢٩٤ * طلاقة القدرة في خلق الإنسان .

الصفحة

الموضوع

- * طلاقة القدرة في إحياء الموتى وتسوية البنان . ٢٩٦
- * جمع الناس ليوم لا ريب فيه . ٢٩٨
- * المؤمن يفوض أمره إلى القادر المقدر . ٢٩٩
- * القادر المقدر ينصر أوليائه في الدنيا والآخرة . ٣٠١
- * المؤمن يراعي توازن الكون من حوله . ٣٠٣
- * دعاء . ٣٠٥

المقدم المؤخر

٤٢ ٤١

- * معنى هذين الاسمين . ٣٠٦
- * ورود هذين الاسمين في الحديث الصحيح . ٣٠٧
- * من آثار المقدم المؤخر (سبحانه) . ٣٧
- * تقديم بني آدم على كثير من الخلق . ٣٠٧
- * تقديم الأنبياء بعضهم على بعض . ٣٠٧
- * تقديم بعض الجنان على بعض . ٣٠٨
- * تقديم بعض الملائكة على بعض . ٣٠٩
- * اختيار أمه محمد وتفضيلها . ٣١٠
- * اختيار البلد الحرام (مكة) وتقديمها على سائر البلدان . ٣١٠
- * تفصيل بعض الأيام والشهور . ٣١١
- * تقديم مقادير كل شيء . ٣١٢
- * التقديم والتأخير الكوني . ٣١٣
- * تأخير العقوبة عن العصاة لحكم كثيرة . ٣١٤
- * تقديم الله وتأخيرها للأشياء حكمة وخير . ٣١٥

الصفحة

الموضوع

٣١٦ * دعاء .

الفتاح الحكم الديان

٤٥ ٤٤ ٤٣

٣١٧ * معنى الفتح .

٣١٨ * ورود هذا الاسم في القرآن الكريم .

٣١٨ * معنى الحكم .

٣١٩ * ورود هذا الاسم في الحديث الصحيح .

٣١٩ * معنى اسم الديان وورده في الحديث الصحيح .

٣٢٠ * من آثار هذه الأسماء :

٣٢٠ * الفتح بإرسال الرسل والحكم بينهم وبين المكذبين .

٣٢٣ * الفتح الأكبر يوم القيامة والحكم بين الخلائق .

٣٢٦ * الفتح بالرحمة للمؤمنين .

٣٢٧ * النعمة بدون الرحمة تقمه .

٣٢٧ * والمحنة مع الرحمة نعمه .

٣٢٨ * فتح استدراج للكافرين .

٣٢٩ * شريعة الحكم الفتح أتم الشرائع وأحكمها .

٣٣٢ * الحق ما شهدت به الأعداء .

٣٣٤ * دعاء .

الخالق الخلاق الباريء المصور

٤٩ ٤٨ ٤٧ ٤٦

٣٣٦ * معنى الخالق الخلاق .

٣٣٧ * الفرق بين معاني الخالق والباريء والمصور .

الصفحة

الموضوع

- ٣٤٠ * معنى بديع السموات والأرض .
- ٣٤١ * ورود هذه الأسماء في القرآن الكريم .
- ٣٤٢ * كل المخلوقات أثر من آثار الخالق الباري المصور .
- ٣٤٣ * الفرق بين ما يخلقه الخالق وما يصنعه المخلوق .
- ٣٤٤ * من إبداع الخالق الخلاق .
- ٣٤٥ * خلق الجنين .
- ٣٤٦ * تركيب الأسنان .
- ٣٤٦ * تصميم العظام .
- ٣٤٩ * التفكير في بديع صنع الله .
- ٣٥١ * في كل الأعضاء .
- ٣٥٢ * أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت؟ .
- ٣٥٤ * دعاء .

الوهاب المنان الرزاق المقيت

٥٤ ٥٣ ٥٢ ٥١ ٥٠

- ٣٥٥ * معنى الوهاب .
- ٣٥٥ * الفرق بين هبة الوهاب وهبة المخلوق .
- ٣٥٦ * ورود هذا الاسم في القرآن الكريم .
- ٣٥٧ * معنى المنان .
- ٣٥٧ * الفرق بين معنى الوهاب ومعنى المنان .
- ٣٥٨ * المنه نوعان .
- ٣٥٩ * ورود هذا الاسم في الحديث الصحيح .
- ٣٦٠ * معنى الرزاق والرزاق .

الصفحة

الموضوع

- ٣٦٠ * الرزق العام .
- ٣٦١ * الرزق الخاص .
- ٣٦١ * ورود الاسمين في القرآن الكريم والحديث الصحيح .
- ٣٦٢ * معنى المقيت .
- ٣٦٢ * وروده في القرآن الكريم .
- ٣٦٢ * الفرق بين معنى الرزاق ومعنى المقيت .
- ٣٦٣ * الفرق بين معاني الوهاب والمنان والرزاق .
- * من آثار هذه الأسماء :
- ٣٦٣ * هبة الولد .
- ٣٦٤ * المن بالهداية والإسلام .
- ٣٧٣ * تسخير الكون لصناعة الأرزاق .
- ٣٧٧ * الخلية الخضراء وصناعة الغذاء .
- ٣٨٠ * توصيل الغذاء داخل الأجساد .
- ٣٨٣ * نعم الوهاب الرزاق لا تعد ولا تحصى .
- ٣٨٤ * أسباب نيل هبة الوهاب .
- ٣٨٥ * أسباب نيل الأرزاق .
- ٣٩٣ * دعاء .